تصدر عن مركز الهدى للدراسات الحوزوية

مجلة
فصلية علمية
دينية سياسية
تعنى بشؤون حوزتي
النجف الأشرف
وقم المقدسة

الحوزة

مجلة علمية فصلية

تصدر عن مركز الهدى للدراسات الحوزوية

العدد الثالث والعشرون/ السنة الخامسة/ ١٤٣٩هـ

المشرف العام

السيد قاسم هاشم مولى

رئيس التحرير

أ. عباس النوري

هيئة التحرير

حيدر النجار

إبراهيم الأسدي

التصميم والإشراف الفني

أحمد الهاشمي

info@markazalhuda.net

www.markazalhuda.net

دعوة للكتّاب

تود هيئة تحرير مجلة الحوزة ان ترحب بالأخوة والأخوات الباحثين والمتخصصين في الدراسات الدينية الحوزوية والذين يرغبون بنشر بحوثهم ودراساتهم العلمية والاكاديمية في مجلة الحوزة وفق المعايير التالية:

- ❖ أن تتناول البحوث والدراسات الشؤون الحوزوية المعاصرة وكل ما له علاقة بتطوير الحوزة والدفاع عنها وعكس صورتها المثلى
- ❖ تعتمد المجلة الأساليب العملية الراهنة في الكتابة والتوثيق والحيادية والموضوعية والدقة والإشارة إلى المصادر حسب القواعد العلمية المتعارف عليها.
- ❖ أن لا تكون البحوث قد نشرت في مجلات أخرى
- ❖ تقدم البحوث إلى المجلة مطبوعة وعلى (CD) مع موجز خالي من الأخطاء الطباعية.
- ❖ تخضع البحوث والدراسات إلى التحكيم العلمي المتعارف عليه أكاديميا ولا تعاد البحوث إلى أصحابها في حالة الاعتذار عن نشرها
- ❖ تنشر البحوث والدراسات وفق خطة هيئة التحرير والنشر

لا تمثل بالضرورة آراء الباحثين والكتاب رأي مجلة الحوزة

بسم الله الرحمن الرحيم

في هذا العدد

دور خطاب الامام الخميني في تنمية الشعور الثوري

د. رزاق الغزّاوي.....٥

قيام الثورة الإسلامية وتجاوز التحديات

أ.كاظم عبد علي.....٣٥

العنف التكفيري من منظور القانون الدولي

الأستاذ الدكتور حازم محمد عتلم.....٩١

أساليب النظرية التربوية في القرآن(المسجد والإعلام والمكتبات أنموذجا)

أ.د نذير الحسني.....١٠٨

الإلحاد بين تهافت الأدلة وإستنكار الفطرة

محمد جواد الحمداني ١٣٩

المنهج الاجتماعي عند العلماء المسلمين في إثبات المسائل الدينية والكلامية

السيد محمد باقر الهاشمي ١٦٢

مطهري .. السيرة والتجربة ومسارات التفكير

د. خنجر حمية.....١٨٦

د. رزاق الغزّاوي

جامعة الكوفة

دور خطاب الامام الخميني في تنمية الشعور الثوري لدى الشعوب الاسلامية

المقدمة:

يعتبر المشروع الثوري الذي أسسه الإمام الخميني من المشاريع المهمة والرائدة في مسيرة الجهاد والدفاع حيث قام الإمام بتنظير وإظهار الأيدلوجية الإسلامية الثورية وتطويرها وفق الحداثة والعصرنة الواقعية ودفعها إلى الشارع الإيراني المنادي إلى الحرية والعدالة والمساواة ومن ثم تصديرها إلى الشارع العربي والإسلامي لكي ينال حريته المسلوبة منذ زمن حادثة السقيفة.

لقد استطاع الإمام الخميني بتطوير وتنمية الشعور الثوري لدى الشعوب الإسلامية وذلك من خلال الخطابات السياسية والثورية التي تصعد أنفاس المقاومة والروح الثورية نحو التجليات

والسمو والرفعة من اجل الوصول إلى الهدف الحقيقي والسامي وهو رفع راية الإسلام خفاقة في سماء الأمة، الأمة التي قال فيها القران "كنتم خير امة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر"، وهذه الأمة التي اختارها الله إن تأمر ولا تأمر يجب إن تكون هي الإمام لا المأموم والرئيس لا المرؤوس في قيادة العالم نحو العدالة الاجتماعية والحرية والمساواة ومن خلال هذا الاختزال البسيط يمكن تقسيم البحث إلى ثلاثة مباحث رئيسية حيث تناول المبحث الأول ماهية الثورة في فكر الإمام الخميني إما المبحث الثاني فيتناول الطريقة والمشروعية في تصدير الثورة إلى الشعوب الإسلامية والثالث فقد ركز على الدور الايجابي للخطاب الإمام الخميني لتنمية الشعور الثوري للشعوب الإسلامية.

المبحث الأول:
ماهية الثورة في فكر الإمام الخميني

إن مفهوم الثورة عند الإمام الراحل يمكن استنطاقها من الأصول الفكرية التي حكمت هذه الثورة المنتصرة وتجلت في واقعها السياسي والاجتماعي والثقافي القائم اليوم في الجمهورية الإسلامية الإيرانية ونستطيع إيجازها بالآتي:

١ـ دعا الإمام الخميني إلى الجمع بين مهام الفقيه ومهام السياسي، ورأى في الفصل بينهما تعطيلا لأهم ركن من أركان الإسلام ينتهي الى تحويل الإسلام الى كنهوتية مسيحية. ذلك ان الإسلام جعل السياسة من صلب قواعد عبادته (الحج، صلاة الجمعة، صلاة العيدين)، والمساجد فيه ليست دورا للعبادة فحسب، وإنما هي برلمانات وثكنات وخزائن لبيت المال، ومدارس وجامعات ومجالس قضاء ومنتديات. فالإمام يعدُّ اذن (من هذا المنطلق) أول من تكلم عن إنشاء حكومة إسلامية في هذا العصر بتشريعها وجهازها التنفيذي.

٢ـ تبرز في فكر الإمام الخميني (القيادي ـ التنفيذي) جملة قواعد[1]:

"وحدة القيادة أساس في كسب النصر.

عُدة النصر= بناء النفس+ التنظيم + إعداد العدة.

الأخذ بوسائل العصر في التنظيم والانضباط وإعداد العدة.

إعادة النظر في التقنية وشروطها لتخليصها من السلبية في مفهومها الشائع.

توثيق صلة العلماء بالشعب (السوق والشارع) "، فالأمة هي الأصل في قوة العلماء ومراجع الدين الذين لم يتخذوا من الدين تجارة ولم يتطفلوا على الدين وجعلوا من الإسلام أمانة مقدسة في أعناقهم يجب حفظها والدفاع عنها.

٣. بهذه المثابة يكون الإمام الخميني صاحب مدرسة فكرية مكتملة نشأ رجالها في الحوزات العلمية فربطوا العلم بالعمل، ورجعوا الى الأصالة في مواجهة حركة التغريب الفكري والحضاري دون ان يقطعوا صلتهم بالعصر وحاجاته، وتسلحوا بفكر ثوري غير مهادن يقف على الجبهتين الداخلية والخارجية ويستمد من تراثه الأصيل والإيمان به دوافع الثقة والقوة والشموخ، اذ لا شيء يستحيل تحقيقه مع الإيمان الصحيح القوي، وما حققته ثورته كان يبدو قبل فوزها أضغاث أحلام (تقويض سلطة الشاه بأجهزتها كلها وبارتباطاتها الخارجية).

٤ـ وهكذا قدمت المدرسة الفكرية الى المسلمين والى العالم مشروعا حضاريا ملائما لروح العصر ومتصلا في الوقت نفسه بأصوله الإلهية فهو في مبناه ومعناه لغة جديدة تواجه ثقافة العصر العالمية التي قطعت صلاتها بالغيب وربطتها بالمحسوس وحده، ويمكن ان نعدها امتدادا أصيلا وحيا لحركة الإحياء القائمة على أصولها العميقة من وحدة التراث الإسلامي والنازعة الى ربط مصلحتها بمصلحة الإنسانية كلها على أساس انها مكلفة بحمل رسالة يمكن ان تعين على إنقاذ

المدينة المعاصرة من الدمار (قلب مفهوم السياسة وغاياتها المنقولة عن كتاب (الأمير) لميكيافيلي في الحضارة الغربية، الى الرحمة ورد الظلم والمساواة بين الناس والانتصار للحق في المفهوم الإسلامي).

وهي رسالة ينبغي ان تتجند قوى الأمة كلها ؛ الروحية والمادية والعلمية لإبلاغها والنضال في سبيلها، وعلى هذا النحو نفهم مؤدي الكتاب الذي كتبه الإمام الخميني الى غورباتشوف فهما سليما، ونفهم البعد العالمي لثورته التي ربطت فكرة تحرير المسلمين بتحرير المستضعفين في الأرض ووصلت قضايا المسلمين بقضايا التحرر العالمية.

٥. يحمّل الإمام الخميني علماء الأمة تبعات كبيرة، فقد ألحّ على نظافة مسلكهم وبعدهم عن إغراءات أصحاب السلطان واستعلائهم على الدنيا وزهدهم في زينتها وحطامها. فالدنيا - كما يقول - " ليست شيئا ذا بال، والعالم المتقي يصلح مجتمعا بأسره، واذا فسد العالِم فسد العالَم. ولهذا كان يرى ان يدرَّس علم الأخلاق في الحوزات العلمية، اذ لا قيمة للعلم إلا مع العمل واستقامة السلوك، فإن (العمامة) و(اللحية) قد تحولان بين الإنسان وإصلاح نفسه في أحيان كثيرة، اذ تزيدان من التكبر والغرور وتسوغان طرق الضلال وتفرعاتها بالسعي الى الجاه الكاذب والشهرة الفارغة. ومن هنا ضيّق الإمام على العلماء مجال التوبة وأباحها للعامة الذين "يعملون السوء بجهالة"[٢]، أما العلماء فلا تقبل توبتهم. وهو يدعو العلماء من ناحية أخرى الى التضامن والوفاق، فقوتهم في وقوفهم صفاً واحدا في مواجهة معسكر البغي. والمهم في هذا كله ان يحوّلوا ولاء الناس الكاذب للسلطة، الى ولاء روحي عميق للرسالة التي يجسدونها في أعين

النـاس، وبهـذا يعيـدون للجهـاد معنـاه الحقيقي وللشهادة قيمتها الكبرى.

٦ـ لا شك ان الإمام الخميني قوّى عـزائم النـاس في مواجهـة الأنظمـة السياسـية الظالمـة في العـالم الإسـلامي وعمـل علـى تقـويض نزعـة الاستسـلام التقليديـة لأولي الأمـر أيـا كـانوا. وهـي النزعـة الـتي شـاع أمرهـا في حيـاة المسـلمين بحكـم بعـدهم عـن حقـائق الحياة السياسية الديمقراطية السليمة، حـتى قـوى إحساسـهم بفقـد حريتـهم الداخلية جراء ولائهم الكاذب للسلطة، وفقدوا صلتهم الروحية بها وشجاعتهم في مواجهتها ونمت فيهم ظواهر الخنوع برذائلها كلها وقد اعتمد الإمام في هذا تـراث آل البيـت وتقاليـد أئمتـهم في مقاومـة الظلـم والظـالمين والانتصـار للمظلومين والمستضعفين حتى أصبحت مفـردات الاسـتكبار والمسـتكبرين الـتي أطلقها من شعارات الثورة.

٧ـ ولكن الإمام رمى من وراء تطهير السـاحة الداخليـة، الى ان يهيـئ لنقـل خـط الصـراع في حيـاة المسـلمين مـن الـداخل في مواجهـة القـوى الـتي تـذلهم. ومـن المحـزن جـدا ان تكـون مأسـاة الحرب العراقية الإيرانية، نكسة خطيرة في وجـه هـذا الجهـد، اذ كانـت حركتـه تـدعو الى ان يكـون الـولاء الروحـي والسياسي والاجتماعي عند الفرد المسلم ـ مهمـا يكـن مذهبـه ـ للإسـلام وحـده بثوابتـه الـتي ينبغـي ان تحـدد وتنفـرد بـالولاء. ولهـذا دعـا الى مـؤتمرات تعقـد لزعمـاء المذاهب الإسـلامية في أقطارهـا المختلفـة، ليتعـاونوا علـى فـرز الثوابـت وجمـع القلـوب عليهـا، ولينفـوا عـن أنفسـهم مـا علـق بهـا بعـد هـذا التـاريخ الطويـل مـن الشـكوك والظنـون والتعـادي في الطريـق الى حسـن الفهـم المتبـادل وبناء الثقة المتبادلة.

٨ـ وهكـذا خـرج الإمـام بثورتـه

الإسلامية على التقليد القائم بانكفاء كل قطر إسلامي على همومه فهو يهتم بكل حركة إسلامية على امتداد ديار الإسلام، وخرج بها أيضا على تقاليد الصراع السني ـ الشيعي على مدار التاريخ الإسلامي منذ يوم كربلاء وما قبله، فردّ بثورته على سلبيات التاريخ الإسلامي كله، وعلى الواقع الإسلامي القائم (المذهبية، العرقية، الاقليمية، التقاطع السياسي في الداخل) وعاد الى التمسك بالخط الإسلامي الصافي الذي لمع نجمه مع ظهور الإسلام في وجه القوى الخارجية: الثقافية والسياسية والعسكرية، متجاهلا انشغال كل قطر إسلامي بنفسه، لبعد المسافات واختلاف المشكلات التي تتعرض لها المجتمعات المختلفة، ولاختلاف ألوان الثقافات بحكم اختلاف الظروف، فأعاد على نحو ما، طرح قضية المجتمع الإسلامي الواحد او المتحد من حيث يظن الناس انها قضية قديمة عفا عليها الزمن، وطرح من ورائها قضية الوحدة الإسلامية على صورة من الصور. ومن هذا المفهوم الجامع دعا الى تخصيص أيام إسلامية يجتمع المسلمون في أقطارهم جميعا على الاحتفال بها (آخر جمعة في رمضان: يوم القدس، وأسبوع ولادة الرسول من ١٢ـ ١٧ ربيع الأول) إيقاظا لشعورهم بانتمائهم الواحد بدل انتماءاتهم المختلفة.

٩ـ ولكن صلته بالعلم الحديث وحاجاته وحاجات الفرد المسلم منه كانت لا تغيب عنه، وكان يدرك إدراكا قويا بحاجة الفرد المسلم الى ان يدرب على الحياة فيه، ويتضح له موقف الإسلام من قضاياه الكبرى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية حتى يملك قدرة التحرر من التبعية للآخرين كما يملك القدرة على التحرر من

أدوائه في داخل الساحة الإسلامية وهي الأدواء التي يجمعها التخلف بجوانبه المختلفة.

١٠ــ وجوه التخلف الذي تعصف أدواؤه بالعالم الإسلامي يمكن إجمالها في: الأمية والفقر، واستشعار الدونية لضعف الانتساب الى العصر، وطغيان الفردية والمحسوبيات، وانحلال الرباط الاجتماعي، وفراغ المذاهب والفرقة بينها، وإغلاق باب الاجتهاد، والالتفات عن بناء نظام اقتصادي إسلامي معاصر، وسوء توزيع الثروة الإسلامية، واختلال التوازن بينها وبين عدد السكان (الانفجارات السكانية)، وهكذا يجمع التخلف حقول الحياة بمجموعها ؛ الاقتصادي والعلمي والفكري العام (الثقافي) والاجتماعي والسياسي.

١١ــ وقد واجهت مدرسة الإمام الفكرية هذا الواقع الإسلامي السيئ بالدعوة الى إصلاح البيت الإسلامي، وإصلاح أساليب التربية، وبتكوين هيئة من رجال المذاهب الإسلامية للبحث في فرز نقاط الافتراق والاجتماع وبث الوعي في النفوس ومواجهة قضايا العصر الكبرى مثل: التوفيق بين القومية والدين ومواجهة الرجعية بمعناها الحقيقي ومعالجة قضية المرأة والقضايا الاجتماعية الأخرى وتحكّم الطائفية في المجتمع الإسلامي وتحكّم الإقليمية والعنصرية.

١٢ـ ووقفت هذه المدرسة وقفة طويلة أمام القضية التي تواجه العالم الإسلامي منذ ظهور الإسلام، وهي عداء الغرب على إطلاقه لنا، على حين لم يقف موقف العداء من أديان أخرى مثل البوذية والهندوسية، ولم يثر حولها مثل الضجة التي أثارها من حولنا.

والطريف ان الإمام رمى هنا الى ان يعيد المسيحية أيضا وجهها الحقيقي بعيدا عن إرادة الإذلال التي تسلح بها

معتنقوهـــا في الميـــدان السياســـي والعسكري، فكأنه في مواجهة الغرب في عدائه للإسلام سعى ان يعيد الى الدين في ذاته وجهه الحقيقي القائم على وحدة المصدر ووحدة القيم ووحدة المصير الإنساني كما أراد الله لهذه الأديان السماوية ان تكون.

لقد بلغت عداوة الغرب للإسلام ان عملوا على تفكيك العالم الإسلامي، وظنوا ان الدعوة الى وحدته قضى عليها التأثر بالفكر الغربي وحضارته الحديثة وما جاءت به من ثقافات وتجارب اجتماعية وسياسية. فهم ظنوا أنهم دفنوا الإسلام بصفته فكرا يعمل على تكوين المجتمعات الإسلامية الحديثة وسياسات دولها، وعملوا على إثارة النزعات"التاريخية" كالنزعة الشعوبية التي أشار اليها رئيس الجمهورية الفرنسية في بعض حديثه عن دافع فرنسا الى تسليح العراق ! فقد جاء الإمام الخميني يبعث أفكار الوحدة الإسلامية ومن البلد الذي يظن انه هو الذي صدرت عنه النزعة الشعوبية في القديم والحديث.

لقد نجح الإمام الخميني على المستوى الداخلي والخارجي والعالمي والإسلامي، فخلّص الشعب الإيراني من مظالم الشاه وفساد حكمه وأقام الجمهورية الإسلامية القوية، ودعا الى وحدة الأمة الإسلامية، لتتمكن من الصمود أمام غطرسة الاستكبار العالمي بقيادة أمريكا.

واستطاع بفضل إيمانه الراسخ، وإخلاصه لله ربه، واعتزازه بدينه ومقومات أمته ان ينفذ الى قلوب العالم الإسلامي، فيستقطب محبتهم ومشاعرهم الأخاذّة، ويوجهها وجهة واحدة، لحماية مصالحها، واستقلالها الذاتي وبلادها، والتحكم في مصير ثرواتها، وتمكنها من أداء دور عالمي رفيع المستوى، وذلك من خلال

المنطلقات أو الأسس التالية[٣]:

• إدراكه قوة الأمة الإسلامية فكريا واجتماعيا واقتصاديا وعقيديا وثقافيا وسياسيا، وهذه القوة تستطيع بها إثبات الذات، والدفاع عن القيم الإسلامية العليا، والانطلاق في ترسيخ أسس الدعوة الإسلامية في العالم المعاصر وفي كل زمان ومكان، انطلاقا من قول الله تبارك وتعالى ﴿ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾.

• إمكان علاج مرض الأمة الإسلامية، وتجاوز مرحلة ضعفها الآنية، وتخطي مظاهر تخلفها، وإصلاح سوء أوضاعها الحالية، وليس الأمر عسيرا، بل هو ممكن بالعودة الى تبني تعاليم الإسلام الراسخة في العزة والمكانة، والعمل على وحدة الصف، والتعاون فيما بينها تعاونا أوثق لحل مشكلاتها الاقتصادية والاجتماعية، وبناء نهضة قوية تبدأ من الزراعة والصناعة المتطورة، ثم برمجة محاور النهضة والتخطيط لها في جميع الميادين عملا بالآية القرآنية الكريمة ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم﴾.

• القدرة الذاتية عند الشعوب الإسلامية للتخلص من هيمنة العالم الغربي، والاستكبار العالمي بزعامة أمريكا، وتقليص تدخلها في شؤون الأمة العربية والإسلامية، وإلجامها وإنهاء نفوذها واسترداد ثروات المسلمين النفطية والمعدنية وغيرها، والاستغناء عن اقتصادياتها، ومقاطعتها مقاطعة مبرمجة وحكيمة وقوية، وطريق ذلك كله يبدأ من تخليص الشعب والقادة من الشعور بالتخلف، والتخلص من عقدة النقص، والاستعداد للبناء والعمران الجاد، فإن أمريكا ودول الغرب ـ وريثة الحضارة الرومانية ومبادئها ـ لا تؤمن ولا تحترم غير القوة المادية، وهي قوة يمكن

تحقيقها، وان يضم اليها القوى الروحانية الشديدة التي تحمي التطلعات، وتؤدي الى التماسك والصبر والجدّ والعزيمة في تنفيذ المخططات، والتي يفتقدها العالم الغربي والشرقي برمته.

ومقومات هذه الخطة: العودة الى دمج الدين بالدولة، وإنهاء أسطورة الغرب التي روّجها المشبوهون وتلامذة المستشرقين وأدعياء الحرية والوطنية والتقدم، وهي مبدأ فصل الدين عن الدولة، الذي نجح في الغرب نجاحا طبيعيا، لأن المسيحية تدعو الى هذا الفصل وتباركه، ولأن الكنيسة وقفت أمام النظريات العلمية، وتقدم الحياة. أما الإسلام ورجاله فلا يعرفون هذه الآراء، ويؤمنون بتلازم المسيرتين: الدينية والدنيوية، فهما يخدمان بإخلاص تطلعات الأجيال وبناء حضارة الأمة، فكان لابد من إسقاط هذا الشعار.

المبحث الثاني:
الطريقة والمشروعية
في تصدير الثورة الى الشعوب الإسلامية

عند ما خطب الإمام الخميني للمرة الأولى عن ظاهرة تصدير الثورة ربما لم يفهم الكثير من الناس دافعه بشكل صحيح، ولهذا الغرض سعى في كتاباته وأحاديثه بعد فترة قليلة إلى أن يوضح أبعاد هذه المسألة للجميع. وفي إحدى هذه الخطب، ضمن وصفه وتحليله لهجوم وكالات الأنباء الغربية المتعددة التي كانت تسعى إلى تشويه وجه الثورة الإسلامية خارج إيران، خاصة لدى المسلمين، أعلن: " "أننا سنصدر ثورتنا إلى كل العالم حتى يعلم الجميع لماذا قمنا بالثورة. لقد كان هدفنا الاستقلال بمعنى التحرر من القيود والتبعية للشرق والغرب، أي أمريكا والاتحاد السوفيتي (السابق)، والحرية، أي التحرر من أغلال استبداد إمبراطورية شاه إيران (الحكم البهلوي)، والجمهورية الإسلامية، أي أن يحقق الإيرانيون حلمهم بإقامة حكومة على أساس الإسلام والديمقراطية"[٤].

ولقد أوضح ببيان صريح أن "هدفنا من تصدير الثورة ليس الاعتداء العسكري لأن هذا عمل الدول الاستعمارية ولاسيما المعسكرين

الموجودين في تلك الفترة، إننا نريد أن يعرف العالم مبررات ثورتنا ونوضح أهدافنا أن القوى العظمى لا تريد ذلك، لو أن الناس في العالم يعرفوننا، فأنهم سيقومون بالدفاع عنا، ولن ينخدعوا بحيل وسائل الإعلام الإمبريالية... لأنهم يهاجمون ثورة الشعب الإيراني ويتآمرون عليها بسبب ضياع مصالحهم فيها"[٥].

وفي نفس الوقت فإن وسائل الإعلام الغربية سعت إلى تفسير موضوع تصدير الثورة الإسلامية على النحو الذي تريده. ولقد قالوا في تحليلاتهم أن هتلر وستالين أيضا قد فشلا في تصدير ثورتيهما، وانهزما في النهاية. ولقد قصدوا بعرض هذا التحليل إلى أن يعلنوا على العالم مع الأخذ في الاعتبار نظرة الناس السلبية تجاه هتلر وستالين، أن هدف الإمام الخميني من تصدير الثورة هو نفس الأمر الذي كان يسعى إليه هذان الزعيمان اللذان ينفر العالم منهما.

وكذلك فإن بعض الأنظمة السياسية في المنطقة كانت تعتبر ان أي فكر جديد في المنطقة يعد خطراً على حكوماتها، فاتخذت قراراً متسرعاً تحت تأثير هذه الدعاية، وصارت مع وسائل الإعلام الغربية في نفس الاتجاه، وأطلقت على تصدير الثورة ظاهرة مخيفة على مستقبل البشرية.

ولقد جعلت بعض هذه الأنظمة نظريتها في حدود محلية، واعتبرت أن هدف الإمام الخميني هو الهجوم الديني فزعمت أن هدفه هو تشييع المسلمين السنة. أو بعبارة واحدة القضاء على المذهب السني. وبنظرة عابرة على الكتب والمقالات التي نشرت في الثمانينيات نجدها تعبر عن هذا الواقع.

هل قام الإمام الخميني بهجوم عسكري على مكان ما من أجل تصدير الثورة ؟ هل كان هدفه القضاء على المذهب السني ؟ الإجابة على هذه الأسئلة ليست أمراً صعباً، لأن الجميع يعرفون أن جيش الجمهورية الإسلامية الإيرانية أو الحرس الثوري لم يقم بأي عمل عسكري ضد أية دولة أخرى، بل كان يوجد في لبنان لفترة وجيزة من أجل مساعدة اللبنانيين والفلسطينيين في حربهم ضد إسرائيل وكان يقتصر على العمل اللوجستي دون التدخل في الشؤون الداخلية.

إن هدف الإمام الخميني الذي كان يسعى إلى تحقيقه هو وحدة المسلمين، لقد أعلن أنه على الرغم من إصرار بعض الذين كانوا يسعون إلى إقامة جمهورية شيعية، إلى أن هدفه كان هو إقامة جمهورية إسلامية، حيث كان يعرف أن الشيعة والسنة بينهما اختلافات في بعض المسائل الفرعية، ولهذا فقد حذف بعضا من آرائه وملاحظاته السابقة في كتب مثل "تحرير الوسيلة" و"كشف الأسرار" بعد الثورة الإسلامية، وأمر الإيرانيين بإصرار أن يصلوا مع أهل السنة في موسم الحج وفي الحرمين الشريفين، حتى أنه اعتبر أن القيام بمثل هذه الطقوس الشيعية الخاصة التي من الممكن أن تعود بالضرر على وحدة المسلمين (سواء شيعة أم سنة) مبطلة للصلاة.

لقد كانت هذه خطوة عملية تجاه الوحدة الإسلامية، وكانت دليلاً على نيته الخالصة في الدفاع عن الكيان الإسلامي. حتى عندما ذهبت إليه جماعة من أتباعه أوصاهم بأن يؤدوا الصلوات الخمس في أوقاتها، في حين أنه كان يعلم أن الشيعة تجيز جمع الصلاتين وأنهم اعتادوا على ذلك.

وقد تحدث الإمام الخميني في السنوات الأخيرة من عمره مرات عديدة عن الإسلام المحمدي الخالص، واصطلاح (المحمدي الخالص) بمعنى أنه كان يميل إلى الإسلام في عهد الرسول، حيث كان الإسلام لا زال صافياً لا تشوبه شائبة لقد كان يعرف لو أن المسلمين وضعوا هذه المسألة نصب أعينهم فإن كثيراً من الاختلافات المذهبية سوف تتضاءل ولن يستطيع الاستعمار أن يشعل نيران الاختلافات العرقية والدينية بين المسلمين.

وبالنظر في مسألة تصدير الثورة يجب أن تتضح هذه المسألة، ما هي ماهية الثورة ؟... وما هي أهداف الزعيم أو زعماء الثورة من هذه الظاهرة ؟.. من وجهة نظر الإمام الخميني وأغلبية الإيرانيين كانت الثورة هي التحرر من الاستبداد والوصول إلى الحرية والديمقراطية، وفي نفس الوقت كان هناك نوع جديد من النظر تجاه بعض الأمور، ويمكن القول أن الثورة في الواقع كانت ثورة في فكر الإيرانيين وهذه المسألة يمكن التعبير عنها من الآية القرآنية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

كان الإمام الخميني يؤمن أنه قد تم تغيير فكر ومعتقدات الإيرانيين خلال العقود الأخيرة، وأنهم عادوا ينظرون مرة أخرى تجاه الإسلام بشكل جيد، وكانت هذه المسألة في رأيه دليلاً على أن الثورة الإسلامية ثورةً على كل شيء وتغير في رؤية الناس ومعتقداتهم.

واستيعاب فكرة الثورة بهذا الشكل معناه أن الثورة ليست بضاعة ولا سلعة بالقطع لكي نستطيع توريدها أو تصديرها. الثورة هي مشروع طويل الأجل تتشكل من خلاله أفكار ومعتقدات أمة مع الأخذ في الاعتبار سماتها الفكرية والقومية.. وبعبارة

أخرى الثورة هي فكر وعقل.. الفكر سواء كان خيرا أم شرا متحرك لا يعرف الحدود، ويتميز بأنه ينتقل بسرعة.

اليوم وعلى أرض الواقع نحن نشاهد هذه الظاهرة بشكل واضح جداً، فهناك كثير من الدول ليست بينها علاقات سياسية ولكن الأفكار موجودة بين مجتمعاتها ويمكنها أن تنتقل بسهولة من مكان إلى مكان.

وعلى سبيل المثال، فإن إيران لا تستطيع على الإطلاق أن تحول دون دخول الأفكار الغربية إليها، فهذه الأفكار تدخل إيران بأشكال مختلفة: وسائل إعلام، ملابس، موسيقى، أغذية و...، والطريق الوحيد هو مواجهة بعض الأفكار الخاطئة وأن يُعرض على الناس الفكر الصحيح لكي يستطيعوا أن يختاروا أفضله بأنفسهم.

وكذلك الغرب أيضا لا يستطيع مع وجود منتجاته في مجال الاتصالات أن يمنع دخول الأفكار الموجودة في الدول الإسلامية ومن بينها إيران إلى بلاده، والأفكار الناتجة من فكر الثورة الإسلامية موجودة في الغرب منذ سنوات مع الأخذ في الاعتبار هذا المفهوم وهو أن الإمام الخميني أعلن في خطبه مع بداية الثورة الإسلامية أن ثورتنا الإسلامية تم تصديرها إلى كل العالم، وكان يقصد أن العالم قد عرف الثورة الإسلامية بشكل يخالف ما تشيعه وسائل الإعلام الإمبريالية، وعرف لماذا قمنا بالثورة، وماهية ثورتنا الإسلامية.

الآن ومع التكنولوجيا الجديدة من الممكن أن نزعم أن انتقال الأفكار وتبادلها أصبح أكثر من ذي قبل، لأن الأقمار الصناعية وشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) هي أدوات ووسائل

جديدة ومتقدمة تخدم هذه الظاهرة، ومن الطبيعي أن الأفكار يتم قبولها إذا كانت تحمل مفهوماً جديداً جديراً بأن يجذب انتباه الناس.

بالطبع إن بعض هذه الأفكار سوف تبقى وتدوم على الأمد البعيد، وستقود الناس من الظلمات إلى النور. والفكر أو النظرية هو الرمز الخالد الذي يكون لصالح الناس في الواقع وهذه المسألة تتجلى بوضوح في الآية القرآنية: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾... والنظر في تاريخ الفكر في العالم يثبت هذه المسألة، إن شرط قبول وثبات فكرٍ ما، ليس القوة السياسية والعسكرية لأصحابه.

وتحاول الولايات المتحدة الأمريكية الآن أن تفرض الفكر الديمقراطي على الشرق الأوسط بقوة السلاح، فهل ستنجح في أن تستولي على قلوب الناس ؟ يؤكد الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم على هذه المسألة باعتبارها واحدة من السنن الموجودة في الكون ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ فالقوة والسلاح لهما مدى محدود، أي أنه عندما يزول الضغط الناتج عن السلاح سيتبدد كل شيء، حتى البشر لا يستطيعون أن يُحملوا إلى الجنة بالقوة، لأن الله خلق الناس أحرارا، ومنحهم حق الاختيار بين الحق والباطل.. حتى أن الله سبحانه وتعالى يقول مخاطباً الرسول ﷺ: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بمسيطر﴾.

ويجب الاعتراف أنه بعد مرور ثلاثة وثلاثين سنة على انتصار الثورة الإسلامية، فإن كثيرا من الناس في العالم قد اتبعوا عبثاً ادعاءات "مؤامرة تصدير الثورة"، وهم يعرفون أنهم مستعمرون وأنهم أخفوا نواياهم المسمومة في قوالب جميلة من الديمقراطية وحقوق الإنسان، وأنهم

اعتـدوا علـى شـعوب العـالم المظلومـة بحملات عسكرية.

منـذ سـنوات تعـرف الشـرقيون ومـن بينـهم المسـلمون علـى مصـطلح "الغـزو الثقـافي العـربي" ووضـعوا أبعـاده موضـع البحـث في كتبـهم ومؤلفـاتهم بشـكل منتظم وراحوا يعرضون سبل مواجهته.

وها هي الولايات المتحدة التي كانت تخيـف الـدول الإسـلامية مـن تصـدير الثـورة الإسـلامية، تقـدم الآن علـى تصـدير الديمقراطيـة بغـزو عسـكري، وهـدفها مـن الديمقراطيـة خلـق منـاخ جديـد في الـدول الإسـلامية لكـي تـأمن على مصالحها الطويلة الأجل في المنطقة بشكل أفضل وأكثر من ذي قبل.

ومنطـق الولايـات المتحـدة هـو إيجـاد وسيلة لحفظ مصالحها في المنطقة، وفي الوقت نفسه الإفادة من الديكتاتوريات، الليبراليـات، الـنظم العسـكرية، والانقلابـات وكـثير مـن المفـاهيم المتناقضة.

وهـذه الدولـة هـي الأولى الـتي استخدمت القنبلة الذرية ضد الآخرين، ولهـا حلفـاء مثل إسرائيل لـديهم قنابل ذريـة، ولكنـها ليسـت مسـتعدة الآن لكـي تعتـرف رسمياً بحـق إيـران في امـتلاك تكنولوجيا نووية للأغراض السلمية.

خلاصة القول:

ـ لقد كان هدف الإمام الخميني من اصـطلاح "تصـدير الثـورة" هـو بيـان ماهيـة الثورة، وهـدف الثـورة الإسـلامية لشعوب العالم حتى لا يقعوا تحت تـأثير وسائل الإعلام الإمبرياليـة. وأن يعلـم أن فكـرة الهجـوم العسـكري علـى الـدول الأخـرى ناتجـة مـن الفكـر ألاسـتكباري الاستعماري وكان يخالفه.

ـ وفي المقابـل لقـد سـعت وكـالات الأخبـار الإمبرياليـة إلى إشـاعة أن

تصدير الثورة هو نفسه تصدير الإرهاب، لإخافة شعوب العالم عند سماعها ذلك.

ـ تدعي الولايات المتحدة الآن أن غزوها العسكري لدول المنطقة من أجل "تصدير الديمقراطية" وإنقاذ الشعوب، لا لتأمين مصالحها على المدى البعيد، وهذا مخالف للواقع.

المبحث الثالث:
الدور الايجابي لخطاب الإمام الخميني لتنمية الشعور الثوري لدى الشعوب الإسلامية

إن التاريخ دائماً هو الحكم في تقييم حياة الرجال العظام بعد وفاتهم، وسوف يقيّم بشكل كامل مجموع انجازاتهم في حياتهم والأثر الذي يتركونه على الأحداث، وبعضهم سيكون تأثيره وقفاً على حياته، بينما يكون للبعض الآخر تأثير يمتد إلى زمن طويل بعد موتهم. والإمام الخميني من هذا الصنف الأخير. والأمر الآخر هو أنه مهما يكن الشخص الذي يكتب تاريخ فترة آية الله الخميني، حتى ولو كان من أعدائه، فإنه ولابد سيعترف بحقائق ثلاث[٦]:

أولاً: إن تأثيره لم يتحدد بإيران فقط وإنما تعداه إلى خارج حدود إيران ودخل إلى عمق الأقطار الإسلامية الأخرى كلها. وتمثل هذا التأثير بإشعال جذوة النهضة الإسلامية فيها.

ثانياً: كان لهذا تأثيره العميق على السياسة العالمية، وجعل العالم يعترف بأن الإسلام قوة لابد من إدراك أهميتها.

ثالثاً: إن التأثيرات السابقة ستبقى إلى زمن أطول كثيراً من حياة الإمام الخميني.

وهناك مساحات عديدة برز فيها تأثير حياة الإمام الخميني بشكل خاص أو عام، وسنشير إلى نواح مخصوصة منها. ولن يكون بمقدورنا بالطبع أن نعطي شرحاً واضحاً لها، ولكننا سنشير إلى النقاط الأساسية فيها:

١ـ تحطيم التدخلات الخفية للقوى العظمى:

عندما بدأت شواهد انتهاء القوى الاستعمارية وضمور دورها في القرن العشرين، بدأ شكل آخر من الكفر يحتل مقامها، وقد بدأ هذا العصر بولادة القوى العظمى، أميركا والاتحاد السوفيتي وقد اقتسمت الدولتان العالم بينهما وأما الدول التي لم تقبل أن تصبح تابعة لهما، فإن حكامها هددوا بالمقاطعة الاقتصادية واستعمال القوة لإجباره على التخلي عن الحكم باستعمال الطرق المختلفة التي نجحت أجهزة المخابرات العالمية في استعمالها.

وفي العام ١٩٥٣ نجحت "السي. آي. أيه" باستعمال طرقها الخبيثة وإعادة الملكية إلى إيران. وحركت السي. آي. أيه جهاز السافاك ــ المخابرات السرية الإيرانية ـ للقبض على واغتيال جميع العناصر الإسلامية. وجرى احتواء اقتصاد "البترو ــ دولار"[٧] الإيراني داخل النظام الرأسمالي الأميركي من خلال بيع "أنماط التحديث الجاهزة". ولم تفلح ملايين البترو ــ دولارات في إقامة نظام اقتصادي متوازن، لأن الفقراء بقوا على أشد ما يكونون عليه فقراً. وكان عليهم، في الحقيقة، أن يهاجروا إلى المدن طلباً للمعيشة وسكنوا بيوتاً من علب الصفيح. إن أخذ اثنين وخمسين رهينة أميركية من قبل إيران قد هزت العالم. وأساس الهزة هي قدرة دولة صغيرة على تحدي دول كبيرة. وأثبت هذا العمل كيف أن بمستطاع دولة صغيرة أن تجبر دولة

عظمى على الركوع والدخول معها في مفاوضات لاستعادة ملايين الدولارات الإيرانية التي اغتصبتها منها أميركا. وكان هذا العمل من قبل الإمام الخميني تحطيماً للتدخلات الخفية للدول العظمى.

٢ـ خلق الأرضية للتحرك الثوري في البلدان الإسلامية:

الثورات ظواهر نادرة لا تحصل في كل يوم من حياة العالم. وفي العالم الإسلامي بشكل خاص، لم تحدث هناك ثورة لقرون عديدة. وما زالت القوى الاستعمارية التي تغلبت على دول المغول والعثمانيين هي المسيطرة على العالم الإسلامي. وقد وضعوا ألعوباتهم على دفة السلطة في البلاد، التي تخلوا عنها حتى بعد زمن طويل من رحيلهم. وتمتعت الحكومات الجديدة بقوة مطلقة (ديكتاتورية) وأجهزة أمنية قوية استطاعت أن تدمر كل المجاميع المعارضة لها. ولكن الثورة الإسلامية في إيران فتحت طريقاً جديداً للتغيير السياسي في العالم الإسلامي. وبرز هذا الطريق من خلال الجماهير التي التفت حول قيادة الإمام الخميني. وإن المهارة التي أدار بها الإمام الخميني ثورته تجاوزت كل نظريات الثورة المعروفة.

٣ ـ دور العلماء:

بعد وفاة الرسول الأعظم ﷺ وتحول الخلافة إلى شورى مقيدة وملك عضاض، لم يعد بالمستطاع طرح قيادة تحتل المقام الصحيح، وكان هناك ثلاث مرشحين: رجال مثل أبي ذر الغفاري الذي استطاع مواجهة الحكام بصراحة وجابههم في وجوههم ولكن هذه النوعية في الصحابة كان نادرة، وكان يندر أيضاً أن نجد تحدياً مسلحاً من أفراد أسرة الرسول صلى الله عليه وآله بعد ثورة الحسين بن علي عليه السلام الذي استطاع

بشهادته أن يسحب الشرعية من حكام عصره. والجماعة الثالثة التي كانت مرشحة للقيادة هي فئة العلماء ولكنهم اخضعوا للجهات الحاكمة لتمرير سياساتها. وقد كان لتخلي غالبيتهم عن دور القيادة أثره في تشويه صورتهم لدى العامة. وجرى حصر وظيفتهم بالشعائر الإسلامية، كالعبادات وحدها، من دون إنجاز عمل كبير للإسلام. وكان الإمام الخميني قد صادف في مسيرته الجهادية علماء كثار مثل هؤلاء ممن كان علمهم قد وضع في خدمة الشاه ودولته. ولكن الإمام أثبت أن هناك استثناء لما هو مطروح وأن الإسلام لا يكون مطلقاً في خدمة الشاه ودولته ولكن فقط في سبيل الله سبحانه وتعالى وكان لدور الإمام الخميني في قيادة الثورة الإسلامية أثره في الارتفاع بصورة العلماء في العالم الإسلامي كطبقة لها إمكانيات ثورية هائلة.

٤ ـ إفشال نظريات المستشرقين: ـ

لقد أعلن المستشرقون الغربيون أن الإسلام قد انتهى والمستشرقون جزء من التقاليد المدرسية الغربية في دراسة مختلف جوانب الإسلام وقد وصلوا إلى تحقيق نفوذهم وتكوين معداتهم العلمية خلال الفترة الاستعمارية وعبروا عن المصالح الغربية في الحاجة إلى فهم الإسلام للتعامل معه، وكان العالم الغربي قد عرف قوة الإسلام خلال الحرب الصليبية. وكان لدى المستشرقين استنتاج وصلوا إليه بأهوائهم الخاصة يقول إن الإسلام رجعي وإن التحديث سيحتل مكانه بسهولة. وكان من صالح الاستعمار أن يسود المنظور الاستشراقي المشوه الذي يقول بالفصل بين الإسلام والسياسة. ولكن أعظم هزة أحدثتها الثورة الإسلامية كانت في المحيط الغربي حيث أثبتت أن جميع نظريات المستشرقين حول الإسلام كانت مشوهة.

وجعل صعود الإسلام كقوة عالمية ثالثة الاستعمار والمستشرقين الغربيين يعودون إلى التفكير بالأسباب التي جعلتهم يقعون في الخطأ. ويشهد على ذلك أن أكبر كمية من الكتابات عن الإسلام والثورة الإسلامية قد نشرت في الأوساط الإعلامية الغربية وبأعداد تفوق إلى حد كبير ما نشر في دول العالم الثالث.

٥ ـ تأسيس الدولة الإسلامية:

ليس من السهل أن نطلق تعبير "الدولة الإسلامية" على حكومة من حكومات القرن العشرين، وربما أيضاً الحكومات السابقة عليها. والحكومات والدول القائمة في العالم الإسلامي هي حكومات خاضعة للاستعمار وتابعة له بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وإن بعضها قد أخذت بنظام غربي للحكم في دستورها وأحزابها ونظامها السياسي، والبعض الآخر قد تبع أفكار علمانية اشتراكية وديمقراطية وشيوعية وماركسية. وبكلمة أخرى، إن الدولة ـ النموذج في العالم الإسلامي في القرن العشرين ـ تحاول أن تعطي لنفسها صبغة وبنية غربية.

وكان للإمام الخميني تصور آخر، "فقد وضع نصب عينيه نموذج دولة الرسول صلى الله عليه وآله وهناك فارق بين أن يكون لديك تصور وبين أن تكون لديك القدرة على تحقيقه. ولكن جهد الإمام كان موفقاً في الجانبين. لقد نجح في تشييد الجمهورية، وبقيامها ظهرت للعالمين مساوئ الأنظمة الأخرى، إذ ان الجمهورية الإسلامية كانت بمثابة المرآة وهي أن لم تك كاملة النقاء فقد كانت أقرب إلى التصور الإسلامي الأصيل منها إلى أي نظام في العالم الغربي"(٨). ولو لم تكن كذلك لما سعى الغرب إلى تحطيمها.

والمهم أن الإمام قد طرح نموذجاً

جديداً يقتدى به ؛ فهو لم يسعى إلى سلطة كما فعل الآخرون الذي يجعلونها في أعقابهم وإنما ترك لغيره أن يحتل منصب رئاسة الدولة ومنع أفراد عائلته من احتلال أي موقع سياسي. ثم ان الثروة لم تكن موضع اهتمامه على الإطلاق وكان يرى فيها سبيلاً إلى الخير ومرضاة الله سبحانه وتعالى.

٦ ـ توحيد الفكر الإسلامي:

لقد نخرت الطائفية جسم العالم الإسلامي. واستمرت تفعل ذلك لقرون والانقسام الكبير كان بين السنة والشيعة وتولد عن هذا الانقسام ضعف العالم الإسلامي بينما استفاد منه أعداؤهم. وكان من السهل على الإمام الخميني أن يستغل الانقسامات الموجود ولكنه بروحه العالية وشخصيته الإسلامية بقي فوق الانقسامات وبذلك أصبح اسمه محبوباً في جميع أرجاء العالم الإسلامي، وأما الذي عادوه فقد كانوا شلة من رجال السلطة المتسلطة على أنظمة الحكم في الدول الإسلامية ممن أحسوا بالخطر على مصالحهم.

قام الإمام الخميني بدور توحيدي في صفوف جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم ولم يكن تأثيره ذا طابع سني أو شيعي بل كان إسلامياً وقد قرأ ملايين الشباب المسلم في العالم كتب وخطب الإمام الخميني ووجدوا أنها تدور حول قضايا تهم جميع المسلمين، كما أن الإمام بسلوكه مضى شوطاً بعيداً في التقريب بين الشيعة والسنة.

٧ ـ الوعي السياسي في المجتمعات الإسلامية:

إن الثورات لا تغير المجتمعات بشكل جزئي وإنما يجري التغيير بصورة كلية ولكن أغلبت المجتمعات الإسلامية، بسبب عدم حدوث ثورات جذرية فيها،

فإنها لا تهتم بالسياسة مما يترك الفرصة أمام الهيئات الحاكمة للتصرف بما تشاء، في الوقت الذي تكون فيه غاية مسعى الجماهير هي طلب الرزق ولم تك إيران استثناء لهذه القاعدة خلال العهد الملكي، ولكن ثورة الإمام الخميني خلقت وعياً سياسياً جديداً في قطاعات عريضة من المجتمع الإسلامي، ودفع ذلك قطاعات كالجيش والسياسيين والطلبة والمثقفين والجماهير بشكل عام إلى اليقظة السياسة. وكان العهد السابق قد خلق لديهم الإحساس بأن النظام سيبقى إلى الأبد، ومنعهم الوعي المهزوم الذي خلقه نظام الشاه من التفكير بالخروج على الحكم، ولكن الثورة أحدثت التغيير وخلقت الوعي بإمكانية امتلاك الإنسان لمصيره.

وكان التأثير على أوجه لدى المثقفين والجماهير لأنهم كانوا القاعدة التي ساندت الثورة الإسلامية وإن تأثر الوعي السياسي الذي استحدثته الثورة لم يعد محصوراً بإيران وحدها فسرعان ما انتقل إلى الأقطار الإسلامية الأخرى، وتسبب ذلك في إثارة المخاوف لدى حكام هذه البلدان إذ تكونت في دولهم جماعات إسلامية تستمد إلهامها من نموذج إيران ويعود فضل الوعي الجديد إلى الإمام الخميني، لأنه، ومن خلال رفع مستوى الوعي السياسي، وضع الأسس التي تتطلبها كل الثورات الإسلامية.

٨ ـ الروح الإسلامية:

واحد من تأثيرات نهضة الإمام الخميني انها أعادت إلى الجو الروح الإسلامية بعد أن انطفأت شمعتها تحت الحكومات الجاهلة وتأثيرات المستشرقين لقد حصر الإسلام في معاني عبادية ضيقة وحول إلى طقوس محددة ولكن الإمام الخميني أعاد للروح الإسلامية

حيويتها بإظهار المعاني الإسلامية كالجهاد، الشهادة، الظلم، المستضعفين والمستكبرين وغيرها.

وإن إحياء مفهوم الحج على الوجه الذي عناه الإسلام قد أقلق الجهات التي تريد حصره بحدود ضيقة.

ونختم البحث الحالي ببعض الأقوال التي قالها مفجر الثورة الإسلامية الإمام الخميني ﷺ[٩]:

١. قال مخاطباً مندوبي السودان والأردن بعد عام من نجاح الثورة:

"إنّ على المسلمين أن يوجدوا التحوّل المطلوب ؛ التحوّل من الخوف إلى الشجاعة، التحوّل من التوجُّه للدنيا إلى الإيمان وإلى الله، فإنّ منشأ كلّ الانتصارات أن نتحوّل إلى موجودات إسلامية إنسانية إيمانية كما أراد الله لنا".

ومن الملاحظ هنا أنّ القائد الحكيم هو الذي يراقب مسيرة الثورة بكل دقة، فإذا ما حدثت حالة (الإقبال الثوري) لدى الأمة عمل على استثمارها على أفضل وجه، في سبيل تحقيق مصالح الشعب، وتصعيد الوعي لتحقيق الصحوة المطلوبة. ولنا من القرآن الكريم وعمل الرسول الأكرم والقادة خير الأدلة والتطبيقات لهذه القاعدة الأساس.

٢. قوله في اشتداد ظلم الطغاة وتصاعد الهجوم الاستعماري:

"عندما يتصاعد هذا العامل، وبالخصوص عندما يتصاعد الإحساس الشعبي بهذا الظلم، يترك أثره في تحريك الجماهير نحو بذل الغالي والرخيص للخلاص منه، وتحقيق التغيير الاجتماعي المطلوب".

٣. قوله في الوحدة الإسلامية:

ويضيف الإمام الخميني الراحل في معرض تحليله ورؤيته لموضوعه الوحدة

الإسلامية « إننا لا نملك الوسيلة إلى توحيد الأمة الإسلامية وتحرير أراضيها من يد المستعمرين، وإسقاط الحكومات العميلة لهم إلا أن نسعى إلى إقامة حكومتنا الإسلامية، وهذه بدورها سوف تكلل أعمالها بالنجاح يوم تتمكن من تحطيم رؤوس الخيانة وتدمر الأوثان والأصنام البشرية والطواغيت التي تنشر الظلم والفساد في الأرض... ».

٤. قوله في الفقيه المتصدي:

وبهذا الشأن يؤكد الإمام الخميني (رض) في كتاب « الحكومة الإسلامية » « إنّ حكومة الإسلام هي حكومة القانون، فالفقيه هو المتصدي لأمر الحكومة لا غير، فهو ينهض بكل ما نهض به الرسول ﷺ لا يزيد ولا ينقص شيئا، فيقيم الحدود كما أقامها الرسول ﷺ ويحكم بما انزل الله ».

٥. كتب هو في وصيته: « بقلب تجلّله السكينة، وفؤاد مطمئن، وروح مبتهجة، وضمير متفائل بفضل الله، أستأذِن الأخوات والإخوة وأرحل إلى موطني الأبدي وأنا بأمس الحاجة إلى أدعيتكم لي بالخير، وأطلب من الله الرحمن الرحيم أن يتقبّل عذري لقصوري وتقصيري وقلّة خدمتي، وأرجو من الشعب أيضاً تقبل عذري في قصوري وتقصيري، وأن يواصلوا مسيرتهم إلى الأمام بكل قوة وعزم وإرادة ».

إن التاريخ سيستمر في تقييم الثورة الإسلامية، ولكن تأثير الثورة الإسلامية سيغيّر اتجاه ومصير المسلمين في القرن الحادي والعشرين وكلما نجحت عملية إعادة الحيوية إلى الإسلام في داخل الأمة فإنها ستصبح أكثر قوة وصلابة في مواجهة المخاطر المحيطة بها.

المراجع والمصادر

١. القرآن الكريم.

٢. الإمام الخميني والصحوة الإسلامية، محمد علي تسخيري، إيران.

٣. الإمام الخميني في مواجهة الشيطنة الأمريكية، د. فتحي يكن، لبنان.

٤. حول فكرة الإمام الخميني"خطوط وملاحظات"د. عبد الكريم الاشتر، سوريا.

٥. دور الإمام الخميني في بعث الحركة الإسلامية. د. بهجت داكير، المغرب.

٦. دور المرجعية الدينية في المجال السياسي، صاحب هذه السطور، العراق.

٧. آثر الإمام الخميني في تغيير موازين القوى العالمية والمحلية، مجموعة من الباحثين، إيران

٨. الاستقلال الثقافي: طريق الثورة نحو الأصالة الإسلامية، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إعداد محمد على حسين، ١٤٠٢ هـ

٩. الحكومة الإسلامية: منشورات المكتبة الإسلامية الكبرى، دروس فقهية ألقاها الإمام الخميني على طلبة العلوم الدينية في النجف الأشرف في عام ١٣٨٩ هـ

الهوامش

(١) الإمام الخميني في مواجهة الشيطنة الأمريكية، د. فتحي يكن، لبنان ص١٧

(٢) آثر الإمام الخميني في تغيير موازين القوى العالمية والمحلية، مجموعة من الباحثين، إيران، ص٧٩.

(٣) دور المرجعية الدينية في المجال السياسي، صاحب هذه السطور، العراق، ص٢١٩.

(٤) الإمام الخميني والصحوة الإسلامية، محمد علي تسخيري، إيران، ص٢٣.

(٥) دور الإمام الخميني في بعث الحركة الإسلامية. د. بهجت داكير، المغرب ص٢٢

(٦) حول فكرة الإمام الخميني"خطوط وملاحظات"د. عبد الكريم الاشتر، سوريا، ص١٥.

(٧) الاستقلال الثقافي: طريق الثورة نحو الأصالة الإسلامية، إعداد محمد على حسين، ص٩.

(٨) الحكومة الإسلامية: منشورات المكتبة الإسلامية الكبرى، دروس فقهية ألقاها الإمام الخميني على طلبة العلوم الدينية في النجف الأشرف في عام ١٣٨٩ هـ

أ.كاظم عبد علي

باحث وأكاديمي/ من العراق

قيام الثورة الإسلامية وتجاوز التحديات

المقدمة

الإنتصار الحاسمُ والمصيري الذي أحرزتهُ الثورةُ الإسلاميةُ في إيران ـ في الثالث عشر من ربيع الأول عام ١٣٩٨ هـ ق ـ (١١/ شباط/ ١٩٧٩) ـ كان البداية ونقطة الإنطلاق، نحو حدوث تفاعلات وتحولات متصاعدة ومستمرة وعلى كل الأصعدة، حتى يومنا هذا، دَوّت اَصداؤها في ربوع العالم. ودَغدغت اَفكار الفلاسفة والكتاب والمثقفين في كل مكان. واَثات لكثير من البحوث والنقاش والحوار في اَوساط السياسيين والمراقبين. وذلك لطبيعتها المتمايزة عن كل التفاعلات الثورية الأُخرى.

و بالمقابل أحيت الآمال في نفوس المستضعفين والمحرومين في

العالم، بما حملت لهم من نهج التوحيد والعزّة والحرية والمثل والقيم الإنسانية. ولما اَفرزته من تغييرات وتطورات موسعة في المجالات الثقافية والفكرية والتربوية والإجتماعية والإقتصادية والسياسية.

و لمعرفة ملامح هذه الثورة وعنصر النجاح فيها، وكذا الحوافز اتي اِستنهضت جماهير الأُمة الإسلامية في إيران ودفعتها بقوة الى الإنضواء تحت رايتها الخفاقة، والتمسك بأهدافها، والمحافظة على مكاسبها ومنجزاتها، والحرص على ديمومتها واستمراريتها، لابُدّ من استعراض سريع لطبيعة الحكم الذي كان قائماً في ايران، قبل انتصار الثورة الإسلامية، التي جاءت كردٍّ طبيعي على ممارساته وتصرفاته وتوجهاته واسلوب تعامله مع طموحات وتطلعات الشعب الحقيقية.

لقد عاشت ايران تحت ظل حكم (عائلة بهلوي) أكثر من نصف قرن، واجه الشعب الايراني المسلم خلالَهُ واحداً من أبشع أنواع الدكتاتورية والتسلط الفردي والغطرسة، وبالتالي التبعية والانقياد التام للقوى الأجنبية الطامعة والناهبة لثروات البلاد، خاصة في تلك الفترة التي تولى فيها الشاه المقبور (محمد رضا) مقاليدَ الحكم في البلاد خلفاً لوالده رضاخان.

اِذ حاولَ هذا الطاغية المتجبّر وعبر انقياده للمستعمرين الطامعين، واستسلامه لإرادة الأمريكان، أن ينتزع من الشعب الإيراني المسلم، هويته وخصوصيّته الذاتية، ومن ثم يَسلبَهُ طابعَهُ الإسلامي الأصيل، ليمنحهُ خصوصيةً جديدةً وغريبةً عنه، تُبعده كل البُعد عن اصالته التاريخية التي وجدت وترعرعت في ظل تعاليم الاسلام وقيمه ومثله السامية.

و قد حاول الشاه بتكريس هذه

الخصوصية الغريبة عن طبيعة الشعب الإيراني، أن يرمي بالبلاد في اَحضان الغرب والإمبريالية الأمريكية، ويسعى بكل ما أُوتي من قوة وامكانيات مادية الى غرس بذور القيم الغربية، ودفع المجتمع المسلم الى اَتون الانحلال الخلقي والسفالة والتفاهة، والتفاخر بكل ما هو رخيص ورذيل، من العادات والتقاليد والتقليعات المستوردة والغريبة عن طبيعة الشعب المسلم في ايران.

و لكن لم يَمرّ كل هذا بسلام، حيث لقي الشاه في محاولاته هذه مقاومة شديدة، أبدتها الجماهير المسلمة لنظام حُكمِه في فترات مختلفة، تمثلت في انتفاضات ووثبات شعبية اَخمدتها النظام المتجبّر بقوة الحديد والنار والقمع الدموي العنيف.

و الجدير بالذكر أنّ اهم وأخطر تلك الانتفاضات، هي انتفاضة الامام آية الله السيد روح الله الخميني، قائد الثورة الاسلامية في ايران.. تلك الانتفاضة التي انطلقت جبارة، يوم الثاني عشر من شهر محرم الحرام عام ١٣٨٣ هجري (١٩٦٣/٥/٥). والتي كادت ان تفضي الى الابد على النظام الحاكم في ايران. لولا مبادرة طاغية السريعة الى اخمادها بعنف وشراسة، من خلال مجزرةٍ بشريةٍ رهيبةٍ، اسفرت عن سقوط خمسة عشر الف شهيد، واصابة الآلاف من ابناء الشعب بالجراح البليغة، ومن ثم اعتقال المزيد من المعارضين الاحرار.

و لكن على الرغم من كل هذه الوحشية، كانت انتفاضة الثاني عشر من محرم، نقطة بداية للثورة الإسلامية المنتصرة والتي بقيت وضاءةً متألقةً عبر مشوارها الطويل حتى وصولها الى النصر المؤزر في الثالث عشر من ربيع الأول عام ١٣٩٨ هجري.

و لكبح جُماح المعارضة الإسلامية

المتنامية في وجه نظامه، سعى الشاه المقبور الى تعزيز جهازه البوليسي القمعي، وتدعيم قواته المسلحة، وتجهيزها بأحدث السلاح والعتاد الغربي، والأمريكي بالذات، حفاظاً على شخصه وزمرته، من غضبه الشعب ووثبة الجماهير.

كما زاد من تبعيته واستسلامه لارادة اسياده الامريكان، على امل انهم سوف يدافعون عنه ويحافظون على نظامه.

و من هنا تبارى في خدمة المصالح الأمريكية بالمنطقة، الى الحد الذي اصبحت فيه ايران، قاعدةً امريكية، وموقعاً هاماً في الاستراتيجية الامريكية. وبالتالي نقطة الانطلاق لتنفيذ المؤامرات والمخططات الامبريالية والصهيونية، التي استهدفت منطقة الشرق الاوسط، وحركات شعوبها المطالبة بالحرية والاستقلال.

و هكذا اصبح الشاه المقبور دَركياً اميناً على المصالح الامريكية بالمنطقة. واصبحت سياسة ايران الخارجية امتداداً للسياسة الشرق اوسطية لأمريكا.

و في اطار هذه السياسة، أقام الشاه المقبور علاقات وطيدة جداً مع الكيان الصهيوني الغاصب، تجسدت في صفقات تجارية ضخمة، اضافة الى تزويده بالبترول الايراني وبأسعار مخفضة.

كما أقام علاقات وطيدة مع النظام العنصري للأقلية البيضاء في جنوب أفريقيا، وامر بتزويده بالبترول، مخالفا بذلك احكام المقاطعة الاقتصادية التي فرضتها منظمة الأمم المتحدة على هذا النظام المقيت، بسبب تجاهله لحقوق الأغلبية السوداء في هذا البلد الافريقي.

كذلك تحالف مع الانظمة الرجعية والعملية على نطاق موسع، في الوقت

الذي أظهر فيه عداءاً وكرهاً شَديدين لحركات التحرر الوطنية في العالم.

أمّا على الصعيد الداخلي، فكما اشرنا آنفا، حاول النظام البائد دفع أبناء الشعب، الى حضيض الانحلال الخلقي، واغرقهم بالقيم والظواهر الزائفة، مكرسا النزعة الاستهلاكية الشرهة في نفوسهم، وشغل أفكارهم بهموم الثراء، والبحث عن مباهج الحياة، وصولاً الى ما كان يتوخاهُ من تحطيم قدراتهم الكفاحية، واستلابهم من حوافز النضال، وتطويعهم على الخضوع والخنوع، ليبقى نظام حكمه سليماً ومعافى، أمام تحدّياتهم وانتفاضاتهم.

كذلك تعمل مع القاعدة الشعبية العريضة، كقطاع متخلف يقوم نظامه بوضع برامج له، لتسييره حسب المفاهيم الغربية، وحسب الأولويات التي تروق للخبراء الاجانب.

و على ضوء ذلك ضاعف النظام من كميات البترول المصدرة، وهي الثروة الطبيعية التي يمتلكها الشعب، والتي من الواجب ان يبدي رأيه في كيفية التصرف بها، وقام بصرف عائداتها وبشكل هستيري، على قطاعات ومجالات لا تحقق متطلبات واحتياجات جماهير الشعب الحقيقية. فمثلاً، الزراعة أُهملت، وصار قُوت الشعب الضروري معتمداً على الاستيراد بعد ما كانت ايران مصدرة له.

كما تم تسيير خطة إنتاج وتسويق الثروات الطبيعية، بشكل أوجد صناعات هي في الحقيقة صناعة تابعة بكل جزئياتها للغرب، أي أنها في غالبيتها صناعات تجميعية، وبذلك تحول المجتمع الإيراني المنتج سابقاً، الى مجتمع استهلاكي غير منتج.

و من جهة أخرى، أفرط نظام الشاه المقبور بعائدات البلاد، من البترول

وأموال الشعب الإيراني المسلم، وصرفها في مجالات لا تؤمّن حاجات ومتطلبات الطبقات المحرومة، خاصة سكان القرى والارياف، بينما صرف من مال الشعب على المهرجانات والاحتفالات التي أقامها بمناسبة أعياد ميلاده وميلاد أفراد أُسرته، ومن أجل إقامة إحتفالات كبيرة وضخمة، إحياء لذكرى ملوك إيران في العهد الغابر، في الوقت الذي كانت في الطبقات المحرومة من أبناء الشعب، تفتقد الى أهم المرافق والخدمات العامة، وحتى للُقمة العيش.

و لقد كان الإمام الخميني، الذي قاد نضالات الشعب المسلم في إيران، حتى النصر المؤزر ضد نظام حكم الشاه المقبور، يُوجه التحذير تلو التحذير، من تلاعب هذا النظام بأموال الشعب، ويبادر الى فضح وتعرية الممارسات المالية اللاشرعية، لافراد عائلة بهلوي. ففي البيان الذي وَجههُ سماحتهُ الى حجاج بيت الله الحرام، في شهر ذي الحجة الحرام من عام ١٣٩٠ هجري، والذي شرح فيه هموم ومصائب الشعب الإيراني المسلم، أوضح هذا الجانب من ممارسات النظام الملكي، والمأساة التي يعيشها الشعب الإيراني المسلم يومئذ.

و مما قاله الإمام الخميني في بيانه هذا:

((إن أكثر المدن والقُرى في إيران، هي في عوزٍ تام للخدمات الطبية والتعليمية، والمرافق والحمامات الصحية ومياه الشرب، وقد أفادت بعض الصحف، أن الأطفال الأبرياء في القُرى يتغذّون على العلف من فرط الجوع والفقر، في الوقت الذي يقوم فيه نظام الحكم (حكم الشاه) بصرف عشرات الملايين من الدولارات، من مال هذا الشعب، على الاحتفالات المشينة. فتارة يقيم الاحتفال بعيد ميلاد فلان، وتارة

أُخرى بعيد ميلاد شخص آخر، الى جانب الإحتفال بمرور خمسة وعشرين عاماً على إعتلاء الشاه للعرش، والإحتفال بمراسيم التتويج والأسوأ والأشنع من كل ذلك، الإحتفال المشؤوم بمرور ألفين وخمسمائة عام على قيام النظام الشاهنشاهي في إيران. ذلك الاحتفال الذي لا يَعلم إلّا الله، كم من المصائب التي خلقها للشعب، وكم من الفرص التي أوجدها لعملاء الإستعمار في البلاد، لكي يَنهبوا ويَسرقوا ثروات هذا الشعب، في حين لو صرفت هذه المبالغ الضخمة، التي خصصت لهذه المناسبة الرخيصة التافهة، على إشباع بطون الجياع من أبناء هذا الشعب، وتوفير لقمة العيش للتعساء، لكان بالإمكان التخفيف من المتاعب المالية التي يواجهها هؤلاء، لكن نزوة التلاعب بأموال الشعب، والغطرسة لا تدعان النظام الحاكم كي يفكر بأحوال الشعب، الذي تُستنزف أمواله وعائداته، في الصرف على إحياء ذكرى ملوك قاموا في أزمنتهم، بسحق أبناء الشعب تحت أقدامهم، وكانوا يعادون الأديان السماوية الحقة، ويظهرون العداء الشديد للإسلام، حتى أن واحداً منهم (كسرى انوشيروان) قام بتمزيق رسالة موجهة له من سيدنا محمد ﷺ.

و ها نحن نرى اليوم نموذجاً لواحدٍ منهم أمام أعيننا (الشاه المقبور). ولتعرف الدُّنيا، أن هذه الاحتفالات والليالي الملاح، لا علاقة إطلاقاً للشعب الإيراني المسلم النبيل بها. وأن القائمين عليها والحاضرين فيها، هم خائنون للإسلام وللشعب الإيراني))

و بعذا الكلام الرصين، نرى بأن قائد مسيرة الأُمة في إيران، الإمام الخميني، كان يُشكك في شرعية نظام الشاه المقبور، ويرى فيه ما يعارض دستور البلاد، والمنطلقات الإسلامية

للشعب. ولقد أكّد سماحته في العديد من خطبه، على أن نظام عائلة بهلوي المالكة، يعارض صراحةً دستور البلاد، وأنه نظام رجعي متخلف، وليست له ركائز عقلية، بل يتعارض مع المبادئ العقلية، وحقوق الإنسان ؛ لأن ما يحكم به العقل والمنطق هو أن يكون مصير كل شخص بيده.

هكذا كان سماحته يشكك دوماً في شرعية النظام الشاهنشاهي المتهرِّ، ويؤكد على أنه نظام باطل عقلياً ومنطقياً.

و من جهة أخرى، وبما أن الشاه كان قد تطوع للمحافظة على المصالح الإمبريالية في المنطقة، بوصفه دَركياً أميناً لها، فقد خصص نظام حكمه، نسبة كبيرة من عائدات البلاد للميزانية العسكرية الضخمة. حيث إشترى كميات هائلة من أحدث وأقوى السلاح الأمريكي والغربي، وأوجد جيشاً كبيراً موسعاً، يُديره المستشارون العسكريون الأمريكان، وترسانة ضخمة من السلاح، ولم يكن صرف مثل هذه المبالغ الطائلة الخَيالية من مال الشعب المحروم، موجها للمحافظة على أمن وسيادة الشعب، والذوذ عن حياض وطنه الإسلامي، بقدر ما كان معبّأ من أجل الحفاظ على أمن المصالح الإمبريالية في المنطقة. حسبما كان يراه المستشارون العسكريون الأمريكان، من متطلبات الاستراتيجية الأمريكية الموجهة ضد شعوب المنطقة وحركات التحرير فيها.

و لقد اندفع النظام البائد في تقديم خدماته للامبرياليين. الى الحد الذي كانوا يعتبرون نظام حكم الشاه عاملاً للإستقرار في المنطقة. أي إستقرار مصالحهم.

و حتى أن بريطانيا من منطلق الثقة المتناهية بمقدرة هذا النظام، في

الحفاظ على أمن المنطقة، قامت بسحب قواتها المرابطة في مناطق شرقي السويس، بسبب التكاليف الباهضة لهذه القوات والتي كانت قد أثقلت كاهلها.

كل هذه الممارسات والتوجهات، على الصعيدين الداخلي والخارجي، كانت ثقيلة بأن تجعل هذا النظام معزولاً تماماً عن الشعب.

فقد كان الشاه المقبور في واد والشعب المسلم في واد آخر... وبينما كان هو ضالعاً في ركاب الإمبريالية، تشغله همومها بعيداً عن مصالح الشعب والوطن، كان الشعب يسعى جاهداً لنفض عار التبعيةِ والإنقياد العشوائي للأجانب، ولتطهير نفسه من أدران الإنحلال والفسادِ والتفاهةِ والسطحيةِ، ليعود إلى أصالته الإسلامية الناصعةِ الشفافةِ، متحرراً، ومستقلاً كريماً، عزيزَ الجانب قوى العزيمة.

و ظلت الفوارقُ والتناقضاتُ بين الشاه وأعوانه، والأجانب الذين كانوا يدعمونه من جانب – وهم الذين تُطلق عليهم الثورة الإسلامية اللفظة القرآنية ((الطاغوت)) ـ وبين القاعدة الشعبية العريضة والمليونية من جانب آخر، وهي التي يَنطبق عليها المصطلح القرآني ((المستضعفون)) في تزايد وتصاعد مستمرين، الى أن وصلت الى مرحلة لم تستطع وقفها كل محاولات النظام لتدارك الحالة المتفاقمة في البلاد. وذلك بسعيها المستميت لاتخاذ الخطوات والاجراءات المهدئة لآلام مرضٍ عضال. حيث لم يَعد ينفع معه تغيير الوجوه في المناصب الرسمية العليا، والتشكيلات الوزارية المتعاقبة، ومنح بعض الحريات السياسية واتخاذ الخطوات الإقتصادية والمعيشية المغرية، إذ كل هذه التنازلات التي أظهرها نظام الشاه من نفسه لم تؤثر إطلاقاً

في إبطاء أو الحد من الزحف الشعبي الكاسح.

فوقع الإنفجار العظيم، وسقط النظام الشاهنشاهي المتجبّر.

و بدأ عصر جديد أطلَّ بنورهِ على ربوع إيران، منذ تلك الأُمسية التاريخية المصيرية التي دا همت فيها الجماهير الثائرة، مبنى مؤسسة الإذاعة والتفزيون، وبدأ الثوار باذاعة بلاغات قادتهم، معلنين أن يوم الثالث عشر من ربيع الأول عام ١٣٩٨ هجري (١١/٢/ ١٩٧٨)، هو نقطة النهاية الحتمية لنظام الشاه المقبور، ونقطة البداية لنظام إسلامي مبارك في بلادِ ايران الثورة. ومنذ هذا اليوم الأغر، شرعت حقبة سياسية مصيرية حاسمة ليس في تاريخ الشعب الإيراني المسلم فحسب، بل وفي تاريخ العالم الإسلامي كله ايضاً، حيث إنعكست على أرجائه المختلفة، إشعاعات الثورة الإسلامية، فكانت المنطلق لبعث إسلامي هادر لم يشهد تاريخ الإسلام مثيلا له منذ ظهوره إبّان العهد الجاهلي، حيث أحيت في نفوس الجماهير المسلمة والمستضعفة أينما وجدت، الآمال العريضة بنشر دينهم الحنيف، وقوّت في نفوسهم الشوق والحنين لإنتماءاتهم الإسلامية، والعودة المحمودة الى أصالتها، والتمسك من جديد بثقافة الإسلام، وقيمه، ومثله، ومعانيه الإنسانية الكريمة، التي تخلق في نفس كل مسلم، صفاءً وراحةً نفسية، في الوقت الذي تُثير فيه عزيمة البناء والجهاد، وتدفعه الى مؤازرة أخيه، وبذل الجهد من أجل خلاصهِ وتحريرية.

رسالة الإسلام

هي الفلسفةُ العقائديةُ للثورة الإسلامية في ايران

لقد جاء الدين الإسلامي الحنيف، برسالة إنسانية تقدمية متسامية، تزخر

بكل ما فيها من عوامل وأسباب السعادة للإنسان، والفلاح والنجاح للمجتمع الإنساني، كما فيه من عناصر رُقي البشرية في متاهات العلم والخلق والإبداع والإنتاج الى جانب تطبيع الإنسان بفضائل الأخلاق والصفات الحميدة والسجايا الكريمة... رسالة متمايزة تماماً عن كل الرسالات والنظم السياسية والإجتماعية والإقتصادية، هدفها بلوغ الكمال وغايتها تحقيق عيشة إنسانية يشعر كل فرد في ظلمها بكرامته وعزته... عيشة تخلو من كل أنواع الإستغلال والظلم والتعسف والإستكبار أو الإستضعاف.

لكن المسلمين مع الأسف لم يتمسكوا بأهداف دينهم السامي، ولم يحققوا غاياته، ولم ينشروا ثقافته وقيمة التربوية، حتى جاء المستعمرون ومصاصو ثروات الشعوب، ليزيدوا من جفاء المسلمين لدينهم ورسالتهم السماوية، فانجرفوا الى التقليد الأعمى للانظمة الرأسمالية والإشتراكية، وسائر المدارس الفكرية الغريبة عن تقاليدهم وخصوصياتهم الإنسانية.

و لقد حاول أعداء الإسلام تحجيم هذا الدين العبادي والسياسي، في بعده العبادي فقط، ليصبح بالتالي مجموعة من الفرائض والطقوس الدينية، ليس بينه وبين قضايا وشؤون المسلمين المعاشية والسياسية والتنظيمية والقضائية أية صلة تذكر.

فالنظم العلمانية التي سعى المستعمرون والمتسلطون الأجانب الى تكريسها في دول العالم الإسلامي ودول الشرق، حاولت خلال القرن الأخير فصل الدين عن السياسة، ليتمكن الطغاة المتحكمون برقاب الشعوب، من تخطى أحكام الله، وتجاوز شريعته الإسلام، وبذلك ينطلق القائمون على مثل هذه الأنظمة ـ باسم الدين ـ راكبين

مركب الشهوات والنزولات، ومن ثم ليتلاعبوا بمقدرات شعوبهم دون وازع من ضمير، ودون رقابة من المؤسسات الدينية المعنية.

و لقد استحدث في عصرنا الراهن، مفهومٌ جديدٌ للدين، يتحدد بموجبه الدين بسلسلة من المبادئ الخُلقية، بالاضافة الى مجموعة من التقاليد والطقوس الدينية، وبناءاً على ذلك لا تخرج علاقة الفرد بالفرد الآخر، أو علاقة الفرد بالمجتمع، عن إطار عدد من المبادئ الخُلقية والأدبية.

لكن نظرة الإسلام تجاه سعادة الإنسان وصلته بالله الخالق من جهة، وصلته بالمجتمع من جهة أُخرى، لا تخالف مثل تلك النظرة المحدودة الضيقة، بل وتناقضها تماماً، إذ أن هذا الدين يرى سعادة الفرد وفلاحه، في التقرب الى البارئ العلي القدير، لكن الطريق الموصل الى هذه السعادة، أي التقرب الى الله، يمرّ من وسط المجتمع.

و في حين ترى غالبية الأديان، في الرهبانية، الوسيلة المؤدية الى السعادة والفلاح والصلاح، يرفض الإسلام هذا القول مؤكداً على الجهاد، باعتباره الوسيلة المفضية الى سعادة الفرد وهناءه، أي أن العزلة والإنغلاق على المجتمع ليستا بمجديين إطلاقاً. بل الإنغماس في هموم المجتمع والجهاد من أجل خلاصه وتحرره من إنحلال العبودية والظلم حتى مرحلة التضحية بالنفس، هما المبتغى إسلامياً وإنسانياً.

و عندما يتحدد شرطُ سعادة الإنسان، بالعبور من وسط المجتمع من وجهة نظر الإسلام، فإنه من الطبيعي أن لا يقتصر هذا الدين على تنظيم علاقة الإنسان بربه فقط، بل أن يُكرّس إهتمامه أيضاً، نحو تأطير صلة الفرد بالمجتمع، وتحديد طبيعة إنتماءاته الإجتماعية.

و انطلاقاً من هذه النظرة الشمولية، تتوضح ميزة الإسلام على سائر الأديان، بالاساليب العلمية والعملية التي يتبناها لتنظيم شؤون المجتمع، سياسياً وإجتماعياً وإقتصادياً وثقافياً وتشريعياً...

فمثلاً إذا كانت العدالة الإجتماعية في نظر الأديان الأُخرى، مبدأ خُلقياً وأدبياً أكثر من أي شئ آخر، فإنها في نظر الإسلام، عبارة عن فريضة ومسؤولية دينية.

و إذا قبلنا بالعدالة الإجتماعية كونها مبدأ خُلقياً، فإن النتيجة البديهية التي نحصل عليها من ذلك هي، أن لا يكون الفرد ظالماً وأن لا يعتدي على حقوق الآخرين.

لكن فكرة العدالة الإجتماعية لدى الإسلام، تتجاوز ذلك إلى أن لا يكون الفرد مظلوماً أيضاً، وأن لا يكون حريصاً ومهتماً بمصيره فحسب، بل بمصير المظلومين والمحرومين أيضاً، وهنا بيت القصيد....

ففي الحالة الأولى، يتحتم أن لا يكون الفرد سلطوياً ومستعمراً ومستغلاً على أكثر التقادير، أما في الحالة الثانية، فإضافة الى ذلك، يجب أن لا يكون الفرد خاضعاً للإستعمار، وحتى يجب عليه بذل قصارى جهده، من أجل تحرير أبناء دينه ووطنه. والإلتزام بهذا المبدأ بمفهومه الثاني واجبٌ ديني. وبعبارةٍ أخرى يتحتم على المسلم الملتزم أن يتبع مثل هذا السلوك، بوصفه واجباً دينياً، لا بوصفه عملاً أخلاقياً محموداً فحسب.

من هذا المنطلق، لو تمسك المسلمون أينما وجدوا بأهداب دينهم الحنيف، الذي يأبى لاتباعه الظلم، والخنوع والاستسلام للظالم والمستعمر، وبحثهم على الجهاد من أجل دفع الظلم والغبن عن إخوانهم المسلمين، لمّا فَرضت عليهم

قيمها وثقافتها، الأمر الذي أبعدتها عن أصالتها وخصوصياتها الإسلامية.

إذن، الإسلام دين ذو مفهوم شامل، وذو نظرة متعمقة بعيدة، تجاه الإنسان كفرد، والمجتمع كمجموعة أفراد، وهذا الدين عبارة عن فرائض عبادية ومبادئ خُلقية، تربط الإنسان بخالقِه، وتضفي على علاقاته وصلاته بأفراد مجتمعه، صبغة أخلاقية وروحية، وتأطرها بإطار سليم وبريء، كما أنه عبارة عن مجموعة من القوانين والدساتير الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، التي تشمل كل جوانب المجتمع، وكل صلات الأفراد بعضهم لبعض بلا إستثناء.

و الجدير بالذكر أن الإسلام في رؤيته الشمولية، ينظر الى العدل بوصفه القاعدة أو الركيزة الأساسية، التي تقوم عليها الرسالات السماوية، التي أتى بها أنبياء الله، في الوقت الذي يُشدد فيه أكثر من أي دين آخر، على الإهتمام بمبدأ الإستقلالية، وبعث روح العزّة والكرامة في نفوس أتباعه والسائرين على نهجه، ويدعو بكل تأكيد، الى مقاعة كل أشكال الظلم ومناهضة الظالمين، مطالباً بإقرار نظام يستند الى دعائم العدل والسواسية والإستقلال والحرية، وحتى أنه يوجب على أتباعه اللجوء الى إستخدام السلاح في سبيل تحقيق هذه المتطلبات....

فالجهاد لدى الإسلام هو من أكبر وأهم العبادات.

بعضُ ملامح الثورة الإسلامية في إيران

لا شك أن الثورة الإيرانية، هي ثورةٌ دينيةٌ، تقوم على المفهوم العميق والشامل للاسلام، بوجهيه العبادي والسياسي، وتستلهم في خططها مبادئ

الإسلام الأساسية، الداعية الى العدالة والإستقلال والحرية، والإنعتاق من أية تبعية، والنضال ضد أي شكل من أشكال الهيمنة الفردية والجماعية، والتجنب من أي نوع من أنواع الخشوع والخنوع والإستكانة والإستسلام، أمام الأجانب الطامعين والمستعمرين، وصولاً الى العزة والكرامة، اللتين يريد هما الإسلام لأتباعه والسالكين لنهجهِ.

لقد كان أبناءُ الشعب الإيراني المسلم، يَرون في الإسلام الصحيح، بما ينطوي عليه من المعاني والقيم المذكورة، تجسيداً حقيقياً لكل ما يتطلعون إليه، من إستقلال وحرية وسيادة وكرامة. ومن هنا فعند ما اِرتفعت الدعوات والنداءات المطالبة بالعودة الى الإسلام الصحيح، تجمعوا تحت رايته الخفاقة، وساروا في مظاهرات ومسيرات جماهيرية ومليونية، متّحدين بصورة يدٍ واحدة في مقارعة النظام الحاكم، وصولاً الى الإطاحة به.

و يمكن القول، بأن الإسلام لم يكن في نظر هذه الجماهير المؤمنة، نظاماً مثالياً يتطلعون الى إقامته فحسب، بل كان الحافز القوي النشط في تثوير أفراد الشعب. أو بعبارة أُخرى، كان الإسلام الماكنة التي دفعتهم بطاقات هائلة إلى الثورة والإنتفاضة والوثبة الجماهيرية الهادرة. لكنه يا تُرى كيف أُخترنت هذه الطاقات بالتدريج لتنفجر في ثورة عظيمة ؟

للرّد على هذا السؤال، فإنه من اللازم القول، بأن تطوراً عميقاً وموسعاً في أفكار المجتمع الإيراني، وخاصة في صفوف الشبان والنساء من أفرادهِ، أخذ ينمو ويتعاظم بالتدريج، منذ العقدين الماضيين تقريبا، وكان من نتيجة هذا التطور الفكري، أن تغيرت نظرة المجتمع إلى الإسلام، وبدأت جماهير واسعة من أفراد الشعب، كانت قد إستوعبت

المعاني والقيم الإسلامية الحقيقية، تشعر بتفاهة العيشة التي تعيشها. بالانزجار والملل من المظاهر المادية المنمقة والمزينة والمجملة ظاهرياً، لكنها خاوية وفارغة من أية قيمة روحية وثقافية. مثلما تحسست هذه الجماهير بأن النظم المستوردة، من الشرق أو الغرب، لن تجلب لها ما يُقنعها ويُقوى شخصيتها واستقلاليتها، ولكن تكون البديل للإسلام أبداً. فبدأت الدعوات تَرتفع طالبةً بالعودة إلى الذات، والتمسكِ بالجذور والأصالة والجَوهر.

و لقد ساعدَت مَجالسُ الوعظ التي كانت تُقام في الجوامع وأماكن العبادة والزوايا، على تَعميق الإنتماء الإسلامي، وتَوعية أبناء الشعب بحقائق الحياة البائسة التي يَحيونَها في ظل الدكتاتورية والتبعية. كما لَعَبَ الخُطباء والوُعاظ والمُفكرون الإسلاميون، دوراً رائداً في كشف جرائمَ وفسادَ النظام وتبيان مزايا التَحلي بالمعاني والقيم الكريمة. تارةً بالتلميح والإيماء، وتارة أُخرى بالتصريح والتوضيح العَلَني، حسب التشدّد أو المرونة التي كانت سُلطات النظام تُظهرها تِجاه جموع المسلمين والقيادات الدينية.

و على ضوء ذلك يتأكّد القول، بأن الثورة الإسلامية الإيرانية بدأت من الجوامع وإنطلقت بهدي وتَرشيد علماء الدين. فالتظاهرات المليونية، إنطلقت من الجوامع ضِدَ نظام الشاه المقبور لتجعل من أرضيات الشوارع، في المدن والقرى، أماكن لصلاة المتظاهرين في كتلةٍ متراصةٍ. كما أن الهتافَ بنداء الله أكبر، من أعلى أسطح المنازل والمباني وفي المسيرات والتظاهرات الضخمة، كان ولا يزال الشعار الأكبر للثورة الإيرانية، مما يُبرهن على النزعة الإسلامية المتأصلة في أعمق وجذور وأوصال هذه الثورة المجيدة. وعلاوة على ذلك فإن

المبادىء والأُسس الإسلامي هي التي تُحدّد إتجاهات الثورة الإيرانية، وتُعين أهدافها ومرتكزاتها السياسية والإقتصادية. وحتى علاقاتها مع الدول الأجنبية إنما تتأطرُ بإطار الإسلام. كما تَسعى لإيجاد حلول لكل مشاكل ومعضلات المجتمع بما يتلاءم مع أحكام الإسلام، وسُنّة رسول الله ﷺ والعترة الطاهرة من ذريته.

فهي الثورة الأُولى من نوعها منذ بزوغ فجر الإسلام وحتى يومنا هذا، التي تحاول برمَجةَ تعالم وأحكام الدين الحنيف وصياغتها وعَرضها على الساحة السياسية بشكل موضوعي وعملي مدروس...

إذن يمكن وَصف هذه الثورة بأنها الصحوة الجديدة للإسلام وللمسلمين، تلك الصحوة التي نأمل بأن تكون شاملة ومستمرة ومتصاعدة، بفضل جهود جميع المسلمين وتفانيهم في سبيل إعلاء كلمة دينهم وعقيدتهم السمحاء.

و ليعرف المسلمون من خلال التجربة التي مارستها الثورة الإيرانية، والتي أثبتت صحتها بشكل ميداني وعملي، أن الإسلام أكثر من أي نظام رأسمالي أو إشتراكي أو سوا هما من الأنظمة السائدة في العالَم، يمكن أن يُشكل عنصراً حاسماً في تحرير طاقات الجماهير المؤمنة به، وأثارة هِمَمهم، وتحفيز عزائمهم، وإرشادهم إلى العمل الخلاق، والبناء والإعمار، أو توجيههم لمقارعة الأعداء والطامعين ومصاص ثَروات الشعوب، وتدعيم روح الصمود والمقاومة في نُفوسهم لمواجهة المكايد والمؤامرات وصنوف المعاناة والمصائب والنكسات.

و هكذا تكون الثورة الإسلامية الإيرانية، قد برهَنَت على بُطلان النظرية الشيوعية القائلة بأن الدين: أفيون الشعوب. وحتى أنها أثبتت نظرية

معاكسة لهذه النظرية الشيوعية، وهي أن الدين يَمنحُ الجماهير المتمسكة به طاقة ديناميكية هائلة، من شأنها أن تجعل الجماهير المؤمنة به، تتحمل الصعاب والمُعضلات والإحباطات، دون أن تُنكس رؤوسهم أو أن تركع أمام الظالمين الطامعين.

فالصمود والمقاومةُ هما المبدان اللذان يَحث عليهما الإسلام، في الشدائد والأزمات وأنّ ما أظهرهُ الشعبُ الإيراني المسلم، من تجسيد حي وملموس، لمعاني الصمود والتّحدي، في مواجهة المؤامرات والمخططات الإستعمارية، ومحاولات الأعداء الثورة في الداخل والهادفة لتفشيل صمود الشعب، وكَسر مقاومته الشجاعة، وإدخال اليأس والقنوط في نفوس أبنائه، تجاه ثورتهم الإسلامية الظافرة، لخير دليل على الطاقات الهائلة التي تمنحها الديناميكية الدينية لجمهور المؤمنين والمتمسكين به والسائرين على صِراطه السّوي القويم.

و لقد رأينا كيف أن الشعب المسلم في إيران تَمكن بفضل تكريس معاني الفداء والتضحية، والإعتصام بحبل الله المتين، أن يصمد باباء وشموخ، أمام العديد من المؤامرات الأمريكية، ومخططات عملاء الإمبريالية في المنطقة، والحصار الإقتصادي الذي فَرضته الدولُ الغربيةُ، الدائرة في فلك الإمبريالية الأمريكية، حول إيران في حين أنه لا يزال صامداً وصلداً أمام المؤامرات والدسائس الجديدة في الداخل والخارج وفي الحاضر وفي المستقبل بإذن الله.

مَغزى الإستشهاد في نَظر الثورة الإسلامية في إيران

إن حبَّ الإستشهاد والتضحية بالنفس، الذي أشاعته الثورة الإسلامية

بين أبناء الشعب الإيراني، بوحي من معاني الفداء التي كان يتحلى بها الإمام علي عليه السلام وأبناؤه البررة، وعلى الخصوص سيدنا الحسين، سبط الرسول الذي صَنَعَ ملحمةَ التضحية والفداء في واقعة كربلاء في مواجهة الظالمين، كان الحافز لوقوف الشعب الأعزل عن السلاح، أمام أحدث السلاح، الذين كان يَملكه جيش الشاه.

كما كانَ العامل الحاسم الذي جَعلَ الشعبَ الإيراني يقفُ كالطود الشامخ، أمام غزو القوات العراقية بما تتوفر عليها من السلاح والتجهيزات العسكرية الحديثة، والقوى البشرية المدربة تدريباً جيداً، مُنذُ عامٍ ونصف العام وحتى يومنا هذا. إضافة إلى نحمله أعباء كل ما أسفرت عنه هذه الحرب المفروضة على إيران من جانب النظام الحاكم في العراق، من ملايين المشردين والمتضررين، ومن تّدمير للمدن والمناطق السكنية والمنشآت الإقتصادية والإنتاجية.

و لقد تَمكنَ المقاتلون الإيرانيون، بفضل إيمانهم وحب الإستشهاد المتأصل في نفوسهم من أن يوقفوا زحفَ القوات المعتدية، وأن يبدلوه إلى فِرارٍ لأفرادها، أو أستسلامهم لقوات الإسلام في إيران، فالموت من أجل الإسلام والوطن الإسلامي جعل هؤلاء المقاتلين ينقضون في أفواج بشريةٍ متتاليةٍ، على مواقع القوات المعتدية الحصينة جداً.

فلولا معاني التضحية والفداء والإستشهاد في سبيل الله، ومن أجل العزّة والكرامة والإستقلال، لما تمكّنت القوات الإيرانية من إحراز هذا النصر الساحق، على القوات المعتدية في حرب غير متكافئة.

و لفهم مغزى الإستشهاد الملازم لمعنى الجهاد في سبيل الله، يجب أن

نعلم بأن الإستشهاد هو عبارة عن الإختيار الواعي والجرئ للموت. أي أن الشخص يكون شهيداً حينما يقرر طوع إرادته ورغبته، أن يقف موقف المدافع عن إيمانه ومبادئه، وقضاياه العادلة، والدفاع عن الحق والعدل والكرامة الى الحد الذي يُضحى معه بنفسهِ وجسدهِ، وليس في الوقت الذي يَلقى فيه مَصرعه، إذ في هذه الحالة لن يكون شهيداً بل قتيلاً. إنما الشخص الذي ينهضُ للدفاع عن قضاياهُ الحفه والذي يعلم مسبقاً أنه سيَلقى مصرعه في هذا السبيل، يُعرف بالشهيد. والقتل أو الموت يُعطي الصفة الفعلية لهذا الاختيار الواعي فيصبح الشخص شهيداً.

و الموتُ الاختياري أو التطوعي من موقع الدفاع عن العقيدة، هو سلاح الإنسان في مواجهة الأعداء، ويصبح هذا السلاحُ ذا أثرٍ كبيرٍ في الوقت الذي يسود فيه، الظلمُ والكبتُ والتسلط الفردي، إلى الحد الذي لا يمكن معه، الدفاع عن العقيدة والحق والعدل، بأية وسيلة أُخرى غير وسيلة التضحية بالنفس. ففي مثل هذه الحالة يصبح الإستشهاد، السلاح الناجز الذي به يُمكن تقويض دعائم هيمنة الحاكم المتجبر، أو حينما تكون قوة العدو الغازي والمتغطرس، أكثر عِدة وتسليحاً، وعند ذاك يصبحُ سلاحُ الموت جديراً بمقارعة سلاح العدو في حرب غير متكافئة.

و لمعرفة كيفية توظيف هذا السلاح الخَطير في إحراز النصر على نظام الشاه من قِبلَ الثوار المسلمين في إيران، يجب أن نَعلم، أن ميزة الأنظمة الدكتاتورية، المستندة الى خنق الحريات وكمّ الأفواه، وإتخاذ القرارات من وراء ظهر الشعب، هي حرص هذه الأنظمة على إبقاء الناس في جهلٍ مطبق عما تقوم به من أعمال وتصرفات وجرائم

وخيانات.

و ميزتها الأُخرى سَعيها الحثيث الى إيهام مواطنيها، بأن لها سلطة قوية ومتحكمة تماماً، وذلك عن طريق وسائل الإعلام وشبكات التجسس والأجهزة السرية التي تمتلكها، يصل هذا الوهم إلى حد إستلاب الناس لشجاعتهم واستقلاليتهم وكرامتهم الشخصية، وإلى الحد الذي يعتبر كُلّ فرد، الحياة التي يحياها في ظل مثل هذه الظروف السلطوية القاهرة، هي قَدَره ومَصيره المحتوم الذي لا يمكن تغييره بأي حال من الأحوال.

فالإستشهاد سلاحٌ لتفويض هاتين الميزتين اللتين ترتكز عليهما الأنظمة الدكتاتورية، والفردية المتحكمة في رقاب المحرومين، لأن الإنسان العقائدي المتفاني، الذي ينهض للدفاع عن الحق والعدل والشرف، بلا خوف ولا وَجل، يهتف مطالباً بالحرية والخلاص، ويجعل من صَدره هدفاً لرصاصات عملاء النظام، إنما يفضح بعمله هذا الوجه البشع والشرس للنظام. كما يُبرهن وبشكل ميداني على أن النظام المُتسلط لن يأبى عن إرتكاب أية جريمة، مهما كانت دموية ووحشية، مثلما يجعل سائر أقرانه وزملائه وكل من يعرفونه في حلٍ عن النظام الحاكم. مثلما يعبث في نفوسهم الكراهية والعداء له ويُحفّزهم لمكافحته أيضاً. وهذه التجربة بالذات طبقت في إيران، فسقوط عددٍ كبيرٍ من الشهداء برصاصات أعوان النظام، كشف النقاب عن وجهه اللاانساني، وطابعه القمعي الدموي، وجعل قطاعاً كبيراً من أبناء الشعب على عِلم ووعي بحقيقة جرائمهِ وخياناتِه.

و من هنا بدأ الشعب الإيراني المسلم، بجماهيره العريضة، وقواهُ الفاعلة، من الجيش والشرطة، والكوادر الإدارية، التي كانت معبّأة في خدمة

نظام الشاه، تتعرفُ رويداً رويداً على صنوف الظلم والقمع وأعمال التعذيب، التي يمارسها بحق الأحرار والمناضلين، المطالبين بالحرية والإستقلال وعزّة وطنهم، وسعادة شَعبهم.

كما تَعرّفت على مدى ضُلوع هذا النظام في ركاب الإمبريالية واستسلامه للقوى الأجنبية ورضوخه للإمبريالية الأمريكية.

و هذه الظاهرة، أي الوقوف في مواجهة عملاء النظام، والسقوط صرعى برصاصاتهم الظالمة، أخذت تَنتشر وتَعمُ بسرعة في كل أنحاء إيران، فكان إذا سَقط شهيدٌ، ملأ مكانه المئات بل الآلاف من المواطنين المتطلعين إلى نيل الشهادة في سبيل الشرف والكرامة، وفي سبيل الدفاع عن إستقلال وطنهم الإسلامي وحُرمة دينهم الحنيف.

و هكذا فقد انتصرت الثورة الإسلامية الإيرانية، بفضل الدماء الطاهرة لهؤلاء الشهداء، وتَغلبَ الإيمان وقوة المعتقد الإسلامي على واحد من أقوى الأنظمة الدكتاتورية في عصرنا الحديث. وبذلك تحققت عملياً نظرية إنتصار الدم على السيف.

الثورة الإسلامية في إيران.. ثورةٌ شعبية

لقد أشرنا من قَبل، بأن الثورة الإسلامية في إيران، مَدينةٌ في إنتصارها الساحق على نظام الشاه المقبور وطغمته الفاسدة، لنضالات وانتفاضات القاعدة الشعبية في البلاد.

حيث يمكن القول، بأنها كانت تشمل كل أبناء الشعب المسلم الإيراني، ما عدا فئة قليلة منتفعة ومتحكمة، ترتبط مصالحها ومنافعها الشخصية مع إستمرارية النظام الملكي الجائر.

و من هنا يمكن القول وبكل تأكيدٍ

وثقة، بأن أبناء الشعب المسلم، هُم وحدَهم دَفعوا بهذه الثورة أشواطاً بعيدة إلى الأمام حتى النصر المبين.

و ها هُم اليوم، يحافظون لوحدهم على استمراريتها وحركتها التصاعدية، وصولاً لكل الأهداف التي رَسمها الإسلام، لسعادة وفلاح المسلمين.

كما أنهم لوحدهم يدرأون عنها الأخطار، ومؤامرات الأعداء، والمتربصين لها سوء في الداخل أو الخارج.

إذن فأهم مَيّزة في هذه الثورة، هي طابعها الشعب الأصيل. لأن جماهير الأمة الإسلامية في إيران، هي وحدها صاحبة القرار، وصانعة الإتجاهات والخطوات المصيرية، وهي التي تدعي وتصون الثورة وتُطهرّها من الشوائب والترسبات، وتحافظ على مكاسبها ومنجزاتها، وصولاً لذروة المجد الإسلامي التليد.

و إن غياب بعض المسؤولين، الذين تولوا مهام رسمية، في خضم تفاعلات الثورة الإسلامية في إيران، والذين أُبعدوا عن المسرح السياسي فيما بعد، واحد تلو الآخر ـ بسبب عدم كفاءاتهم السياسية والثورية، أو بسبب محاولاتهم في تحريفها عن طريقها الإسلامي السّوي ـ لخيرُ دليل على وعي وتَفَهُم أبناء الشعب الإيراني المسلم، للاهداف الإسلامية الصحيحة لحركتهم الناشطة والمتصاعدة. إضافة إلى أنهم يتبارون تلقائياً للتصدي لكل مَن يُحاولُ الإساءة الى الثورة، أو يحاول تشويه وجهها السليم النقي الطاهر، ويلفظون بكل مَن يُريد دَفعها إلى متاهاتٍ غير إسلاميةٍ، شرقيةٍ أو غربيةٍ، مهما كان موقِعَهُ ورُتبته.

و لقد رأينا خلال التطورات السياسية التي شهدتها الساحة الإيرانية، في السنوات الثلاثة الأخيرة،

كيف أن بعض التيارات السياسية الليبرالية أو اليسارية أو الإتجاهات الوطنية المشبعة بالمفاهيم والقيم الغربية، حاولت إحتواء الثورة الإسلامية في إيران. وكيف أن الجماهير المسلمة إنتفضت كالبركان الهادر، فتصدت لها وأبعدتها عن المسرح السياسي، وقامت بالكشف عن حقيقتها، وفضحت سرائرها، وانزلاقاتها في دروب كانت ستنتهي لا محالة إلى تبعية إيران من جديد، إمّا للإمبريالية الغربية، أو الإمبريالية الإشتراكية.

و لقد برزت على المسرح السياسي في إيران بعد الثورة، تنظيمات دينية وسياسية، ولَمعت أسماء شخصيات، لكنه خَبؤ بَريقها، وأفُل نجمها، بسبب مواقفها المتهادنة، والإستسلامية تجاه الإمبريالية، وبسببِ إفتقادها لمرتكزاتها الشعبية.

و لهذا السبب فإن نظرة الجماهير الشعبية المسلمة في إيران، نحو المسؤولين والقيادات، لا تقوم على أساس شخصي، بل على أساس مدى الإلتزام أو التفهم العميق لرسالة الإسلام، والإحساس بالمسؤولية الثورية، والاستعداد والقدرة لخدمة مصالح الإسلام والأُمة الإسلامية. ومن هنا فقيمةُ الأفراد والشخصيات تتناسب مع مدى قُربهم للإسلام ومدى تمسكهم بأهدافه، وهِيامهم بقيمهِ وفضائلهِ، وإلتزامهم بمصالح الشعب والوطن الإسلامي.

و لنضربُ مثلاً بقيادةِ الإمام آية الله العظمى السيد الخميني، زعيم الثورة الإسلامية ومؤسس جمهورية إيران الإسلامية، فهذه القيادةُ الفذةُ تحتل الصدارة في قائمة القيادات الروحية والسياسية في البلاد. وذلك لكون سماحته، لا يفكر بشيء سوى الإسلام، وسوى العمل على تحقيق

أهداف السامية، وصولاً إلى العدالة والإستقلال والحرية وإحلال حكومة العدل والسواسية الإسلامية على أرض الله الواسعة.

و إن حنكة الإمام الخُميني، وتَفهمَه للظروف الراهنة واعتمادهُ على الإسلام، بوصفه الحل الأمثل لمشاكل العصر، جَعلته في موقع قيادي يُوجّه ويهدي مسيرة الشعب المسلم في إيران حتى النصر المبين.

فسماحته كان يرى دائماً سرَّ نجاح المسلمين في العالم ممثلاً بالإسلام، وأنه الحافز القوي للدول وللشعوب الإسلامية، نحو التحرر من عبودية الإستعمار، والتبعية الفكرية والإقتصادية، ومن الجمودِ والتَخلفِ والإنغماس في ظَلامِ الجاهلية.

كما أن سائر القيادات الروحية والسياسية، تَحتلُ مواقعها من منطلق الإلتزام بالعقيدة وبالرسالة الإسلامية للثورة، ودنوها من القاعدة الشعبية العريضة، والخدمات التي تُسديها لتأمين متطلبات وإحتياجات المستضعفين والمحرومين.

أي إن الإلتزام بالعقيدة والرسالة الإسلاميتين، يأتي في المرتبة الأولى من بين المؤهلات التي يجب أن يتوفر عليها كل مسؤول، أو كل من يؤدي دوراً قيادياً داخل المجتمع، ومن ثم يأتي الإختصاص والخبرة في المرتبة الثانية، على أن يكون المسؤول أو الشخص القيادي شخصاً ملتزماً وعقائدياً في أي حال من الأحوال.

فالنزاهة السياسية والدينية، هي الأساس الرئيسي في مؤهلات المسؤول، في حكومة الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

و من هذا المنطلق، أبعدت الجماهير

الإسلامية الكثير من المسؤولين والعديد من القيادات خلال سنوات الثورة، بسببِ افتقادها لهذه النزاهة، أو عدم تفهمها الكامل للرسالة الثورية والإسلامية الملقاة على عاتقها.

إذن، السلطة في إيران الإسلامية، هي في يد شعبها المسلم. والتي تُمارس عبر مجالس الشورى الإسلامية، والجمعيات والمؤتمرات الشعبية.

فالمواطنون من خلال هذه التنظيمات والؤسسات المنتخبة من قبل الشعب، يدلون بآرائهم، ويملون توجهاتهم وتطلعاتهم، على المسؤولين في البلاد، وحتى أنهمم يحدّدون، إتجاهات السياسة الخارجية لبلادهم الإسلامية، من خلال الشعارات التي يطلقونها بوعي ونضج سياسي رفيع، سواء في المؤتمرات الشعبية، أو في مراسيم صلوات الجمعة، التي تُقام في كل إسبوع في مختلف المُدن الإيرانية. فكم من المواقف التي وقفتها الجماهير المسلمة في هذه المؤتمرات والمراسيم الدينية، تجاه الأحداث والوقائع التي شهدتها الساحة الإيرانية، ومنطقة الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، والتي أصبحت فيما بعد المواقف الرسمية للحكومة الإسلامية الإيرانية !

فالقرارات والتوجهات، تصدر عن الشعب وتنطلق من إرادته الحرة، على أن لا تحيد عن مبادئ وأحكام الإسلام.

و في غير ذلك، يبرز دور الفقيه الولي، الممثل حالياً بقيادة الإمام الخميني، الذي يقف كالطود الشامخ أمام أي إنحراف عن نهج الإسلام، والحيلولة دون وقوع تجاوزات عليه، وتوجيه النُصح والهدى والإرشاد إلى المسؤولين، وإلى جماهير الأُمة الإسلامية، من أجل العمل المكثف والدؤوب في سبيل تعزيز الطابع الإسلامي للدولة.

و الجديرُ بالذكر هنا، أن الثورة الإسلامية في إيران، دون غيرها من الثورات في العالم إختارت منذ البداية مبدأ الإنتخاب ومشورة الشعب، في كل ما يتعلق بمصيره ومصير بلاده، ونوع النظام السياسي الذي يرتضيه.

و يمكن إعتبار الثورة الإيرانية ثورة رائدة في هذا المجال، فخلال الثلاث سنوات التي مرّت من عمر الثورة، جرت في إيران الكثير من الإنتخابات والإستفتاءات الشعبية الحرة تماماً، ومما لا شك فيه، أن هذا لإنجاز كبير جداً، لو أخذنا بنظر الإعتبار أن بعض الثورات في العالم عجزت عن إجراء الانتخابات حتى ولو لمرةٍ واحدةٍ. كما لم تستطع صياغة دستورها الجدير في فترة زمنية قصيرة جداً، مثلما فعلت إيران الثورة. إذ تمت صياغة دستورها الإسلامي الجديد، في المجلس الإستشاري الدستوري المؤقت، والمنتخب من قبل الشعب وجرى إستفتاء شعبي عام للمصادقة عليه، خلال فترة لا تُناهز الأربعة أشهر من العام الأول لإنتصار الثورة، وهي بلا شك فترة قياسية. هذا الى جانب الإستفتاء الشعبي العام حول النظام الجمهوري الإسلامي والإنتخابات النيابية، والإنتخابات الرئاسية الأُولى والثانية والثالثة. والعديد من الإنتخابات النيابية الفرعية المتتالية، بالإضافة إلى إنتخاب أعضاء المجلس الأعلى للقضاء وأعضاء المجالس واللجان الإسلامية. مما يبرهن على أن مبدأ الإنتخابَ هو الأساس في سلطة الشعب وتَحكُمِهِ بمقدراته ومصيره، ضمن إطار أحكام وقوانين الإسلام.

الثورة الإسلامية الإيرانية.. ثورة ثقافية

مما لا شك فيه أن الثورة الإيرانية، هي ثورةٌ ثقافةٌ أكثر من أن تكون ثورة

إقتصادية ومادية، تهتم بالقيم والمثل، والمعاني السامية، المستوحاة من الدين الإسلامي الحنيف، الذي جاء ليُطهر حياة الناس من أدران ادران الجاهلية، والإنغماس في الملذات والشهوات، والمباهج والمظاهر المادية الزائفة والعابرة، ليسمو بالإنسان إلى الكمال الروحي والمعنوي، وليُصقل عُقول الناس بالعلم والإبداع، لكنه مع هذا لا يغفل الحياة المادية، بل يعتبرها فرعاً للكمال الروحي، لأنه إذا ما صَلحت النفس البشرية واستقامت وتطهرت صَلحت بالتالي حياته المادية، وإنتظمت شؤونه المعاشية اليومية.

و تعمل الثورة الإسلامية في إيران من هذا المنطلق، على توعية أبناء شعبها المسلم وتنوير أفكارهم بحقائق الدين، وتسعى لتهذيبهم، وتعميق فضائل الأخلاق في نفوسهم، وتأطير سلوكهم وتصرفاتهم الفردية والجماعية، بإطار الإسلام الصحيح، وصولاً إلى مجتمع الرفاهية والعدل والمساواة، مجتمع تسودُ فيه المُثل والقيم الخُلقية الرائدة، التي جاء بها الإسلام العظيم، بعيداً عن الفساد والإنحلال والضياع والجمود، والإنقياد الأعمى وراء القيم الرخيصة، والعادات المستوردة، والتصرفات الرذيلة، وذلك على نقيض تام مما كان عليه المجتمع الإيراني، أيما حكم الشاه البائد.

مِن هنا، يجب النظر إلى الثورة الإيرانية، من منظار الأخلاقيات والأدبيات والروحيات، التي أفرزتها على نطاق موسع، في مجتمع مادي كان منغمساً إلى آخره في الفساد والتسيب والإنحلال.

و كذا من منظار ما حققته هذه الثورة لبلاد إيران، من استقلال كامل وحرية وعزّة وكرامة، على المستوى الدولي، وأعادت للشعب الإيراني حقه

المسلوب في تقرير مصيره بنفسه، وفرض إرادته وسيادته الناجزة على ثروات بلاده، وخاصة البترول. بعدما كانت هذه الثروات نهباً لأطماع القوى العظمى ومصاصي ثروات الشعوب.

و بذلك أصبحت إيران حرة أبية، تتخذ قراراتها، وتعين سياستها الخارجية بنفسها، فهي التي تتخذ مواقفها تجاه تطورات وقضايا العالم، بإستقلالية تامة، ومن منطلق مصالحها ومبادئها العقائدية.

و سياستها الخارجية في ظل الثورة كما هو معروف، تَقومُ على مناهضة الإمبريالية والصهيونية المجرمةِ، ومكافحة كُل أنواع الاستكبار، والإستغلال والتفرقة العنصرية مثلا تقوم على دَعم حركات التحرر، ومساندة جميع الشعوب المتطلعة إلى الحرية والإستقلال، وشَجب وإدانة كُلّ المؤامرات والخططات المشبوهة، التي تستهدفُ إلى كَسر عزيمة الجماهير المتحررة، وإذلالها وتركيعها، أمام إرادة الإمبرياليين والمستعمرين والطامعين.

و هنا تجدر الإشارةُ إلى أن الثورةَ الإيرانية، بفضل منطلقاتها الإسلامية التحررية، قد جاءت بإطروحة متكاملة على صعيد الحياد الإيجابي في العالم وهي: لا شرقيةً ولا غربية، جمهوريةً إسلامية، ففي هذه الإطروحة من معاني الإستقلال وعدم الإنحياز لأي من المعسكرين الكبيرين في العالم، ما ليس من الإطروحات الأُخرى، إذ فيها رفض كامل وتام لأي إنحياز لأحد المعسكرين، مهما كان ضعيفاً وتافهاً، الذي ربما يتدرج ليصبح إنحيازاً كاملاً.

كما فيها تأكيد صارخ على الإستقلالية التامة، ورفض كل انواع التبعية السياسية والإقتصادية والثقافية.

و بناءاً على ما تقدم، فإن الخطأ

الكبير الذي ارتكبه أكثر الباحثين والمتتبعين لسير التحولات الثورية في إيران الإسلامية، هو أنهم يحاولون تقييم ثورتها، بمقياس ما حققته من منجزات ومكاسب مادية محسوسة ومنظورة. أي أنهم سعوا أو يسعون إلى الحُكم على الثورة الإسلامية في إيران، أو الحكم لصالحها، من منطلق مادي صرف... مثلاً، كم من العمارات والمباني الضخمة شُيدّت في سنوات عمر الثورة، وكم من المصانع والمعامل أُقيمَت. وكم من الطرق والاحياء السكينة والمرافق الحيوية أوجدت، إلى غير ذلك من المشاريع والخطط التي غالباً ما تتبجح بها الثورات الأُخرى، بوصفها منجزات هائلة ومحيرة للعقول. بالاضافة إلى أن أولئك الباحثين والمحققين، لا يأخذون بنظر الإعتبار في تقييم لمنجزات الثورة الإيرانية، المشاكل والمتاعب الكبيرة والعديدة التي أوجدها أعداؤها في الداخل والخارج، خلال السنوات الثلاث الأخيرة، وما خلفته لها تَركهُ نظام الشاه القبور من أزمات إقتصادية وإجتماعية ونقص في موارد وعائدات البلاد. إلى جانب توريط إيران الثورة في حرب مدمرة، غير متكافئة مفروضة عليها، من جانب النظام العراقي.

لكنهُ على الرغم من كُلّ ما عانته ثورة إيران الإسلامية، من مشاكل وأزمات، وصعاب واحباطات، فُرضت عليها رغماً عن إرادتها، من قِبَل القوى المتآمرة فإن الكثير من المنجزات المادية قد تحققت خلال هذه الفترة القصيرة التي مرت من عمر الثورة.

و هذه المنجزات ليست بمشاريع ضخمة وراقية تعد على أصابع اليد، ليكون الهدف الرئيسي منها، الدعاية والتطبيل والتزمير لابطالها. فالإنجازات التي حققتها الثورة الإسلامية لإيران، هي من الكثرة والتنوع، بحيث يصعب

حصرها في عدة أرقام وإحصائيات، وهي أساساً مكرسة، لفائدة قطاعات كبيرة جداً من المستضعفين والمحرومين في البلاد، والتي تتمثل في بناء الدور السكنية بالآلاف، والطرق والمسالك الريفية، وخطط لإنعاش الحياة في الأرياف، ورفع الحيف والحرمان عن جمهور الفلاحين وأهالي القُرى، وذلك ببناء المرافق الحيوية لهم، وكهربة مناطقهم، وتوفير الخدمات الصحية، والتعليمية، في قُراهم وبَذل اهتمامات متزايدة لشؤون الزراعة في البلاد، وخلقُ المُغريات والحوافز، لجذب أكبر عدد من العمال والرساميل الوطنية نحو القطاع الزراعي، من أجل إعادة تنشيطه وصولاً إلى مرحلة الإكتفاء الذاتي، في مجال تأمين المواد الغذائية.

و أقامت مصانعَ ومعاملَ لتصنيع البلاد، بالشكل الذي لا يؤدي بها إلى التبعية الأجنبية في مجال توفير قطع الغيار والمواد الأولية.

و بإمكان أي مراقب محايد أن يلمس تطوراً روحياً عظيماً وتَقدُماً مادياً في إيران، لو عملَ تقييماً سليماً حول المجتمع الإيراني في ظل ثورته الإسلامية، وما كان عليه في ظل نظام الشاه البائد، كما أنه بإمكان أيّ شخص أجنبي، زار إيران إبّان حُكم الشاه، أن يَشعر ويلمس عملياً تحولاً روحياً ومعنوياً هائلاً وموسعاً في كل جوانب المجتمع الإيراني لو قام بزيارتها في الوقت الراهن.

و لكي يكون هذا التقييم السريع لمنجزات الثورة الإسلامية في إيران، أكثر دقة وشمولية، فإنه من المستحسن عمل جرد سريع لأهم خطواتها السياسية والإجتماعية، وكذا لأهم منجزاتها الإقتصادية والإنمائية، عبر الأرقام والإحصائيات مع التأكيد مجدداً، على أنها ـ أي الثورة ـ هي

حركةٌ رساليةٌ ثقافيةٌ، قبل أن تكون وثبة إقتصادية ومادية، هدفها العمل على بعث الإسلام من جديد وإقامة حُكم الله على أرضه.

الإسلام.. مصدر القدرة

حينما (تحرّكت) المجموعة المؤمنة في صدر الإسلام لاقامة حكم الله في الأرض تحققت (معجزة) يقف كل الباحثين امامها اليوم مذهولين مبهورين.

هذه المعجزة تمثلت بالدرجة الأولى في التغيير الكبير الذي طرأ على شتات من الناس المتفرقين، المتصارعين، البعيدين عن الحضارة السائدة يومذاك، فخلقت منهم مجموعة متخلّقة باسمى الصفات الإنسانية وأنبلها، ودفعتهم لبناء الدولة الإسلامية والى حمل مشعل الإسلام الى العالم بأجمعه، متحدية كل طواغيت العالم.

١- عامل الإمداد الغيبي

٢- عامل الفطرة الإنسانية

٣- عامل طبيعة الرسالة الإسلامية.

عامل الإمداد الغيبي

هذا العامل يلغي كثيرا من الحسابات المادّية التي تقيم معادلاتها على أساس الأرقام البحتة، ويضفي على تعامل الإنسان مع العالم المحسوس طابعاً جديداً لا يفهمه الراسفون في اغلال القيود الماديّة.

و هذا العامل ــ إضافة الى دوره الموضوعي العملي المشهود في الحياة الخارجية، يزيل كل عوامل الضعف والخور والاستكانة، ويمنح الانسان المؤمن طاقة جبارة تتهاوى أمامها الصعاب والمشاكل والعقبات.

الإمداد الغيبي في حياة المجموعة المؤمنة يتجسد في دعم جبهة الإيمان وتثبيتها، وفي زلزلة جبهة الكفر

وارعابها:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾.

(الانفال – ٩– ١٢)

كما يتمثل الإمداد الغيبي في انفتاح الآفاق الصحيحة المسلمة، والطرق السوية المستقيمة أمام الأمة المجاهدة المتحركة على طريق الله:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

(سورة العنكبوت ـ ٦٩)

بينما جبهة الكفر تتخبّط (كَمَن مثله في الظلمات ليسَ بخارج منها)... والكافرون تخبطهم هذا يسا همون في تحطيم أنفسهم من حيث لا يشعرون:

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾

(سورة الحشر ـ ٢)

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾

(سورة النحل ـ ٢٦)

عامل الفطرة الإنسانية

الفطرة الإنسانية هي طبيعة الإنسان التي خلقه الله عليها، وهي ثابتة منذ أن يُخلق الإنسان على هذا الشكل،

والدين الإلهي جاء منسجماً مع هذه الفطرة، ومتناسقاً معها.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(سورة الروم ـ ٣٠)

و كلّ انحراف عن الدين، إنّما هو انحراف عن الفطرة، عن الطبيعة الإنسانية السوية المستقيمة. ومن هنا فالانسان المنحرف عن دين الله يبقى تائهاً حائراً لا يشبع ولا يرتوي ولا يقرّ له قرار، لان طريقة لا ينسجم مع طبيعته وفطرته، وكلّ ما يركض وراء يجده سراباً لا يروى ظمأ نفسه المتعطّشة الى طريق الفطرة:

﴿و الذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعةٍ الظمآن ماءاً، حتى إذا جاء لم يَجدهُ شيئاً، ووَجَد الله عندهُ فوفّاه حسابَهُ والله سريع الحساب﴾.

(النور ـ ٣٩)

الدين الالهي يتجه الى مخاطبه الفطرة الإنسانية، ويطمح أن يهدي الإنسان الى طريق الفطرة... طريق دين الله... مهما بلغ انحراف هذا الإنسان.. حتى ولو كان هذا الإنسان المنحرف فرعون:

﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾

(طه ـ ٤٣ـ٤٤)

و لئن لم يستطع فرعون أن يُنقذ نفسه من أغلال انحرافه واستكباره، فقد استطاع سَحَرة فرعون أن يتغيروا تغيّراً عظيماً ويعودوا الى فطرتهم.

هؤلاء السحرة كانوا يعيشون آمال أجر فرعون والزلفى منه:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾

(الأعراف ـ ١١٣ـ١١٤)

لكنهم إنصاعوا لنداء الفطرة، بعد أن انكشفت لهم تفاهة أعمالهم، وصمدوا أمام تهديد فرعون وعيده، مؤثرين الإيمان على فرعون وعطاياه وسخطه وتعذيبه:

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾

(طه ـ ٧٠-٧٢)

و يبقى عامل الفطرة يشكّل عنصراً من عناصر قوة دعوة الدين الإلهي في كل زمان ومكان.

عامل طبيعة الرسالة الإسلامية

الرسالة الإلهية تتميز بخصائص، تجعلها قادرة على خلق الإنسان المتحرّر من كل القيود المادّية، والمتعالي على الإنشداد البهيمي بالإرض، والمتطلّع الى آفاق إنسانية بعيدة. ومن هذه الخصائص[1]:

الف- قدرة التحرك الدائم: فارسالة الاسلامية تطرح صفات الله، وتطلب من الانسان لان (يتخلق باخلاق الله) وهي صفات تكاملية مطلقة، لا تكاد المجموعة المسلمة تقطع شوطاً على طريق الالتزام بها حتى تنفتح أمامها آفاق أرحب وأوسع، ولذلك تبقى مسيرة الامة الاسلامية تقطع طريق تكاملها دون أن يحدّها حدّ، خلافاً للمدارس الارضية التي ترسم أمام الانسان آفاقا محدودة ضيقة، بما في ذلك المدرسة الشيوعية، التي تضع قضية إقامة المجتمع الشيوعي هدفاً نهائياً أعلى للمسيرة البشرية.

و هذا الهدف المطلق يظلّ دائماً

مصـــدر تحريـــك وعطـــاء للمجموعـــة المسلمة:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾

(الكهف ـ ١٠٩)

و هـذه الاهـداف التكامليـة الواسـعة هـي الـتي حركـت المجموعـة المسـلمة في صـدر الإسـلام، وامـدّتها بـالعزم علـى تحريـر العـالم ممـا يعانيـه مـن ظلـم واستعباد وجعلتها تتحدى عروش قيصر وكسرى من أجل إخراج عباد الله من ضـيق الـدنيا الى سـعتها، ومـن ظلـم المستكبرين الى عدل الاسلام.

ب- قدرة الدين الالهي على تحرير الانسـان من قيـود شـهواته الماديـة ومـن الانشـــداد الى الـــدنيا، بـــذلك يرتفـــع الانســـان الى مســـتوى تحمّـــل الاعبـــاء الرسالية ومستوى الشعور بالمسؤولية:

المفـاهيم الـتي يقـدمها الاسـلام عـن الدنيا والآخرة، ويربّي المجموعة المسلمة عليها، تجعل أفراد هـذه المجموعـة سـادة لـلارض وطبيباتهـا لا بعيـداً لهـا، كمـا تـدفعهم لا يضـحّوا مـن أجـل سـعادة الآخرين وتنقلهم من همومهم الصغيرة التافهة، الى هموم رسالية واسعة بعيدة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

(المنافقون ـ ٩)

هـذه التربيـة الإسـلامية تجعـل مـن الـدنيا في نظـر الإنسـان المسـلم طرقـاً للآخرة، وتحوّل الحياة الى مسرح للبنـاء والعمـل الصـالح بـدلا مـن أن تكـون مسـرحاً للتنـافس المحمـوم علـى المـال والمتاع:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ

اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّـهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

(القصص ـ ٧٧)

هذه الربية تحرّر الانسان من مغريات الارض، وتخلق منه الفرد المسؤول الذي يواجه مسؤوليات البناء بصدر رحب ونفس قوية ومعادلة حسابية رابحة لا موضع فيها للخسارة بحال من الاحوال.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴿١٠﴾تُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(الصف ـ ١٠-١١)

ج- زوال ظاهرة الاستضعاف من المجتمع الاسلامي: المجتمعات الجاهلية (غير الاسلامية) تنقسم الى فئتين: مستضعَفَة ومستكبرة، وهذا الانقسام يتخذ أشكالا مختلفة باختلاف شكل المجتمع الجاهلي، غير أن كل الاشكال تتجه نحو استغلال طاقات الافراد واستثمارهم في الحقول السياسية والاقتصادية والفكرية.

في مثل هذا المجتمع تتجه طاقات المستكبرين نحو امتصاص دماء المستضعفين واستثمار امكاناتهم كما تتجه طاقات المستضعفين نحو ارضاء شهوات مستثمريهم، بينما يزيل الاسلام كل الالوان الاستثمار والاستغلال، وتحرّر الطاقاتُ، طاقاتُ المستكبرين التي كانت متجهة نحو الاستغلال، وطاقات المستضعفين التي كانت مقيّدة في إطار إرضاء شهوات الآخرين.

هذه الطاقات المحررة قادرة على النمو والابداع وبناء المجتمع الرائد وهذا ما حققته الامة الإسلامية في مطلع تاريخها بعد أن تحرّرت، في إطار الاسلام، من علاقات الاستغلال والاستثمار.

د- المساواة بين الحكام والمحكومين في المجتمع الاسلامي: فالحكم في الدولة الإسلامية ليس حِكراً على فئة معينة، بل إن الامة المسلمة بأجمعها تتحمل مسؤولية خلافة الله في الارض بعد أن ترتفع الى مستوى هذه المسؤولية وتتسلم دورها القيادي[٢].

إسهام جميع أبناء الأمة في إدارة أمور الدولة الإسلامية، وتحميل كلّ الأفراد مسؤولية الرعاية، يزيل جميع ألوان الديكتاتورية، ويفجّر الطاقات في أبناء الأمة كما يوسّع القاعدة الجماهيرية للحكم ويصون الجهاز الحاكم من الإنفصال عن الجماهير.

و من جهة أخرى، تتمثل ظاهرة المساواة بين الحاكم والمحكومين في المجتمع الإسلامي، بإلغاء كل امتياز يختص به المسؤولون بل أكثر من ذلك تتمثّل في ضرورة ابتعاد كلّ ما يميز الحاكم الإسلامي عن أضعف طبقات الامّة.

و هذه المساوات لم يطرحها الإسلام على المستوى النظري حسب، كما تطرح اليوم في دساتير بلدان العالم بل حققها على مستوى التطبيق في واقع الحياة.

(في تاريخ التجربة الإسلامية وقف رئيس الدولة الإسلامية الإمام علي ـ عليه السلام ـ بين يدي القاضي مع مواطن إعتيادي شكاه الى القاضي. فأحضرهما القضاء لكي يقضي بينهما.

و في مرة سابقة على ذلك رفع يهودي مواطن في الدولة الاسلاميّة شكوى على الإمام عليّ في عهد الخليفة عمر، فأحضر عمر اليهودي وابن عمّ رسول الله (ص) معاً في مجلس القضاء، وحينما استمع الى كلام كلّ منهما لاحظ على الإمام شيئاً من التأثر، وخُيّل له أنّ الإمام ساءه أن يحضر في مجلس القضاء مع مواطن يهودي. فقال

الإمام لعمر: إني استأت لانك لم تساو بينه وبيني اذكنيتني ((اي قلت لي يا أبا الحسن)) ولم تكنّه)[٣]

و لا شك أن هذه المساواة تزيل الفواصل بين الحاكم والمحكومين، وتجعل المواطنين في الدولة الإسلامية أكثر إستجابة لعملية البناء التي تقودها الدولة.

هـ ـ سياسة الدولة الإسلامية على الصعيد العالمي: تقوم على أساس معايير الحقّ والعدل والإلتزام، وهذه السياسة لا تهادن الظالمين ولا تداهنهم ولا تتزلّف إليهم على حساب المبادئ الرساليّة، بل تقول كلمتها لهم صريحة واضحة خالية من كلّ دَجَل سياسي يسود السياسة العالمية اليوم.

كما تقف الى جانب المظلومين والمستعفين في كلّ العالم إنطلاقاً من معايير الحقّ والعدل، وبشكل عملي، لا كما يرتفع اليوم في أروقه المحافل الدوليّة في ضجيج مفتعل مسرحي باسم نصرة المظلومين ! ! وهكذا فعل القائد الأوّل– صلّى الله عليه وآله وسلم ـ في تعامله مع الأنظمة والكيانات القائمة آنذاك.

كما إنّ هذه السياسة تتميّز بالإلتزام بالعهود والمواثيق التزاماً رسالياً (و في تاريخ التجربة الإسلامية أمثلة فريدة من هذا المجال)، نجدها حتى في الفترات التي شحبت فيها التجربة وعصفت بها أهواء كثير من الظالمين ولنذكر مثالاً، لا من عهد الرسول الأعظم والخلفاء، بل من عهد أقل تألقاً منه بكثير، ففي عصر عمر بن عبد العزيز كان جيش المسلمين بقيادة قتيبة قد اتفق مع أهل سمرقند على بنود معيّنة، ودخَلَ البلد ولم يفِ لاهل البلد بما اتفق معهم عليه من التزامات، فشكاه أهالي البلاد الى الخليفة فأمر

الخليفة قائدة الفاتح وممثلي أهالي البلاد بالمثول بين يدي القاضي ليحكم بينهم بالعدل، فحكم القاضي لأهل البلاد، وألزم الجيش الفاتح بالإنسحاب، فهل رأيتم أو سمعتم أنَ جيشاً فاتحاً يُرغم على الإنسحاب، لا من قبل هيئة دولية أو مؤسسة عالمية بل من القضاء الذي ينتمي الى نفس الدولة التي ينتمي إليها الجيش ؟

إنّ تعامل الدولة الإسلامية على الساحة الدولية يجسّدُ قوله تعالى:

﴿(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة –٨)

و لا شكّ في أن تعامل الدولة الإسلامية على الساحة الدولية بهذه الروح يؤدّي عالمياً الى إيقاظ الضمير الإنساني وتوعيته على مفاهيم العدل والحق وتحريكه للمساهمة في مسيرة العدل على الأرض).[٤]

عودة الأمة في إيران إلى مصدر القدرة

دوافع العودة

(الفطرة الإنسانية) تشكل دوماً العامل الأول في كلّ دخول للإسلام أو العودة إليه، وهذا العامل هو الذي دفَعَ بأبناء فارس لأن يفتحوا ذراعهم أمام الفتح الإسلامي الأوّل، وينصروا الفاتحين المسلمين، تخلصاً من ظلم الطاغوت الكسروي. وبقيت الأُمة في إيران خلال القرون المتوالية التي تلت الفتح تعيش الإسلام فكراً وروحاً وعبادةً وسلوكاً على الرغم من انحراف كثير من حكّامها.

بعد سقوط العالم الإسلامي بيد الإستعمار الأوروبي، سقطت إيران أيضاً بشكل غير مباشر أولاً، ثم مباشر بعد

ذلك، وتركّزت الخطّة في إيران على إبعاد الأمة عن الثقافة الإسلامية بشتى الطرق:

– عن طريق إستيراد قشور الثقافة الغربية وتمييع الأمة من المظاهر الحضارية المستوردة.

– وعن طريق إحياء ما يسمى بالثقافة الفارسية القديمة، بحجّة أنّ الثقافة الإسلامية هي ثقافة الغزاة الذين حطّموا الأمجاد الفارسيّة ! !

– وعن طريق فصل الأمة عن علماء الدين والقاء التهم على هؤلاء العلماء واضفاء نظرة تشاؤمية عليهم.

و غيرها من الطرق التي حاولوا فيها إبعاد الإسلام عن الساحة أو إبقاء إسلام مشوّه ممسوخ مشلول على الأقل، كي يخلولهم الجو، ويعبثوا كيف شاؤوا.

و تصاعدت خطة المستعمرين من أجل إبادة الإسلام أو مسخهِ في إيران خاصة خلال نصف القرن الاخير، بعد أن خططوا لجعل هذا البلد قاعدة لتآمرهم في المنطقة.

لكن الله شاء أن يأتي بنيان قوى الإستكبار العالمي من قاعدتهم في إيران، حيث أثبتت الأُمة أنها ـ بفضل روحها الإسلامية ـ أقوى من كلّ مخططات الطغاة والمستعمرين، فحوّلت إيران، الى قاعدة تهدّد كل المصالح الإستعمارية في المنطقة:

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾

(النحل ـ ٢٦)

الدافع الأول في هذا التحوّل ـ كما ذكرت ـ هو (الفطرة الإنسانية) التي تبقى تشكل أرضية عودة الإنسان الى الخط الإلهي على الرغم من كل محاولات الحاقدين والطغاة

والمستكبرين.

غير أن هناك دوافع أخرى ترتبط بواقع الأمة في حياتها المعاشة اليوم، وأهم هذه الدوافع:

١- إرتباط التجربة الإسلامية بتاريخ الأمة:

إنصهرت الأمة في إيران بعد الفتح الإسلامي بالإسلام، وانطبعت ثقافتها وعاداتها وفنونها وطريقة حياتها بالطابع الإسلامي، وأضحى الإسلام يشكل أساس مزيجها الحضاري واطارها التاريخي.

و هذا الإمتزاج التام بالإسلام شكل دوماً عقبة أمام الذين خططوا لإبعاد الأمة عن دينها، وكما ذكرتُ، طَرح المستعمرون قضية (القومية) و(إحياء الأمجاد الفارسية) لإثارة العصبيات الجاهلية بوجه الإسلام.. لكنّ الأمة بقيت مرتبطة بتاريخها الإسلامي، وبقيت تعيش أبعاد التجربة الإسلامية التي شهدتها أو سمعت عنها في تاريخ الإسلامي المجيد.

و ما أجمل ما يعبر عنه معلم الثورة الإسلامية، الشهيد مطهّري في هذا المجال، حيث يقول:

((تحليل ماهية الثورة الإسلامية لا ينفصل عن قيادة الثورة. لماذا أضحى الإمام الخميني قائداً بحيث اضطرت الاقطاب المعارضة أن تنضوي تحت لوائه ؟ لماذا هذا التأثير الكبير الذي أحدثته نداءات الإمام الخميني وبياناته ؟ لِمَ كانت بيانات الإمام، تنتشر كانتشار النار في الهشيم على الرغم من الأخطار التي كانت تواجه كلّ من يسعى في نشر هذه البيانات).

نعم لا شكّ أن شخصية الإمام، وما يتمتع به من صدق وصراحة وصرامة وعدم مداهنة، كان له الأثر الكبير في

تسنّمه زمام قيادة الأمة، لكن المسألة الأساسية في هذا القائد كانت شيئاً آخر.

إنها أصالة النداء الذي أطلقه الإمام الخميني، فنداء هذا القائد انطلق من قلب ثقافة هذه الامة ومن أعمق روحها، ومن مزيجها الحضاري.

لقد عاش شعبنا خلال أربعة عشر قرناً ملاحمَ (محمد) و(علي) و(فاطمة) و(الحسن) و(الحسين) و(زينب) و(سلمان) و(أبي ذر)....

و أمثالهم، وهذه الملاحم امتزجت مع روحه وعقله، وها هو اليوم يسمع أنغام تلك الملاحم التي ألفِها من قبل، تخرج مرة أُخرى من حنجرة هذا الرجل.

رأت الجماهير علياً وحسيناً مجسّدين في شخص الإمام، كما وجدت فيه المرآة التي تعكس بشكل كامل ثقافتها المهانة المحقّرة...

هذه الأمة عاشت طويلاً أمل الإنخراط في زمرة أصحاب الحسين، وردّدت صباح مساء عبارة خاطبت فيها شداء كربلاء قائلة:

يا ليتنا كنّا معكم فنفوز فوزاً عظيماً... هذه الأمة وجدت نفسها فجأة على مسرح كربلاء وتبوك وبدر وأُحُد وخيبر، وجدت نفسها أمام الحسين وجهاً لوجه.

و هذا هو الذي هزّ الملايين من الأعماق ودفع بها إلى أن تسبغ الوضوء من ينبوع الحبّ الإلهي وتخرج مكبرة مهلّلة لتحطم عروش الظالمين)[٥]

٢- نظافة التجربة الإسلامية وعدم ارتباطها بعالم المستعمرين:

إنبهر العالم الإسلامي بشكل عام بمظاهر الحياة الأوروبية بعد سقوطه بيد الإستعمار الجديد، لكنّ هذا الإنبهار

سرعان ما تحوّل الى يأس من كل الشعارات البرّاقة التي لوّح بها المستعمرون وانكشف الوجه الحقيقي للبشير الغربي الذي طالما نادى بالحرية والديمقراطية والمدنية.

لم تمض مدّة طويلة على سقوط العالم الإسلامي بيد الغرب الكافر حتى تبيّن للمسلمين أنهم مُنوا بابشع ألوان الإستضعاف الفكري والسياسي والإقتصادي، واتضحت لهم هوية المستعمر الغاشم الطامع.

بعض بلدان العالم الإسلامي، إنتفضت من رقدتها، ونهضت بوجه الاستعمار الغربي الذي سامها سوء العذاب، لكنها وقعت ـ مع الأسف– في أُحبولة إستعمارية أخرى، تحمل إسم الإشتراكية واليسارية والشيوعيّة، ولم تستطع أن تعود الى واقعها وأصالتها.

الأمة في إيران جرّبت في تاريخها المعاصر ــ لحسن الحظ ــ أحابيل المستعمرين الشرقيين والغربيين، فبعد الحرب العالميّة احتل الروس شمال إيران، والبريطانيون جنوبه، وعانت الأمة ما عانت من كلا الإحتلالين، ثم مرّت عليها تجارب خيانة الشيوعيين الأُم، كما شهدت بأمّ عينيها مساندة العالم الشيوعي بجناحيه السوفيتي والصيني للشاه ولمشاريعه (الاصلاحية) ! (التقدّمية) ! من أجل الحصول على الغاز الإيراني، وفتح أبواب السوق الإيراني أمام بضائعهم الكاسدة.

إستياء الأُمة في إيران من عالم المستعمرين بلغ ذروته بعد دخول أمريكا المباشر في إيران، على أثر سقوط حكومة الدكتور مصدق. فقد أضحت كل مقدرات الأمة بيد الإستكبار الأمريكي وأشاع هؤلاء المستكبرون بالتعاون مع عميلهم الشاه المقبور أحطّ انواع الفساد

والرذيلة، ودأبوا بجدٍ على محاربة الروح الإسلامية وعلى ربط إقتصاد البلد وسياسته وجيشه بالسياسة الأمريكية.

و امام هذه التجربة المرة التي ذاقتها الأمة في إيران من عالم المستعمرين، بقيت التجربة الإسلامية نظيفة ناصعة طافحة بالقيم الرافضة للذوبان والتميّع في الثقافة الإستعمارية، والخضوع للمستعمرين.

و من هنا ارتفعت نداءات الأمة إبّان الثورة بالهتاف: لا شرقيّة ـ لا غربية ـ جمهورية إسلامية، لتعلن ولاءها للمدرسة البعيدة عن كل إنتماء وتبعيّة للشرق أو الغرب.

٣- التخلّص من الإزدواجية في الحياة المعاشة:

الإزدواجية ظاهرة تسود جميع بلدان العالم الإسلامي الخاضعة لنفوذ الإستعمار المباشر وغير المباشر.

ففي هذه البلدان غالباً:

عَلَم ودستور ومجلس أمّة

كلٌّ عن المعنى الصحيح محرّفُ

أطفال هذه البلدان يردّدون في مدارسهم أناشيد الحرية والإستقلال والسيادة الوطنية، لكنّها مجرّد الفاظ، اذ لا تجد سوى (التبعيّة) السياسية والإقتصادية والفكريّة... والمآذن في هذه البلدان تنادي لا اله الا الله، بينما تجد الآلهة المتعدّدة في هذه المجتمعات تحكم بغير ما أنزل الله، وتتحكم في مقدّرات أبناء الأُمّة كما تجد أنباء يقيمون علاقاتهم الشخصية على أساس الاسلام وعلاقاتهم الإقتصادية والإجتماعية غالباً على أساس غير إسلامي.

و ظاهرة الازدواجية هذه من أهمّ عوامل تخلف الأمة الإسلامية في الحقول

البنّاءة، وخاصة في الحقل الاقتصادي.

ذلك لأن معظم أبناء الأمة يعيشون انظمة إجتماعية مستوردة من الخارج لا تمت الى الإسلام بصلة. والإنسان المسلم لا يستطيع أن يتفاعل مع هذه الأنظمة[٦] ، ولا تستطيع هذه الأنظمة أن تفجّر طاقات الإنسان المسلم، وتدفعه نحو حركة البناء، لأنها لا تنسجم مع المزيج الحضاري والثقافي لإنسان العالم الاسلامي.

أبناء الأمة في إيران كانوا يعيشون هذه الإزدواجية بشكل فظيع. كانوا يحسّون بانفصال بين عواطفهم الإسلامية وافكارهم الاسلامية، وبين النظام الإقتصادي والسياسي والإتجاه الثقافي والتربوي في بلادهم.

الإتجاه الإسلامي لابناء الأمة في إيران أثبت أنه أقوى من كل العوامل المضادّة التي أوجدها المستعمرون وأذنابهم، حين دفع بابناء الامة للقضاء على تلك العوامل، من أجل إقامة المجتمع المنسجم القائم ي مجاليه الفردي والاجتماعي على أساس الإسلام.

مظاهر العودة قبل انتصار الثورة الإسلامية:

إتّسم التحرك الثوري في إيران منذ انطلاقته الاولى بمظاهر أثبتت للجميع أن هذا التحرّك إسلامي محض، وحتى الذين كانوا يحاولون إضفاء الطابع اليساري والشيوعي على الثورة في محاولة لعزلها عن عواطف الأمة الإسلامية، تراجعوا بسرعة بعدما أضحى الطابع الإسلامي للثورة حقيقة لا تقبل الشكّ والترديد.

و من هذه المظاهر

١- إستجابة الجماهير لقيادتها الدينيّة: هذه القيادة التي تجسّدت في

شخصية الإمام الخميني كانت على صلة وثيقة بالجماهير عن طريق البيانات المطبوعة والمسجلة على الأشرطة، وعن طريق التوجيهات التي كان يرسلها الى ممثلي المرجع في ايران. وهذه الاستجابة بلغت درجة مدهشة جسّدت الى حد كبير طاعة الامة لاولياء أمورها الحقيقيين.

الإمام القائد طلب من الجماهير أن تخرج الى الشوارع مطالبة بسقوط الحكم الشاهنشاهي واقامة الجمهورية الإسلامية، فخرجت متحدية سياسة الإرهاب والتخويف التي مارسها حكم الشاه بصورة واسعة دقيقة. ولم تثنها المجازر الوحشية التي ارتكبتها جلاوزة الشاه بحقّ المتظاهرين.

و الامام طلب من أبناء الأمة مواجهة رصاص العدوان بصدور عارية، وفاستجابت الأمة، ولم تحمل أي سلاح على الرغم من أنها قدّمت ستين ألف شهيد خلال عام واحد، بل وأكثر من ذلك نثرت على القوات المسلحة الزهور والرياحين استجابة لطلب الإمام، وهذه الطريقة الحكيمة في المعاملة هي التي زلزلت ولاء القوات المسلحة للشاه وجذبتها بالتدريج الى صف الجماهير الثائرة.

و الامام طلب من أبناء الأمة عدم قبول الحلول الوسط، ومواصلة الثورة حتى إقامة الحكم الإسلامي، فاستجابت الأمة، ولم تقبل تنازلات الشاه، ولا تشكيل مجلس السلطنة، ولا حكومة (بختيار) المتظاهرة بالوطنية، وبقي الإمام يواصل توجيهاته الحكيمة، والأمة تلتزم بها بدقة وعزم، حتى قاد المسيرة بإذن الله نحو نصرها المبين.

و جدير بالذكر أن الفئات غير الإسلامية، حاولت أن تطرح في الساحة شعارات خاصّة كي تثبت وجودها، ولكنّها انجرفت كالقشة أمام السيل

الإنساني الجارف الذي أبى أن يصغي لصوت سوى صوت قيادته الدينية الرائدة متمثلة في العلوي الثائر الإمام الخميني.

سقوط كل القيادات أمام القيادة الإسلامية، مؤشرهام يوضّح طبيعة التحرك الثوري في إيران.

٢- ثورة المساجد: هذا هو الإسلام الذي أطلقه كثير من المراقبين والمراسلين على الثورة الإسلامية في إيران. ففي فترة اندلاع الثورة الإسلامية، أضحت المساجد منطلق الثورة، ومركز إدارة العمليات الثورية.

باتت المساجد تنهض ـ إضافة الى دورها العبادي ـ بدور التوعية السياسية، والتعبئة الجماهيرية، وايصال نداءات القائد الى الجماهير، وبدور وسائل اعلام الثورة، والإشراف على توزيع الوقود والمواد الغذائية ومساعدة عوائل الشهداء والمضربين عن العمل.

و كان المسؤول عن تنظيم هذه الأمور في كلّ مسجد مجموعة من المواطنين على رأسهم إمام المسجد.

و لو عرفنا أن أئمة المساجد يرتبطون جميعاً بالمرجع القائد لفهمنا سرّ ذلك التنسيق ووحدة الشعار والهدف والطريقة في الثورة الإسلامية بجميع أنحاء إيران.

و من الواضح إن اتخاذ المساجد مراكز لإنطلاق الثورة يشير الى الطبيعة الإسلامية للثورة، والى العودة بالمسجد الى دوره الرائد الفعّال البنّاء في الحياة الإسلامية.

٣- شعارات الثورة: خروج المسيرات المليونية في طهران العاصمة وسائر المدن الإيرانية ظاهرة بارزة في الثورة الإسلامية، وهذه المسيرات الجماهيرية الضخمة كانت طافحة بالمظاهر

الإسلامية، فلا ترى بين ملايين النساء المتظاهرات امرأة غير محجّبة، حتى المراسلات والمصورات الأجنبيات اللاتي كنّ يغطين أنباء تلك المسيرات تحجّبن بالحجاب الإسلامي، ولم يكن أحد يفرض عليهنّ ذلك سوى الجوّ الإسلامي العام في الشارع الإسلامي الثائر.

كانت الملايين الهادرة في الشوارع تلتزم بالآداب والواجبات الإسلامية بشكل دقيق، فما أن يحين وقت الصلاة حتى تصطف في الشوارع، وتقيم صلاة الجماعة، كما كانت تبتعد عن كلّ أعمال إنفعالية غير متعقلة ومدروسة.

النظام الطاغوتي البائد حاول مراراً أن يجرّ المتظاهرين الى مثل هذه الأعمال، لكنه فشل بفضل الوعي العام والألتزام التام بتعاليم علماء الدين وتوجيهاتهم.

الشعارات في هذه المسيرات وفي كلّ التظاهرات الصغيرة والكبيرة كانت تدور حول محور واحد، وتلتزم بهدف واحد، هو إسقاط النظام الطاغوتي واقامة الحكم الإسلامي، واعلان الولاء لخط القيادة الإسلامية المتمثلة في الإمام الخميني.

إمتازت هذه الشعارات أيضاً بأصالتها، ورفضها لكل تبعية لشرق او غرب، فمنها الشعار المعروف: لا شرقية ـ لا غربية ـ جمهورية إسلامية.

كانت المآذن قبل اندلاع الثورة الإسلامية تنادي صباح مساء في أذانها: الله أكبر، لا إله الا الله، ولم يكن هذا الشعار يحرك ساكناً أو يقلق طاغوتاً. أما حين تحركت الأمة في إيران على طريق الإسلام، عاد هذا الشعار يتخذ طابعه الحقيقي في صدر الإسلام، أضحى يعني ولاء الأمة للاله الواحد الأحد وتمرّدها على الآلهة المزيفة في

المجتمع.

بات شعار التهليل والتكبير يخرج من القلوب والأعمق ويرعب الظالمين الحاكمين بغير ما أنزل الله، ويهزّ عروش طاغوت إيران وطواغيت الارض. شعار (الله اكبر) كان يدّوي نهاراً في الشوارع، وليلاً في سطوح المنازل، مضيفاً على الجوّ العام طابعاً إسلامياً ثائراً، ومؤكداً طبيعة المسيرة وأهدافها.

شعارات الثورة الإسلامية أوضحت أيضا ارتباط الأمة بتاريخ الإسلام الثوري، ومن ذلك شعار كل (كل أرض كربلاء- وكل يوم عاشوراء) وشعار: (ثورتنا حسينيّة ـ قائدنا الخميني).

كما أكدت تبني الأمة في إيران لقضايا المسلمين عامّة كشعارات مساندة الشعب الفلسطيني وشعارات العودة الى فلسطين وتحرير القدس، وشعارات إدانة المؤامرات العالمية على مصالح المسلمين كمؤامرة (مخيم داود).

هذه الشعارات بأجمعها أثبتت للعالم أنّ التحوّل في إيران الإسلمي يتطلع الى عودة الفجر الإسلامي وعودة (الأمة الوسط) من جديد على ظهر الأرض.

بعد انتصار الثورة الإسلامية

قطعت الأمة ـ بعون الله وقوته وتأييده- خطوات واسعة على طريق بناء المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية، وتثبيت دعائم حاكمية الله في الأرض.

فعلى صعيد النظام:

أرست قواعد الحكم الاسلامي عن طريق المصادقة على دستور الجمهورية الإسلامية المستلهم من الكتاب والسنّة الشريفة. وتمّ انتخاب أعضاء مجلس الشورى الإسلامي للمصادقة على القوانين في الحقول المختلفة ضمن اطار

الدستور، وانطلاقا من مصادر الشريعة الاسلامية وكل هذا تمّ ضمن فترة قصيرة عصيبة للغاية مرّت بها الامة في ايران، وهي تتعرض لابشع ـ المؤامرات الدولية من الداخل والخارج.

و على الصعيد الاجتماعي:

تواصل المسيرة الاسلامية عملية تطهير المجتمع من الوان الفساد والرذيلة، والقضاء على جميع مصادر التفسخ الخلقي، وايجاد المؤسسات الاجتماعية وفق معايير اسلامية لتعبئة طاقات الامة من أجل بناء المجتمع الإسلامي.

و على الصعيد الاقتصادي:

اتّخذت كل الاجراءات اللازمة لإزالة استثمار الأفراد، واستغلالهم اقتصادياً. كما افتتحت المؤسسات الاقتصادية الاسلامية للإسهام في بناء اقتصاد المجتمع ضمن إطار الاقتصاد الإسلامي، واستُرد كثير من الأموال التي نهبها جلاوزة الطاغوت وعملاء البلاط من أبناء الأمة.

و قُسّمت الأراضي المستردّة على المواطنين للاعمار والزراعة، وأُلغي النظام الربوي من البنوك تقريباً، ويجري العمل على تأسيس بنوك ومصارف إسلامية بعيدة عن التعامل الربوي، كما قُضي على جميع المرابين في المجتمع.

اتُخذت كل الاجراءات اللازمة لصيانة الثروات التي أودعها الله تعلى في الأرض كي يكون فيها للأمة بأس شديد ومنافع للناس. وقلّمت أظافر الغزاة الطامعين الذين نهبوا هذه الثروات سنين متطاولة فتمّ خفض تصدير النفط الى أقل حد ممكن، بحيث تستطيع عائداته أن تسدّ احتياجات البلاد، لا أن تتدفق هذه العائدات على البنوك الأجنبية !

كما نشطت الجمهورية الإسلامية في استيفاء حق الأمة من ثرواتها النفطية عن طريق رفع الأسعار الى أعلى مستوى ممكن.

و كذلك تم قطع ضخ الغاز الإيراني الى الإتحاد السوفيتي بعد أن لم يتمّ الإتفاق مع هذه الدولة حول الأسعار المطلوبة.

و من المظاهر البارزة لعودة الامة الى الإسلام ـ في المجال الاقتصادي ـ الابتعاد عن الإسراف والتبذير والترف والبذخ. فالإمام القائد يعيش في بيت متواضع بسيط كما يعيش أولئك الذين سحقهم نظام الطاغوت، وكبار المسؤولين يتقاضون رواتب تقلّ عن رواتب الموظفين العاديين. ومظاهر التهافت على موضات الغرب واخر مستحدثات الصناعات الأوروبية زالت على الإطلاق ومن الطريف أن التنافس تحوّل الى اتخاذ المتاع واللباس الأبسط، والى الإستزادة في الإبتعاد عن مظاهر الثقافة الإستهلاكية التي عمل المستعمرون على تركيزها في هذا البلد المسلم.

و في حقل السياسة الخارجية:

انتهجت الجمهورية الإسلامية سياسة صارمة تجاه تدخّل القوى الكبرى وطبّقت بشكل عملي جاد سياسة: لا شرقة ولا غربيّة، وأعلنت مساندتها لجميع حركات التحرر وجميع المستضعفين في العالم.

و على الصعيد التربوي:

تحولت جميع المساجد والمراكز الاجتماعية والدينيّة الى مؤسسات تربوية تستهدف بث المفاهيم الإسلامية، ونشر التوعية الإسلامية بين الجماهير.

صلاة الجمعة أضحت تنهض بقسط وافر من عملية البناء التربوي، وهكذا

مجالس الدعاء والذكر وتغيرت مناهج التدريس في المدارس لتواكب عملية التغيير الفكري والإجتماعي في الجمهورية الإسلامية، كما تحوّل الراديو والتلفزيون ومعظم قطاع الصحافة الى مدرسة تربوية لإعداد الإنسان المسلم الثائر المرتفع الى مستوى مسؤوليات عملية بناء المجتمع الإسلامي.

و على الصعيد القضائي:

قطعت الثورة الاسلامية خطوات رحبة على طريق تطبيق النظام القضائي الإسلامي فمنذ الأيام الأولى لإنتصار الثورة الإسلامية شكلت محاكم الثورة الإسلامية تحت إشراف الفقهاء الواعين على مباديء القضاء الإسلامي، ونهضت بأعباء تنفيذ القوانين الإسلامية بحق القتلة والمجرمين وتجار المخدرا والمرابين واعداء الإسلام المتأمرين.

ثم جرى العمل على تطهير وزارة العدل، واقرار قوانين القضاء الإسلامي فيها، وتعيين القضاة المسلمين الملتزمين، وأقرّ الدستور تشكيل مجلس قضاء أعلى يرأسه فقيه مجتهد عادل، يعينه ولي أمر المسلمين، وهكذا الأمر بالنسبة للإدعاء العام. ويدرس مجلس الشورى الإسلامي حالياً مسألة إلحاق المحاكم الثورية بوزارة العدل، لتسير أجهزة القضاء في خطى منسجمة موحدة نحو تطبيق هذا الجزء الهام من أنظمة الإسلام الخالدة.

و في الحقل العسكري:

اتجهت الثورة الإسلامية نحو إزالة تبعية الجيش على الصعيد الفني والثقافي لعالم المستعمرين. فطردت الآف الخبراء العسكريين الأجانب الذين كانوا متغلغلين في جميع أوساط القوات المسلحة الإيرانية للتجسس ولتعميق

التبعيّـة. واقصـت الـرؤوس العسـكرية الخائنـة الـتي كانـت مسـؤولة عـن دفـع الجيش نحو خدمة المصالح الإستعمارية ومقاومة تحرّك الشعب.

و جرت عمليات واسعة لتربية الجيش علـى المفـاهيم الإسـلامية وخلـق روح الإستشـهاد في سـبيل الله، وروح الـدفاع عـن حيـاض الإسـلام، في نفـوس أبنـاء القوات المسلحة.

كما أبعد جيش الجمهورية الإسلامية عـن ممارسـة دور الـدركي في المنطقـة ودور ضرب الحركات التحررية، كما كان عليه في العهد الشاهنشاهي البائد.

و بذلت جهود واسعة لازالـة الثقافـة الشاهنشـاهية الإسـتعمارية في أوسـاط الجيش والقضاء على التصورات القومية الضـيقة الـتي فرضـها عليـه نظـام الطـاغوت، ولتبديلـها بثقافـة اسـلامية متفتحـة متطلعـة الى تحريـر الأراضـي الإسـلامية المغتصـبة ونصـرة المظلـومين المستضعفين في كل مكان.

و اهـم مـن هـذا كلّـه أُنيطـت مهمـة القيـادة العليـا للجـيش ـ وفـق الدسـتور الإسـلامي ـ الى وليّ أمـر المسـلمين، الفقيه العادل التقي الكفوء القائد.

و بذلك أصبحت كل تحركات الجيش تجـري ضـمن معـايير إسـلامية وتحـت قيادة إسلامية.

هـذا التحـوّل مـن الجاهليـة الى الإسـلام وفَـر الارضـية اللازمـة لعـودة التجربة الإسلامية من جديد في إيران. فـبرزت قـدرة الإسـلام الإعجازيـة في المجالات المختلفة.

و لا يخفـى عـى كـل مسـلم ان هـذه التجربة الإسلامية في ايران ليست ملكاً لشعب ولا لقوم بل هي ملك للمسلمين جميعاً، لا في عصرنا هذا حسب، بل في جميع العصور، لانها وثيقة تثبت بما لا

يقبل الشك قدرة الاسلام على إنقاذ العالم عامة والأمة الإسلامية خاصة من الظلم والفساد والإنحراف والوصول بسفينة البشرية التائهة في محيط الجاهلية المظلم المتلاطم الى ساحل النجاة.

الحواشي

١ـ منابع القدرة في الدولة، الإمام الشهيد الصدر

٢ـ راجع: خلافة الانسان وشهادة الأنبياء، الامام الشهيد الصدر.

٣ـ منابع القدرة..... الامام الشهيد الصدر

٤ـ منابع القدرة، الإمام الشهيد الصدر.

٥ـ مسائل النظام والثورة

٦ـ راجع مقدمة ـ اقتصادنا ـ الامام الشهيد الصدر

الأستاذ الدكتور حازم محمد عتلم

أستاذ و رئيس قسم القانون الدولي العام في كلية الحقوق في جامعة عين شمس، و الوكيل السابق للكلية لشؤون الدراسات العليا و لشؤون خدمة المجتمع، من مصر.

العنف التكفيري من منظور القانون الدولي

مقدمة

من المعلوم أن تحليل أي ظاهرة إجتماعية ــ وهذا شأن الجماعات التكفيرية وجماعات العنف التكفيري موضوع هذه الدراسة ــ يتطلّب ابتداءً تحديد ماهيتها ؛ أي المقصود منها وعناصرها. غير أننا سوف نتجاوز ـ عن قصد الإنصراف إلى ذلك، لما قد سوف يرتبه مثل هذا التحديد لمصطلح الجماعات التكفيرية وقيرنتها جماعات العنف التكفيري من إسقاط احتمالي حينذاك ـ عند بعض ـ على جماعات بذاتها قد يُرى في عقيدتهم انصرافها على الرغم من ذلك إلى هذه أو تلك من التنظيمات المستظلة بالشرعية القانونية وفقاً للمفهوم الدقيق لهذا الاصطلاح.

و أيًّا ما كان عليه الأمر في هذا الشأن، فمن الجدير بالذكر هنا أنّ الانصراف إلى تحليل موقف القانون الدولي من ظاهرتي الجماعات التكفيرية، وجماعات العنف التكفيري يتمخّض ـ ابتداءً ـ عن تمحيص للظاهرة ذاتها، بالنظر إلى أن الجماعات التكفيرية ـ حين قيامها– تعدّ في غير شك الإرهاصة الأولى لتمخّضها، اللاحق والمبكر، عن جماعات للعنف بل ومن جانب آخر، فإنه من المعلوم كذلك أن تحليل هذه الظاهرة لا يرتب البتّة ـ في ذاته ـ إحداث الإلتصاق بالضرورة لها مع جماعات العنف السياسي القائمة داخل بعضٍ من الدول الإسلامية، بالنظر إلى توغلها السابق على ذلك داخل التنظير الصهيوني من جانب، وداخل التنظيرات الغربية للصهيونية غير اليهودية، من جانب آخر ؛ وإن كانت هذه الورقة البحثية سوف تنصرف فحسب إلى ظاهرة جماعات العنف التكفيري الإسلامية وحدها.

و من الجدير بالذكر في هذا الشأن أن الجماعات التكفيرية إذا كان وجودها ـ في ذاته ـ يرتّب التهديد الحالي للسلم والأمن الدوليين وللتعايش السلمي داخل الدول وبينها، إلا أن تحليل موقف القانون الدولي إزاءها يثير ابتداءً– على نحو ما سوف نرى الآن ـ إشكالية منهجية جد حادة ليس مردها انتهاك هذه الجماعات لثوابت المجتمع الدولي ووعيها من ثم بانتهاكها للمحظور ((وفقاً لمبادئ الشرعية الدولية))، وإنما مردها بصفة خاصة إلى ((إنكارها)) ـ من البداية ـ المشروعية القانونية لهذه المبادئ غير المهيئة لجعل هذه الجماعات منضوية تحت رايتها وحيثياتها ؛ إذ ذلك التحليل هو ذاته الذي كان قد ساقه في الأزمنة السالفة وإن جيء ذلك

في سياق متباين الفقه الدولي المُنكر للطابع الملزم لقواعد القانون الدولي، والذي كان قد أذكى في هذا الشأن علو الأنظمة القانونية الداخلية على القانون الدولي العام. ولعل هذا العلو منه قبل هذه التنظيمات التكفيرية لمفترضاتها الشرعية غير المسندة إلا استثناء لنصوص القرآن الكريم والسنّة النبوية - سواء حال لجوئها إلى العنف المسلّح أو غير المسلّح - هو ما سوف يهيئ هنا لتحليل هذه الأزمة الحادة ((للحوار المستحيل)) التي تمثّل إلى الآن صمام الدفاع الأمني الأول الذي تلوذ به في هذا الشأن هذه الأخيرة ؛ بل إنه لسوف يتهيأ لنا كذلك هنا أن نستحث التأمل في قدر التوافق القائم في هذا الشأن بين أطروحات هذه الجماعات والأطروحات التي ذكّتها - قبلها- جماعات العنف الصهيونية ذاتها.

أولاً: إنكار مبدأ سيادة الدولة

من المعلوم أن مبدأ سيادة الدول، ولو في حيثياته التي قامت داخل القانون الدولي التقليدي، ينصرف ابتداءً إلى ضمان استقلال الدولة في إدارة شؤونها الداخلية والدولية، وفي ضمان اختصاصاتها المادية والإقليمية والشخصية عن الخضوع للدول الأخرى، وخضوعها من ثم فحسب للقواعد المتفق عليها من قبلها - ولو على الصعيد الشكلي المجرد وحده - مع الدول الأخرى. غير أن الجماعات التكفيرية الإسلامية - في ما يعنينا هنا - وقد صارت إلى إذكاء الالتحام مع النظريات الفقهية غير المسندة إلى مبادئ الشرعية الإسلامية، والمستحثة لتقسيم المعمورة إلى ثنائية دار الإسلام ودار الحرب[1]، فقد رتّبت على ذلك إنكار قيام كل من مبدأ الحرمة الإقليمية للدول داخل حدودها السياسية القائمة،

واستقلالها في مواجهة الدول الأخرى.

إذاً دار الإسلام وفقاً لهذا التظير ليس من شأنه أن يرتب إضفاء الشرعية الدولية على العدوان ذاته فحسب على نحو ما سوف نرى بعد قليل، وإنما يرتب إفراغ القانون الدولي من حيثيته الأولى المفترضة، أي استناده إلى وجود دول متعددة مستقلة في سيادتها بعضها عن بعضها الآخر، ومتكافئة في السيادة في ما بينها في غير اعتبار لتباين حضارتها وثقافتها. فالواقع أن المقدمة التحليلية لهذه الجماعات التكفيرية، ولم لم تكن بعد قد شحذت اللجوء إلى العنف، تتصرف إلى استحثاث إعلاء هامة ((الوحدة القسرية للمجتمع الدولي داخل المنظومة المنسوبة من قبلها إلى الإسلام في شأن إذكاء ((الحرب العادلة)) في مواجهة الديار غير الإسلامية، وإلى حين الانغلاق، بعيداً عنها بالتأسيس كذلك على حتمية عدم إحداث التعاون الدولي معها إلا في ظل الخضوع إلى افتراضاتها الذاتية.

و إذا كان هذا لسان حال هذه الجماعات إزاء المعمورة غير الإسلامية، ففي الواقع أن ذات هذا التحليل لا يتباين كثيراً حال تنظيرها لطبيعة العلاقات القانونية المفترض شحذها من قبلها داخل النسيج الوطني لكل من الدول ذات السيادة التي تنسب إليها كل من هذه الجماعات بجنسياتها المتباينة ؛ إذ هذه الأخيرة ينهض تحليلها التكفيري إلى الإنطباق كذلك ومن جانب آخر، في مواجهة ذات دولها الوطنية، وفي إطار صفة خاصة علاقاتها بالمؤسسات الرسمية لهذه الدول ؛ وسواء في ذلك المؤسسية أو التشريعية أو التنفيذية أو القضائية[٢]؛ إذ التحليل ذاته لعلاقاتها القانونية مع دولها الوطنية.

فالسيادة داخل دار الإسلام والديار

الإسلامية لا تتصر إلى الشخص الاعتباري الموسوم بالدولة التي تلتصق بها هذه السيادة، وإنما إلى الله تعالى وحده، وهو الوضع المرتب لشرعنة لجوئها إلى العنف في سائر صوره إزاء هذه السلطات كلما جنحت عن إذكاء حيثياتها النظرية، وإلى حين إنكار قيامها وإنكار الخضوع، من ثم إلى ما تفرزه هذه السلطات من مفترضات الانصهار داخل منظومة مقتضيات ضمان النظام العام داخلها. فهذا التنظير يرتب إذن هنا إضفاء ((المشروعية القانونية)) وفقاً لمنظورها على ممارساته المقوضة لسيادة دولها، والمرتبة من ثم للهدم الاحتمالي لها، بغية ((إعادة بعث)) الدولة الإسلامية لصدر الإسلام، وهو تحليل يستحيل ترتّبه بحسب المنطق العلمي بالنظر من جانب، إلى إنكار نظم العلاقات الدولية لنظرية بعث الدول التي شذت عنها دولة موسومة بفاكهة الشرق الأوسط، ومن جانب آخر، بالنظر إلى استحالة انصهار النظرية السياسية الإسلامية ذاتها على نحو ما سوف نرى داخل مؤديات نظرية الدولة في مفهومها المعاصر.

ثانياً: إنكار مبدأ الدولة المدنية

و من نافلة القول إن مبدأ الدولة المدنية، ولو في ظل القانون الدولي التقليدي المسند إلى أنظمة الحكم الملكية الشمولية، كانت حيثياته تسند إلى استقلال السلطة السياسية داخل كل من الدول الأوروبية عن الخضوع للسلطان السياسي للكنيسة الكاثوليكية. ومن الجدير بالذكر هنا أن ((النظرية)) السياسية الإسلامية في شأن تقسيم المعمورة، وبحق على نحو مسند لأول وهلة إلى ثلاثية دار الإسلام ودار العهد ودار الحرب لم ترتكز البتة في وجودها

إلى الحيثيات الدينية، وإنما بصفة خاصة إلى الملاءات التاريخية السياسية المسندة، أو غير المسندة إلى مبدأ الشورى الذي أعلت هامته الشريعة الإسلامية الغراء.

غير أن الجماعات التكفيرية تذكي أطروحاتها النظرية على العكس من ذلك ؛ ضرورة إخضاع نظام الحكم داخل مجتمعاتها إلى حيثيات شحذ حكومة قضاة أهل الحل والعقد[٣]، المُعدّين كذلك اختياراً أو قسراً من قبلها ؛ إذ إن الدول الدينية ــ ولو تجاوزنا هنا حين توسيم المجتمع السياسي الإسلامي بالظاهرة القانونية للدولة في مفهومها الحديث– لا تُسند البتة إلى النظرية القانونية للإسلام ؛ إذ ذلك مردّه هنا من جانب الالتحام العضوي لنظرية الدولة داخل القانون الدولي العام مع نظرية الجنسية غير المعهودة في النظرية السياسية الإسلامية، بل مرده كذلك من جانب آخر، إلى انصراف مفهوم الدولة المدنية إلى الالتصاق فحسب بالتطور التاريخي السياسي الأُوروبي ذاته منذ عصر النهضة، وخلافاً لما قامت قائمته في الديار الإسلامية قاطبة.

ثالثاً: إنكار مبدأ القوميات في مفهوم القانوني

و من المعلوم كذلك أن مبدأ القوميات الذي أسندت إليه في الممارسات الدولية كل من الملكيات الأوروبية منذ القرن السابع عشر بغية إحقاق الوحدة السياسية لكل منها ما لبث أن شيّد صرحه النظري في القانون الوضعي المعاصر الإيطالي مانسيني في القرن التاسع عشر لأغراض التأسيس النظري لهذه الغاية ذاتها في شأن تحقيق الوحدة الإيطالية. وهو الوضع الذي رتّب في هذا الشأن البزوغ المعاصر لكل من مبدأ الجنسية في مفهومه

القانوني المسند إلى الانصهار السياسي للجماعة الوطنية داخل دولة الجنسية، ومبدأ لقوميات المسند إلى الالتحام الاجتماعي والسياسي للجماعة الوطنية داخل الغلاف السيادي لدولة واحدة تنضوي داخلها هذه الأخيرة بجنسية مشتركة.

غير أن حيثيات الجماعات التكفيرية إذ صارت هنا كذلك إلى إفراغ العروة الوثقى القائمة بين كل من مبدإ الجنسية ومبدإ القوميات[٤]، صارت من ثم إلى عقد لواء الاعتماد المتبادل بين هذا الأخير، وبين المفهوم النظري غر المسند إلى النظرية الإسلامية لكل من دار الإسلام ودار الحرب. وقد رتّب ذلك هنا أن أسندت كذلك من خلاله هذه الجماعات تقسيمها الثنائي للمعمورة إلى مبدإ القوميات وحده من حيث عدّها المجتمعات الإسلامية في مجملها وحدة سياسية وقانونية واحدة مسندة فحسب إلى ((القومية الإسلامية)). ومن نافلة القول إن مبدأ القوميات، في مفهومه المعاصر، يرتّب في ذاته عدم التطابق الضروري بين الالتحام القانوني لهذا الأخير مع بمدإ الجنسية في حق الجماعة الوطنية ذاتها ؛ وإن توحدت تاريخياً حضارتها السياسية أو الإجتماعية أو القانونية، بالنظر إلى ارتكاز مفهوم الجماعة الوطنية إلى مبدإ الجنسية وحدة.

فمهوم القومية الإسلامية وإن أسند تحليله في هذا الشأن إلى الوحدة الدينية القائمة داخل المعمورة الإسلامية، أغفل في غير شك التباين التاريخي والحضاري والسياسي والقانوني والاجتماعي والثقافي، بل والأماني السياسية المتباينة القائمة على الرغم من ذلك داخل كل من الجماعات الوطنية الإسلامية وإن التحمت معًا في ظل راية المنظومة السياسية الفقهية

لدراسة الإسلام.

فنظرية القومية الإسلامية التي أنكر قيامها داخل التاريخ السياسي الإسلامي يستحيل كذلك تحققها داخل السياج القانوني للمجتمعات السياسية الإسلامية ذاتها، وعلى ذات النحو الذي ترتب من ذي قبل داخل مجمل الأنظمة السياسية التي شحذت الإذابة ـ القسرية- للحدود السياسية بين الدول بالإسناد فحسب إلى الالتحام الاجتماعي بينها ؛ إذ الانصهار القانوني بين المجتمعات الإسلامية لا ولن يمكن البتة تصوره على هذا النحو ؛ اللهم إلا إذا ما ترتب- طوعًا وداخل نظم القانون الدولي الوضعي- في ضوء الإستعارة النظرية تجاوزاً لمفهوم الدولة الكونفدرالية[٥] المتطلب في الأزمنة المعاصرة انصهارها بين المنظمات الدولية الإقليمية الخاضعة بالضرورة لأهداف ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة، وهو التحليل الذي تناهضه في غير شك المقومات التحليلية للجماعات التكفيرية ليس فحسب بالنظر إلى إنكارها كل من مبدإ سيادة الدول والمساواة في السيادة بينها (المادة ١/٢ من ميثاق الأمم المتحدة)، فضلاً عن إنكار مبدإ الدولة المدنية، بل وعدم استنادها الضروري لمبدإ الجنسية إلى نظرة القوميات على نحو ما تقدم، وإنما كذلك بالنظر إلى إنكار هذه الجماعات للقواعد الآمرة الأخرى المنضمة داخل ميثاق الأمم المتحدة على نحو ما سوف نرى الآن.

رابعاً: إنكار القواعد الآمرة الأخرى للقانون الدولي المضمنة داخل ميثاق الأمم المتحدة

و من المعلوم أن مبدأ سيادة الدول وقرينه مبدأ المساواة في السيادة بينها لم تصر حيثياته إلى عدم التوافق مع المعتقدات النظرية لهذه الجماعات فحسب ؛ إذ إن القواعد الآمرة الأخرى

للقانون الدولي المعاصر ترتكز كذلك بالامتياز بحسب المادتين الأولى والثانية من ميثاق الأمم المتحدة إلى كل من مبدإ حظر استخدام القوة في العلاقات الدولية من جانب، وإلى ضمان حق الشعوب سواء الخاضعة للاستعمار أو المستظلة بدولها الوطنية في تقرير المصير من جانب آخر، فضلاً عن الضمان داخل كلٍّ منها وعلى نحو متكافئ للحقوق الآساسية للإنسان في غير تمييز، وفي إطار الالتحام لإنفاذ مجمل هذه الأهداف والمبادئ مع مبدإ التعاون الدولي، الذي عهد ميثاق الأمم المتحدة ذاته للمنظمة العالمية الأمم بإدارة منظوميته التشريعية والرقابية.

و من نافلة القوم إنه يصعب ابتداءً إحداث التوافق بين هذه القواعد الآمرة للقانون الدولي مع المنظومة التحليلية لجماعات العنف التكفيري ؛ إذ من جانب، فإن مبدأ حظر التهديد باستخدام القوة المسلحة أو استخدامها الحال في العلاقات الدولية يصعب في غير شك انصهاره داخل الافتراضات النظرية لهذه الجماعات المسند تحليلها إلى ذات التقسيم الثنائي للمعمورة المرتّب لدى هذه الجماعات إسباغ المشروعية القانونية ـ بل وفرض العين ـ على ((الحرب العادلة للجهاد الإسلامي))[٦] ذاته في مواجهة مجمل المعمورة غير الإسلامية.

و من جانب آخر، فمبدأ حق الشعوب في تقرير المصير إذا كان على هذا النحو يستحيل إنفاذه في حق شعوب الديار غير الإسلامية وفقاً لهذا المنظور، فإنه يصعب كذلك انصهاره في إطار هذا المنظور ذاته داخل المعمورة الإسلامية ذاتها ـ القومية الإسلامية في مجملها ــ كلها لم تصر سلطاتها السياسية ذاتها إلى الاستحثاث الفاعل لتشييد صرح الدولة الدينية الإسلامية

داخل مجتمعاتها. فهذا الوضع يرتب من ثم التهيئة كذلك لهذه الجماعات للّجوء إلى استحثاث الحق المشروع لها في فرض تأسيس الدولة الدينية ـ ولو قسرّا ـ داخل إقليمها، وفي غير اعتبار من قبلها لمبدإ السيادة الشعبية[٧] ؛ إذ العنف المسلح الذي تذكيه الحرب العادلة المقدسة في مواجهة الأماني المشروعة ((لأغيار)) يصير من ثم مؤسساً في مواجهة الأماني المشروعة لشعوب الديار غير الإسلامية، والديار الإسلامية في غير تمييز.

و من جانب ثالث، فإن هذا التحليل ذاته ينطبق كذلك هنا في إطار هذا المنظور حال انصراف هذه الجماعات إلى تحليل المجال الشخصي ؛ لإنفاذ الحقوق الأساسية للإنسان ؛ إذ في إطار هذا التنظير، فإنه من غير المتصور كفالة حقوق الإنسان وضمانها إلا من خلال إحداث عدم التكافؤ في شأن إنفاذه إلا بالارتكاز على التمييز على أساس من العقيدة الدينية، وعلى أساس من التمييز كذلك بين الرجال والنساء، بل والأطفال ذاتهم[٨].

خامساً: إنكار القاعدة الآمرة للقانون الدولي الإنساني

في الحقيقة إن هذا التنظير من قبل هذه الجماعات لماهية الحرب العادلة رتّب أيضاً من جهة أخرى، إضفاء الشرعية القانونية من قبلها على نظرية الحرب الشاملة[٩] الذي كان قد أعلى هامتها داخل الفقه الغربي في القرن التاسع عشر الألماني كلاوزفيتز. وإذا كان لم يخرج عن حدود هذه الدراسة تحليل مبادئ القانون الدولي، أو النزاعات المسلحة غير ذات الطابع الدولي لأغراض إضفاء الحد الأدنى من مقتضيات الإنسانية حال إدارتها بين الخصوم، فإنه لما يترتب هنا لي لإذكاء هذا المفهوم للحرب العادلة أن يستتبع

إطلاق العنان ((للجهاد)) الإسلامي في مواجهة خصومه الداخليين والدوليين من خلال منهاجية الحرب الشاملة، وفي غير خضوع من ثم لمبادئ القانون الدولي الإنساني ـ وعلى سبيل المثال وليس الحصر ـ في شأن التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين، وتقييد حرية الخصوم في استخدام أسلحة القتال، وحظر تجنيد المرتزقة، وحظر انتهاك الحرمة المطلقة للمدنيين والأعيان المدنية...

سادساً: إنكار التجريم الدولي للإنتهاكات الجسيمة لقواعد الآمرة الوضعية الدولية كلما صدرت عن جماعات العنف التكفيري

و من المعلوم أن الكثير من الأفعال غير المشروعة الصادرة عن الأفراد تعدّ جرائم دولية بحسب قواعد القانون الدولي ذاته، وليس فحسب بالإسناد إلى التشريعات الداخلية للدول ومنها الدول الإسلامية ذاتها، بالنظر إلى تعددها بين الانتهاكات الجسيمة لأمن وسلامة الجماعة الدولية في مجملها. وهي على هذا النحو ترتب حين الإخلال بها المساءلة الدولية لمقترفيها ولو صاروا مسؤولين قياديين للدول، بالتأسيس على مبدإ الاختصاص الجنائي العالمي.

و من نافلة القول إن الكثير من الجرائم الصادرة عن الجماعات التكفيرية، سواء حين لجوئها إلى العنف المسلّح أو قبله أو في أثره، تنضوي تحت لواء الكثير من هذه الجرائم الدولية الأشد خطورة ؛ إذ هذا شأن جرائم الإرهاب الدولي، وجرائم غسل الأموال، وجرائم تمويل الإرهاب، والجرائم المنظمة عبر الدول، وجرائم الحرب، وجريمة العدوان، والجرائم ضد الإنسانية، وجرائم التدخل غير المشروع في النزاعات المسلحة الدولية وغير ذات الطابع الدولي، وجرائم التدخل

العسكري أو شبه العسكري بمناسبة مثل هذه النزاعات، وانتهاك الحرمة الإقليمية للدول، وجرائم التمييز العنصري، وانتهاك الحقوق الأساسية للإنسان، والتمييز ضد المرأة، وانتهاك حقوق الطفل، وجرائم تجنيد المرتزقة، والانتهاكات الجسيمة لمبادئ وقواعد القانون الدولي الإنساني.

غير أن الأزمة الحادة القائمة هنا بالنظر إلى إعلاء هذه الجماعات لتنظير الحرب العادلة من جانب، والحرب الشاملة من جانب آخر، يرتب في هذا الشأن عدّ هذه الممارسات الصادرة عنها ـ والمعدّة جرائم دولية وفقاً لمبادئ القانون الدولي المتفق عليها بين الدول– ((أفعالاً دولية مباحة)) بالتأسيس على منظورها الذاتي ؛ إذ ((القصد الخاص)) المتطلب وفقاً للقانون الجزائي الداخلي والدولي لاستيفاء الركن المعنوي للتجريم، سوف يستحيل هنا، في عقيدة جماعات العنف التكفيري نسبته إليها ؛ بالنظر إلى إحداثها الإنفصال المبرم والعضوي بين شريعتها العادلة، والشريعة الوضعية الداخلية والدولية للدول على حد سواء، وضمانها من ثم ـ على نحو ما تقدم ـ علو عدالتها الذاتية[١٠] في مواجهة العدالة الوضعية.

خاتمة الدراسة

لم تكن ـ لأول وهلة ـ الغاية من هذه الدراسة تحليل موقع أعمال العنف الصادرة عن الجماعات التكفيرية بالتأسيس على تمحيص التكييف القانوني لها في ضوء أحكام القانون الدولي ؛ إذ الانصراف ابتداءً إلى ذلك كان سوف يفترض عدّ تمحيص هذا التكيف بمثابة إشكالية منهاجية تتطلب الولوج إلى تمحيصها. غير أنه من الثابت ابتداءً– وهذه هنا تعد مقدمة

وضعية غير مشكوك فيها- إن الممارسات الصادرة عن هذه الجماعات تتمخض عن الانتهاك السافر والجسيم للقواعد الآمرة لهذا القانون ؛ بل وللقواعد نفسها الآمرة للنظام العام للدول التي تخضع لاختصاصها الشخصي كل من هذه الجماعات.

بل إنه لم تكن كذلك - لأول وهلة - الغاية من هذه الدراسة تحليل موقع ممارسات هذه الجماعات للعنف التكفيري داخل منظومة الشريعة الإسلامية الغراء ؛ إذ فضلاً عن أن تحليل التكييف القانوني لها وفقاً للمرجعية الإسلامية يخرج عن نطاق المحور التحليلي الذي انصرفت إليه هذه الورقة البحثية داخل هذه الندوة للمركز الاستشاري اللبناني للدراسات والتوثيق، فإنه من الثابت - كذلك - لكل من انصرف إلى تحليل نظم العلاقات الدولية في الإسلام، وبالإسناد إلى نصوص القرآن الكريم والسنّة النبوية وحدهما، لا يمكن شحذ أي منها - ولو من قبل المتخصصين بين المستشرقين الغربيين المعاصرين - لأغراض تأسيس مشروعية أعمال الترويع والعنف المسلّح وغير المسلّح الصادرة عن هذه الجماعات.

بل وفي شأن البحث عن تأسيس شرعية أحكام القانون الوضعي الدولي والداخلي على حد سواء، فإنه من نافلة القول من جانب آخر، أن المرجعية الإسلامية لا - ولن- تمثّل البتة المصدر الشكلي الرئيسي لقواعد القانون الدولي - وإن انصرفت عن أحد مصادرة التبعية الاحتياطية على نحو ما سوف نرى - بالنظر إلى تأسيس الطابع الملزم لقواعده على ارتضاء الدول، وفي غير اعتبار لتباين حضارتها القانونية والثقافية والإجتماعية ؛ خلافاً لما كان عليه الوضع في ظل القانون الدولي التقليدي.

فالواقع أن البؤرة الرئيسية التحليلية

لهذه الورقة البحثية صارت ـ بادئ ذي بدء ـ إلى سبر أغار التحليل النظري– إن صح تجاوزاً استخدام هذا المصطلح هنا ــ الذي تبنّته جماعات العنف التكفيري في شأن التأكيد على المشروعية الدينية لإهدارها في شأن التأكيد على المشروعية الدينية لإصدارها الفج ـ وعن وعي ـ للقواعد الآمرة للقانون الدولي:

١– أُسند بادئ ذي بدء تحليل جماعات العنف التكفيري المشروعية القانونية لإهدارها الفج للقواعد الآمرة للقانون الدولي وللأنظمة القانونية الداخلية للدول إلى إذكائها علو التنظير التكفيري على هذه الثوابت للنظام العام الدولي والداخلي للدول في غير تمييز على النحو الضامن تنحية هذه الأخيرة كلما اصطدمت مع مقدمتها التنظيرية.

إذ هذا التحليل المرتب في غير شك إنكار الطابع الملزم لقواعد القانون الدولي الوضعي المتوافق عليها بين الدول رتب هنا ـ كذلك ـ بث النظريات التي سادت ما بين القرن السابع عشر والقرن التاسع عشر لدى جانب من الفقه الدولي، الذي كان قد أنكر الطابع الملزم للقواعد الارتضائية لهذا القانون كلما تعارضت مع الأنظمة القانونية الداخلية لها.

٢– إن تحليل الجماعات التكفيرية لعلو افتراضاتها النظرية الدينية ـ ولو جاز التجاوز هنا حال استخدام هذه العبارة ـ رتب من جانب آخر، بعث هذه الجماعات لنظريات القانون الطبيعي التي كانت قد أسندت فحسب الطابع الملزم لقواعد القانون الوضعي إلى توافقها مع قواعد القانون الطبيعي المضمون لها من ثم العلو على الأولى حال عدم التوافق بينها. ولا مراء في أن إسناد الطبع الملزم لقواعد القانون الوضعي في مجملها ـ وفي إطار القانون

الدولي والأنظمة القانونية الداخلية للدول في غير تمييز ـ إلى القانون الطبيعي فضلاً عن أنه يرتب التباين الحاد بين الدول في تحديد كنهه وماهيته، فإنه يغفل كذلك إسناد الطابع الملزم لقواعد القانون الوضعي ـ حال اعتمادها وحال إنفاذها في غير تمييز ـ إلى الترتيب الطبقي القائم داخل كل من المجتمع الدولي والمجتمعات الداخلية للدول بين أشخاصها، ودونما إغفال لاستحالة انصهار العنف التكفيري داخل منظومة القيم الأدبية لمدارس القانون الطبيعي التي تقع بينها الشريعة الإسلامية الغراء ذاتها.

٣- إن مجمل التنظير الذي ساقته جماعات العنف التكفيري استبقها إليه من جانب، إبان المرحلة الثانية العصور الوسطى منظرو الحروب الصليبية وبصفة خاصة منذ القرن التاسع عشر وإلى الآن منظرو الصهيونية العالمية في شأن التهجير القصري للشعب الفلسطيني من وطنه التاريخي، وفي شأن تعضيد قيام الدولة اليهودية داخل الإقليم الفلسطيني في مجمله. وهو وضع من شأنه يثير ـ في الحقيقة ـ التساؤل في شأن مدى قيام ثمة توافق واعتماد متبادل بين العنف التكفيري الصهيوني والإسرائيلي، والعنف التكفيري للجماعات موضوع هذه الدراسة.

٤- إن حقيقة إقصاء شعوب دول العالم الثالث عن المشاركة التكافئة في صناعة قواعد القانون الدولي في إطار التقسيم الدولي غير المتكافئ للعمل ؛ بل وإقصاء هذه الشعوب ذاتها داخل دولها من قبل حكوماتها عن التمتع بالحقوق الأساسية للإنسان ـ وبصفة خاصة في ما يعنينا هنا ـ الحق في التعليم والغذاء والتعبير السلمي عن الرأي، والعقيدة من خلال إذكاء هذه الحكومات ذاتها للتقسيم الداخلي غير التكافئ للعمل في مواجهة

شعوبها لا يمكن البتة عزله حين تحليل الأسباب الكامنة وراء تعاظم أطروحات جماعات العنف التكفيري. ولعله من الجدير بالتذكير في هذا الشأن، أن بين منظري هذه الجماعات من صاروا إلى ذلك فحسب منذ ((استضافتهم)) في غياهب المعتقلات المودع داخلها مرتكبو ((جرائم)) التعبير السلمي عن العقيدة والرأي، إذ لا يستغرب من ثم هنا أن أحد رواد التنظير التكفيري ـ السيد سابق– قد صار إلى إصدار مؤلفه ذائع الصيت ((الفريضة الغائبة)) داخل هذه المعتقلات، وقبل توقيع عقوبة الإعدام عليه.

٥– وأخيرًا وليس آخرًا، فإنه من الجدير كذلك بالذكر أن منظري العنف التكفيري ـ الذي يستحيل توطينه إلا خارج منظومة التاريخ ـ قد أغفل، وبالتأسيس على هذا التوطين الزماني له، حقيقة اصراف مبادئ الشريعة الإسلامية السمحاء والغراء داخلها ؛ بين المصادر الشكلية التكميلية الي تفرغ داخلها القواعد السلوكية الملزمة للقانون الدولي. ونقصد بذلك هنا ((المبادئ العامة للقانون)) الثابتة ـ على نحو مشترك ـ بين الحضارات القانونية الرئيسية الداخلية للدول ؛ إذ هذه الحضارات ـ التي يقع داخلها كل من النظام القانوني للـ *Kemen Law*، والنظام القانوني الماركسي والنظام القانوني لدول الشرق الأقصى... – تتبوأ كذلك داخلها وعلى نحو متكافئ بمادئ الشريعة الإسلامية ذاتها التي جيء فضلاً عن ذلك إسناد أحكام القضاء الدولي إلى مبادئها وقواعدها بمناسبة المنازعات التي انصرفت بين أطرافها إحدى الدول الإسلامية.

الهوامش

١. انظر تحليل هذا الرأي في: الشيباني، السير، تحقيق: مجيد خدوري، بيروت دار المتحدة للنشر، ص ٢٠، و ما بعدها؛ حازم محمد عتلم، قانون النزاعات المسلحة الدولي، دار النهضة العربية، ط ٣، القاهرة، ٢٩١٤، ص ٥٥، و ما بعدها؛ انظر كذلك محي الدين قاسم، التقسيم الإسلامي للمعمورة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٩٧، و ما بعدها.

٢. انظر في تحليل هذا الرأي: عز الدين فودة، ((فكرة السيادة في الدولة الإسلامية: نظرة على الفقهين الحنفي و الشافعي))، مجلة: مصر المعاصرة،الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي و الإحصاء و التشريع، عدد يوليو ١٩٧٠، ص ٥٨٦، و ما بعدها.

٣. انظر في تحليل هذا الرأي: علي عبد الرزاق، الإسلام و أصول الحكم، القاهرة، ١٩٢٥، ص ١١، و ما بعدها.

٤. المصدر نفسه، ص ٥٨١ و ما بعدها.

٥. انظر: حازم محمد عتلم، منظمة الأمم المتحدة في ضوء النظرية العامة للمنظمات الدولية، دار النهضة العربية، ط٣، القاهرة، ٢٠١٤، ص ٥٥ و ما بعدها.

٦. محي الدين قاسم، التقسيم الإسلامي للمعمورة، ص ١١٩ و ما بعدها.

٧- علي عبد الرزاق، الإسلام و أصول الحكم، ص ١٨ و ما بعدها.

٨. انظر في تحليل هذا الرأي: محمد محمد فرحات، مبادئ العلاقات الدولية في الشريعة الإسلامية، دار النهضة العربية، ١٩٩٢، ص ١٥و ما بعدها.

٩. المصدر نفسه، ص ١١٥ و ما بعدها.

١٠. الشيباني، السير، ص ٢٧ — ٢٨.

أ.د نذير الحسنى
استاذ الدرات العليا في جامعة آل البيت عليهم السلام

أساليب النظرية التربوية في القرآن (المسجد والإعلام والمكتبات أنموذجاً)

يحتل المسجد دوراً مهماً في حياة المسلمين، فهو الجامعة التي يتعلم الإنسان فيها أصول العبادة، ومنارة يتزود منها لتحصيل نور العلم والمعرفة، ومكاناً للقضاء والصلح وعقد المعاهدات، ومحلاً لشحذ همم الألوية والقطعات المتوجهة إلى القتال، وقبل كل هذا وذاك فهو ملاذ للحائرين، وملجأ للتائبين، وموطن لتزكية النفوس، وطمأنة القلوب، يقول الحق تعالى: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1]، فجعل الله الأمن والأمان واستقرار القلوب وسكونها بذكر الله سبحانه وتعالى، الذي هو شغل العابدين في بيوت الله، يقول عزّ من قائل: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾[2]، ولهذا أمر الله تعالى تشييده بالعمل الصالح عن طريق الطاهرين والصادقين الذين لا يخافون ولا يخشون إلا الله، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ

مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الأَخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[٣] ، ومن هنا انطلق الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله ليركز على دور المساجد، فقام ببناء أول مسجد بعد هجرته من مكة إلى المدينة وهو مسجد قبا[٤] ، ليجعله محط أنظار المسلمين، وقبلة قلوب المؤمنين، فالمسجد في النظرية التربوية الإسلامية يحتل أهمية كبرى ودور عظيم في بناء الإنسان والمجتمع على حد سواء، فهو ميدان العلم والتطبيق، يتعلم فيه المسلم عبادة الله الواحد الأحد، وكيفية إطاعته، واحترام مكونات المجتمع من خلال حرمة دمائهم وأعراضهم وأملاكهم وحقوقهم المادية والمعنوية، ثم تبدأ عملية التطبيق في داخل ذلك المكان المقدس الذي هو موضع احترام الجميع من خلال الطقوس والعبادات والتجمعات والحركات التي تحدث في داخله، ولهذا لم يكن المسجد مكاناً لأداء الصلاة فحسب، وإنما هو الموجه لبناء المجتمع سواء من خلال المنبر أم حلقات العلم والدرس أم الأحداث التي تجري داخله ؛ لأن الفرصة فيه مُهيئة للاجتماع والتعارف، وتقوية الروابط الأخوية بين المسلمين، فالصلاة هي في الحقيقة شحنة روحية هائلة ودرس أخلاقي واجتماعي ونفسي يدفع الإنسان إلى الطريق الأفضل في حياته وعلاقاته مع الآخرين بسلوك يتسامى ويتعالى ؛ لأنه يستمد توجيهه من التربية الإسلامية، وعلى هذا فقد كان للمسجد أدوار متعددة في عصر النبي صلّى الله عليه وآله، من خلال بناء الإنسان علمياً، وعملياً، وتربوياً على المستويات المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولا سيّما أن البناء الحضاري يحتاج إلى المكان والمفكر

والنظرية، ولهذا تخوف الإمام الصادق على المجتمع الإسلامي من ثلاث فيما إذا تم هجرهم وهم على حد تعبير الإمام عليه السلام: « ثلاثة يشكون إلى الله عزّ وجلّ: مسجد خراب لا يصلي فيه أهله، عالم بين جهال، ومصحف معلق قد وقع عليه غبار لا يقرأ فيه »[٥] ، فالمسجد هو المكان الذي ينطلق منه الإنسان الحضاري، والعالم هو المفكر الذي تتجسد في شخصيته حقائق العلم، والمصحف هو النظرية والخزين العلمي المستمر لتحقيق النهوض الحضاري المنشود، وتأكيداً لدور المكان في النهوض الحضاري انطلق الإمام الخميني من المساجد لبناء دولة الإسلام المحمدي الأصيل، يقول في ذلك « يجب أن تكون المساجد مراكز للتربية الصحيحة »[٦] ، ويُضيف قدّس سرّه قائلاً: « ينبغي أن تكون المساجد محالاً للتربية والتعليم بالمعنى الحقيقي وبجميع الأبعاد »[٧] ، فالمسجد بناءً على هذا الفكر هو تلك الأرض الخصبة الطيبة التي إن زرعنا فيها الإنسان اهتزت شجرته وربت، شجرة تتمسك جذورها بتربة المكان، تستقي منها لترتفع أغصانها، لتلامس السماء، أصلها ثابت وفرعها في السماء ؛ وعن الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله: « من أدمن إلى المسجد أصاب الخصال الثمانية: آية محكمة، أو فريضة مستعملة، أو سنة قائمة، أو علم مستطرف، أو أخ مستفاد، أو كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى، وترك الذنب خشية أو حياء »[٨] ؛ فإن أردت إنساناً صالحاً فيه هذه الخصال فازرعه في تربة صالحة زكية، يتربى عليها الإنسان وينمو فيها، ولا توجد أقدس وأطهر من المسجد الذي كان وما يزال حافظاً للإسلام ولوجوده يقول الإمام الخميني قدّس سرّه: « إن حفظ

المساجد من الأمور التي يعتمد عليها وجود الإسلام اليوم ».

أهمية المسجد ودور التربوي في بناء الحياة الإسلامية:

بيوت الله تسمية إلتصقت بالمساجد، وليس من الصدفة أن تقترن هذه التسمية بهذا الاسم المقدس في الحياة الإنسانية بنحوٍ عام، فهو موقع الطهارة الروحية، والتصفية من كل أدران الجسد المادي والروحي، فلا تجد بقعة من بقاع الأرض مطهرة من الأرجاس المادية، ووساوس الشياطين كما هي البقعة التي تتصف بصفة المسجدية، فهي مهد الإيمان ومنهل الصفاء، وهي السفينة التي تُنجي الإنسان من مشاكل الدنيا المادية والمعنوية، وهو المكان الذي يشعر فيه الإنسان أنه عزيز، يرتبط بقوة غيبية أكبر من كل قوى الأرض، فالنبي الأكرم صلّى الله عليه وآله افتتح حركته الرسالية لتشكيل دولة الإسلام الأولى من خلال وضع حجر الأساس لأول مسجد يعلن بصراحة بناء دولة منقذة للبشرية من وحل التخلف والانحطاط، فصار المسجد منذ ذلك الوقت منطلقاً لكل مَن أراد بناء دولة إسلامية بعيدة عن الأهواء الدنيويّة، والمؤثرات المصلحيّة، ومن هنا نجد الإمام الخميني قدّس سرّه أول ما شرع في بناء الدولة بدأ في إعادة المسجد إلى الواجهة من جديد، فقال قدّس سرّه: « أحيوا الثورة من خلال المساجد، التي تعتبر حصون الإسلام المنيعة »[9] ، وسر التركيز على هذا المكان لقدرته على تذويب كل الفوارق الطبقية والمصطنعة بين الناس، ولكونه مركزاً جامعاً لهم بمختلف طوائفهم وتوجهاتهم، ومن هنا جاء التركيز على التجمّع الوحدوي في تلك المواقع ؛ بل إن الروايات تحدثت عن عدم أكملية صلاة جار المسجد إلا فيه، ولا سيّما أن الجار

لا يتحدد بعدد من الدور، وما ذُكر من أرقام لتحديد ذلك ما هو إلا أمثلة، ولهذا نجد أمير المؤمنين عليه السلام يتحدث عن جار المسجد عندما سُئل وقيل له: « ومَن جار المسجد يا أمير المؤمنين ؟ قال: من سمع النداء »[١٠]، فكل مَن سمع نداء المسجد فهو جار له، يجب عليه أن يُلبّي ذلك، ويجتمع مع إخوانه فيه، لخلق ظاهرة اجتماعية تتكرر يومياً خمس مرات على الأقل، ولعل تجربة الإمام الخميني قدّس سرّه من التجارب الحديثة المعاصرة التي تؤكد بإن إستعادة المسجد لموقعيته معناه العودة إلى الإسلام المحمدي الأصيل من خلال تلك التجمعات الحاشدة التي ما هي إلا ظواهر لبناء المجتمع الإنساني الحديث، ولهذا ركز على ذلك يقول الإمام قدّس سرّه: « اسعوا في إعادة المساجد إلى ما كانت عليه في صدر الإسلام، ولتنتبهوا إلى أنه ليس في الإسلام عزلة أو اعتزال »[١١].

ويوضّح في كلمة أخرى ما هو المقصود بالضبط من إعادة المسجد إلى ما كان عليه في صدر الإسلام فيقول: « كان المسجد في الإسلام وفي صدر الإسلام دوماً مركزاً للتحرك الإسلامي، وكان الإعلام الإسلامي يبدأ من المسجد، وتنطلق الجيوش وقوى المسلمين منه لدحر الكفار وإدخالهم تحت لواء الإسلام، فالمسجد في صدر الإسلام كان مركزاً للتحرك والانطلاق دوماً »[١٢]، فالمسجد هو المنطلق للحياة الإسلامية، تتعدى رسالته الحدود الشخصية للفرد، لتشمل كل الحياة الإنسانية، ولا سيّما أن الآيات القرآنية جاءت لتؤكد بأن المساجد لله تعالى، قال الحق: ﴿وَإِنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ اللهِ أَحَداً﴾[١٣] وهذا الخطاب فيه من الرمزية ما فيه، ولعل من أهم الرسائل التي تُشير إليها تلك الآية هو خلوّ المسجد من كل دنس،

فهو الخير المحض، والصفاء الذي لا يدانيه صفاء في وسط دُنيا ملبّدة بالغيوم، ومن هنا أكدت الروايات النبوية والعلوية على المساجد ومكانتها، يقول الإمام الصادق عليه السّلام: « عليكم بإتيان المساجد فإنها بيوت الله في الأرض، ومن أتاها متطهراً طهره الله من ذنوبه وكتب من زوّاره ؛ فأكثروا فيها من الصلاة والدعاء »[١٤] ، فبيوت الله هي المواقع التي يقترب فيها الاتصال بالله، والتي تتقطع فيها النزعات المادية، ومن هنا لابدّ للنظرية التربوية أن تركز على منطلقها الأوّل في الحياة، ولا سيّما أن الناس قد يختلفون إلى المسجد، مع اختلاف مراداتهم، فمنهم من يقصد المسجد للعبادة فقط، ومنهم من يُريد الرحمة والثواب، ومنهم من يطلب التوفيق الدنيوي، فكل تلك المطالب مشروعة، ولكنّ للنظرية التربوية دوراً مساعداً في رسم استراتيجية متكاملة تجمع فيها كل تلك الطلبات والرغبات في بوتقة واحدة للوصول إلى الهدف المنشود، ومن هنا كان لزاماً على هذه النظرية أن تُبيّن الوظيفة التربوية للمسجد في الحياة الإسلامية، وإيجاد الآليات والطرق للوصول إلى تحقيق تلك الوظائف، وقطف ثمارها داخل المجتمع الإسلامي، ليكون المسجد بحق مؤسسة من أهم المؤسسات التربوية المؤثرة على الناس بمختلف طبقاتهم، وعلى اختلاف ثقافاتهم.

الوظائف التربوية للمسجد:

هناك مجموعة من الوظائف المهمة التي رسمها المشرع التربويّ الإسلاميّ لأقدس مؤسسة تربوية في الحياة، والتي من خلالها يتم رسم هوية الإنسان المسلم التي تتكون معالمها، وتنضج أفكارها انطلاقاً من ذلك المكان الذي

يتّصف بالقداسة والعبودية والشمولية لكل الفئات العمرية الموجودة في المجتمع على اختلاف مستوياتهم، وأعمارهم، وثقافاتهم، وأجناسهم ؛ إضافةً إلى فضل التعلم فيه، وما يترتب على ذلك من عظيم الأجر وجزيل الثواب، قال تعالى في رسم هوية المساجد وأدوارها التربوية ومرجعياتها التقديسية: ﴿وَإِنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ اللهِ أَحَداً﴾[15] ؛ ولهذا وجدت في العالم الإسلامي مساجد خاصة لها قدسية خاصة باعتبارات تاريخية وتقديسية إلهية، بل إن فيها من الارتباطات الغيبية التي تُعبّد الطريق أمام الإنسان لقبول رسالاتها التربوية من قبيل المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجد الكوفة، بل وباقي قبور وأماكن وبيوت الأئمة عليهم السّلام، فالمسجد الحرام الذي بناه إبراهيم وولده إسماعيل في الطرف الجنوبي للأرض المباركة، والمسجد الأقصى الذي أقيم في الطرف الشمالي المقابل ؛ والربط بين أرض المسجدين كان هدفه تحقيق التكامل بين المؤسستين التربويتين الرئيسيتين في الحياة وهما: المسجد الحرام والمسجد الأقصى، حتى وصل الأمر إلى إيجاد التكامل في دور هذه المساجد بمجيء رسالة محمّد صلّى الله عليه وآله، فأعاد للمسجد الحرام مكانته، وبنى إلى جانبه المسجد النبوي الشريف، ثم إن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى يشير إلى حالة الترابط بين المراكز التربوية المختلفة، ومن هنا انطلق أمير المؤمنين في رسالته التصحيحيّة من وسط بيت من بيوت الله تعالى وهو مسجد الكوفة، فالانطلاقة منه، والتصحيح فيه، فالمسجد وسيلة المسلم للوصول إلى النجاح والتقدم العلمي المرافق إلى النحو باتجاه الآخرة، وهذا هو الهدف

الأساسي من حياة الإنسان أن يجمع بين الدنيا والآخرة، ويقدم أمر الآخرة على الأولى، قال الله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللهُ الدَّارَ الأَخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[١٦]، وعملية الجمع لا تتحقق إلا من خلال التربية الإيمانية التي هي الوظيفة الأولى للمسجد، لأن المساجد هي أماكن عبادة، وتربية إيمانية خالصة لوجهه، نعم لا يمكن حصر التربية الإيمانية المسجدية في اتجاه واحد، ولا سيّما أن الحق تعالى يقول في كتابه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالأَصَالِ﴾[١٧]، فالآية تُشير إلى أن الله تعالى أذن أن ترفع بيوته، بتعظيمها ورفع شأنها بالتقديس والتطهير وإقامة الشعائر الدينية فيها بعد رفع قواعدها وبنيانها على مختلف المستويات، فتحقيق التربية الإيمانية الشمولية انطلاقاً من المسجد يرض علينا الحديث عن دور المسجد لتحقيق هذه الشمولية على المستويات الآتية: .

١ ـ دور المسجد في تحقيق التربية السياسية:

كان ولا يزال للمسجد دورٌ مهمٌ في رسم الحياة السياسية للمجتمعات الإسلامية، وعلى حد تعبير الإمام الخميني بأن المسجد « هو مركز التجمعات السياسية » ؛ لأن مهمة المسجد لم تتوقف عند حدود المسائل العبادية كالصلاة والصوم وما شابه ذلك ؛ بل تتعدى إلى التدخل في شؤون الحياة الإنسانية المختلفة التي من أهمها الحياة السياسية للإنسان المسلم، يقول الإمام الخميني الذي فجر أكر حركة سياسية في تاريخ الإسلام بعد حركة الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام « لم يقتصر مسجد الرسول

صلّى الله عليه وآله على المسائل العبادية كالصلاة والصوم ؛ بل كانت المسائل السياسية أكثر من ذلك »، فالمسجد من خلال هذه الرؤية الخمينية يستطيع أن يُغير المعادلات السياسية، ويحدث انقلاباً كبيراً على موازين الاستكبار والمستكبرين، وليس من العجيب أن يُرجع الإمام الخميني ما تحقق إلى فضل المساجد ودورها عندما قال: « إن المساجد هي التي حققت النصر لأبناء شعبنا، وهي مراكز حساسة ينبغي بالشعب الاهتمام بها »، فهي حصون الإسلام المنيعة بلا منازع، غرسها وغرس أحكامها وتعاليمها نبياء الله، بأمر إلهي لإحياء الثورا الدينية على مر التاريخ لأن إحياء الثورة كما يقول مفجر الثّورة الإسلامية: « لا يكون إلا من خلال المساجد »؛ ويُضيف أيضاً: « كان المسجد الحرام والمساجد في زمن الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله: ـ مركزاً للحروب، ومركزاً للقضايا الاجتماعية والسياسية، فلم يقتصر دور مسجد الرسول صلّى الله عليه وآلى على المسائل العبادية كالصلاة والصوم، بل كانت المسائل السياسية أكثر من ذلك وكان يبدأ من المسجد متى ما أراد تعبئة الناس وإرسال الجيوش[١٨].

٢ ـ دور المسجد في تحقيق الأمن النفسي والاجتماعي:

من أهم الأمور التي تساعد الإنسان على تحقيق قدراته وقابلياته، هو توفر عامل الأمن والأمان على المستويين الفردي والجماعي، ولهذا ذكرت الآيات القرآنية هذه الخاصية المهمة من خلال قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً﴾[١٩]؛ ففي هذا المكان الطاهر جعل الله الأمن والأمان لمن دخله على مدار التاريخ لا يخاف بطش جبار، ولا سوط

جلاد، ولا ظلم الظالمين وتآمر الحاقدين، وهذا الأمر يحتاج إلى مسلمين مؤمنين بالنظرية التربوية القرآنية، ويؤمنون بدور المسجد ؛ ليقوموا بعملية التوضيح والشرح لهذه الوظيفة المهمة، وإعادة بنائها من جديد.

٣ ـ دور المسجد في بناء الجانب العلمي والثقافي للمسلم:

المسجد هو العلامة الأولى الظاهرة لتشكيل الرؤية الكونية للإنسان المسلم، لما لها من علاقة بخالق هذا الكون ومدبره، فالمسجد ليس مكاناً للعبادة السلوكية فحسب، بل هو منطلقاً لبناء الرؤية المعرفية والثقافية عما يُحيط بالإنسان من متغيرات وثوابت، ولهذا حرص الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله منذ اللحظات الأولى لنزول الوحي أن يكون انتشاره من المسجد، مع ما يحمل هذا المصدر المعرفي من معلومات تُعيد بناء الإنسان من جديد على المستويات المعرفية والثقافية، وسارت جموع المسلمين منذ ذلك اليوم وإلى يومنا هذا على طريق النبي صلّى الله عليه وآله في جعل هذا المكان المنطلق للمعلومة الصادقة والصحيحة والتي من خلالها يستطيع الإنسان أن يرتب عليها أفكاره ومعلوماته، فقد كان تعلم القرآن والحديث، والفقه، واللغة، وإيجاد ثقافة إسلامية عامة تحكم ذهنية الاجتماع الإسلامي مبدأها ومنطلقها المسجد، ومن هنا لابدّ للنظرية التربوية الإسلامية أن تركز على هذا الجانب وتدعيمه من خلال تقويمه، وتقويم المعلومات الصادرة منه، ووضع الضوابط والشروط لمن يشغلون المواقع المختلفة في هذه المؤسسة التربوية المقدسة.

٤ ـ دور المسجد في بناء التربية الإجتماعية وتحصينها:

يُعتبر المسجد مركزاً مهماً للبناء

الاجتماعي في داخل الدائرة الإسلامية، ومقراً للتخطيط، ومنبراً للهداية، والإرشاد لجميع المسلمين، فالمسجد هو الميدان الأوّل لتطبيق الشريعة التي جاءت بأفكار وسلوكيات مختلفة عن كل الشعوب والثقافات الموجودة سابقاً، من خلال آداب فردية واجتماعية، ومبادئ للسلوك، وقوانين التعامل الاجتماعي، فأول ما دعت إليه رسالة النبي محمّد صلّى الله عليه وآله، هو عدم التفرقة بين المسلمين، عربي وأعجمي، غني أو فقير، ولم تفضّل أحداً على أحد إلى بالتقوى، وما من مكان يتجلّى فيه هذا القانون الاجتماعي بصورة جلية مثل المسجد، إذ يقف الجميع في صف واحد في الصلاة وقد ذابت وانصهرت جميع الفوارق التي تميز بعضهم عن بعض، إن وحدة المجتمع الإسلامي، وتكاتفه وقوته مستمدة من عدم التفريق بين الأجناس والطبقات والأعمار، لذا أصبح هذا المجتمع كالجسد الواحد إذا اشتكى فيه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، وهذا الأمر لا يتحقق في الصلاة فقط ؛ بل حتى في المعاملات الشرعية والشخصية والاجتماعية في الحياة، ولغرض تعزيز دور التكافل الاجتماعي والتواصل المجتمعي بين الجميع جعل الرسول الأكرم صلّى الله عليه آله المسجد ـ بالإضافة إلى وظائفه المختلفة ـ مكتباً للخدمة الاجتماعية وجمع التبرعات ومعاونة المحتاجين ؛ ولهذا نجد النبي عندما وفد عليه قوم عراة محتاجين تغير وجهه الشريف، وأمر بلالاً فأذن وأقام ثم صلى ثم خطب في الناس حاثّاً لهم على رعاية الرحم وتقديم الخير، فانهالت التبرعات من الدنانير والثياب والبر والتمر، فتهلل وجه النبي ﷺ[٢٠] ، فما تقوم به المؤسسات الاجتماعية للاهتمام بالفئات التي تحتاج إلى الرعاية والعناية

الاجتماعية من المعوقين، والفقراء، والمعوزين، والمرضى والغرباء واليتامى ممثلة في دور الرعاية الاجتماعية ؛ فإننا نرى المسجد النبوي قبل قرون من الزمان كان يقوم بهذا الدور على أكمل وجه، فللمسجد الدور الأساسي في بناء المجتمع وتماسكه، وتقوية الروح الاجتماعية فيه، من خلال تشريعات إلهية كان مهدها ومكان تطبيقها المسجد، فصلاة الجماعة المتكررة يومياً مرات عدة، من أهم مظاهر التعبئة النفسية لخلق روح اجتماعية حاكمة في الحياة، ووردت الروايات التي تحثّ على الذهاب إلى المسجد بنية طلب الجماعة، فعن الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله: ـ « من مشى إلى مسجد يطلب فيه الجماعة كان له بكل خطوة سبعون ألف حسنة ويرفع له من الدرجات مثل ذلك، وان مات وهو على ذلك، وكل الله به سبعين ألف ملك يعودونه في قبره ويؤنسونه في وحدته ويستغفرون له حتى يبعث »[٢١].

٥ ـ دور المسجد في إعداد المقاتلين وتنظيم صفوفهم[٢٢]

قام المسجد إلى جانب أدواره المختلفة والمتعددة بدور التربية العسكرية والاستعداد للمواجهة المسلحة مع الأعداء ؛ إذ أدى المسجد دوراً إيجابياً وفعالاً في هذا المجال فكان المسجد بحق هو الثكنة الأولى في الإسلام، ومقر القيادة العسكرية والحربية آنذاك، فقد اتخذ النبي من مسجده مقراً للقيادة، يعد فيه الخطط ويعقد مجالس الجهاد، ويصدر الأوامر وينصت إلى آراء المستشارين، وكان يحشد أصحابه في المسجد، ويشحنهم بطاقات مادية ومعنوية ويحرص المؤمنين على الثبات وينهاهم عن الفرار، ويحذرهم من الفرقة والنزاع، ويأمرهم بالطاعة والضبط ويشيع فيهم الألفة والنظام،

وكانت الغزوات والسرايا تنطلق من المسجد وتعقد ألويتها وبنودها في داخله، ولهذا كان تجمع المسلمين في المسجد عندما يداهمهم الخطر، وكانت القرارات المهمة المتعلقة بالحرب والسلم وغيرها تنطلق منه، ولعل بعضهم يعتبر هذه القضية من الأمور الصعبة التحقق في عالمنا المعاصر للتقدم الحاصل، ولا سيّما أن القيادات العسكرية تحتاج إلى مراكز سيطرة وما شابه ذلك، وهذا صحيح إلى حدٍ ما، ولكن لا يعني ذلك هجر المسجد من أمور كهذه، فيمكن جعله المنطلق إلى تلك المواقع لما يحمل من تعزيز الهمة للقدسية التي يحتلها في النفوس، لأنه حصن الجهاد الأكبر، فهو محراب بمعنى أنه موضع الحرب وموضع المواجهة ضد الشيطان والطواغيت[٢٣]، فللمسجد أدوار قيادية مهمة ؛ منها دور يرتبط جهاد النفس ووساوسها الشيطانية، والآخر جهاد طواغيت الدنيا ؛ أما جهاد النفس فهو من أدق الأمور وأصعبها حتى أصبح يُلقب بالجهاد الأكبر، هذا الجهاد الذي سيلقي بضلاله على حركة الإنسان في الدنيا ومصيره في الآخرة، من خلال الحرب المعلنة التي تنطلق من المسجد والتي لها أدواتها الخاصة ودروعها وأماكنها، فالمسجد هو الضمانة الأساسية للفوز في هذه المعركة الحساسة، ولهذا يقول الإمام الخميني: « المسجد هو خندق إسلامي، والمحراب هو محل الحرب، إنهم يريدون أن يأخذوا هذا منكم، بل إن ذلك مقدمة، وإلّا فاذهبوا وصلوا ما شئتم، إنهم تضرروا من المسجد خلال هاتين السنتين أو الثلاث الأخيرة، إذ أصبح المسجد مكاناً لتجمع الناس، وتثوير المجماهير للانتفاضة ضد الظلم، إنهم يريدون أخذ هذا الخندق منكم »[٢٤].

٦ ـ دور المسجد في خلق التربيةالصحية والتنشئة الجمالية والتشجيع عليها:

النظرية الإسلامية نظرية متكاملة على مختلف المستويات، فلم تترك جانب من الجوانب من دون توضيح وإشارة، ولم تُغَلَّب جانب على جانب، بل كانت نظرية جامعة لكل جوانب الحياة الإنسانية الشخصية والاجتماعية، ومن الجوانب التي اهتمت بها هو الجانب الصحي للإنسان في المستويين الروحي والبدني[٢٥]، ففي الجانب الصحي، اهتمت النظرية التربوية بالصحة الجسدية من الأمراض والأوبئة لما لها من دور في تحقيق الراحة النفسية الطمأنينة والهدوء، وأثنى القرآن على أهل مسجد قباء والمسجد النبوي بحرصهم على التنظف فقال عزّ من قائل: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[٢٦] ؛ فالدين الإسلامي ركز على هذا الجانب، ودعا إلى النظافة والتطهير، والتزيين والتجمل، واشترط تطهير الثياب والبدن والمكان من كل خبث مستقذر، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[٢٧] ، وهناك استفاضة في الروايات التي تتحدث ع الاعتناء بالجانب الصحي للإنسان، وإظهار الجانب الجمالي فيه.

٧ ـ دور المسجد في خلق الوعي الإعلامي عند الناس:

من الوظائف التي قام بها المسجد في عهد الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله هي الوظيفة الإعلامية[٢٨]، فالرسول الأكرم ﷺ، كان يستقبل الأوامر من ربه عن طريق الوحي، وكان المسجد هو وسيلة المسلم للحصول على أخبار السماء، ولا سيّما أن الإنسان يرتاده في اليوم والليلة خمس مرات، ويجتمع فيه

المسلمون يوم الجمعة وفي أيام العيد، وفي صلوات الجماعة، فمسجد النبي محمّد ﷺ كان يؤدي هذا الدور الإعلامي المهم في حياة الإنسان، واليوم لعلنا نجد استقبال المعلومة الصادقة بعيداً عن الكذب والتشويه يتم عن طريق المسجد خصوصاً إذا كان المُلقي لها يتمتع بخصائص وصفات خاصة تختلف عن صفات وسائل الإعلام السائدة، التي لا همّ لها إلا جمع الأموال، فالمسجد منبر للعلم والتبليغ والإعلام، يقول الإمام الخميني ﷺ: « كان الإعلام الإسلامي ينطق من المسجد »، فمن راد العلم والتعلم، فعليه أن يصاحب المسجد، ومن أراد الهداية عليه أن يتوجه إلى المسجد، ومن أراد التوبة فطريقها المسجد، فهو تجسيد للرحمة الإلهية التي تغمر المؤمنين في الدنيا وتكون سبباً لحسن العاقبة، وهذا ما أشارت إليه الرواية عن أمير المؤمنين عليه السّلام: ـ من اختلف إلى المسجد أصاب إحدى الثمان: أخاً مستفاداً في الله، أو علماً مستطرفاً، أو آية محكمة، أو رحمة منتظرة، أو كلمة ترده على ردى، أو يسمع كلمة تدله على هدى، أو يترك ذنباً خشية أو حياء » وهذا هو الهدف الأسمى للإنسان المسلم في الحياة.

٨ ـ دور المسجد في تحويل المفاهيم إلى سلوكيات:

للمسجد دور مهم في بناء الأعراف والتقاليد الاجماعية وتكوينها، وتحويلها إلى سلوكيات يسير عليها المجتمع، لضمان السعادة في الدارين، فهذه التقاليد الخارجة من المسجد تحكم السلوك الإنساني لما لها من هالة التقديس والاحترام، فعملية اصطحاب الأب أولاده نفسها، ومصاحبة ذلك باستحباب شرعي لغرض الصلاة، هي عملية غرس وعرف وعادة حسنة في

نفوسهم، فتعويد الأطفال ارتياد المساجد يُهيّئ الأرضية لترجمة المفاهيم السماوية وتحويلها إلى أعراف وتقاليد تتحرك في الشوارع والأسواق، ومن هنا سوف يشعر المجتمع باستقلالية والهيبة والاحترام، ولا سيّما أن الأثر الذي سوف يُحدثه هذا العمل في المجتمع له أهمية كبيرة جداً، بحيث يؤدي ذلك إلى إعادة بنائه ثقافياً وقيمياً، بالإضافة إلى تحصين أفراد المجتمع من أخطار الغزو الفكري والثقافي، فالمسجد يحول القيم المأخوذة من الدين إلى سلوكيات في المجتمع، وهي بدورها تبعث على استقرار المجتمع وتماسكه وتقدمه، فالمسجد في الإسلام ليس مكاناً للعبادة الفردية وحدها بمعزل عن تحويل ذلك إلى حالة اجتماعية، فلا يوجد انفصام بين ما هو ديني، وما هو دنيوي، في الوظيفة المسجدية في الإسلام، بل إن قيم الدين تظهر في معاملات الدنيا الاقتصادية والسياسية، والاجتماعية، والمتأمل لحركات المسجد وفعالياته يجد ذلك بوضوح من خلال أشكال بنائه نفسها، وطريقة أدائه لوظيفته، فنفس رفع الأذان في اليوم الواحد خمس مرات، ما هو إلا دلالة واضحة على تركيز التربية الروحية وبنحو يومي ومستمر، فكما أن الجسد بحاجة إلى غذاء يومي يتوزع وفق وجبات مرتبة ومنظمة يحتاجها، فكذلك الروح تحتاج إلى غذاء روحي يومي متواصل لتترسخ في أعماق النفس، وبعد هذا الغذاء الروحي، يأتي دور السلوك الاختياري للاستجابة إلى هذا النداء لغرض امتلاك زمام المبادرة والإقدام للتوجه بنحو اختياري في حركة جماعية تترك آثارها في الواقع الاجتماعي باتجاه المسجد لتكوين صورة منفصلة تماماً عن باقي المجتمعات، وفي داخل المسجد تبدأ إجراءات جديدة خاصة ؛ من قبيل

قراءة القرآن، وسماع نداء الروح الإلهي ؛ لجر الإنسان من الخيال الطيني المادي إلى الواقع الروحي الإلهي، فكل ذلك ما هو إلا عملية تحويل المفاهيم التي أرسلتها السماء إلى سلوكيات خارجية متحركة.

٩ ـ دور المسجد في تحقيق الألفة والمحبة بين الناس:

يجمع الناس على المحبة والألفة والتعاون، تحت سقف واحد، تحقيقاً لقول الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله: ـ « المؤمن آلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف »[٢٩]، فالمسجد هو المكان الذي يجمع الناس في حالة واحدة، وهي حالة التواضع لله عزّ وجلّ، لا تمييز ولا فرق بين حاكم أو محكوم، ولا بين غني أو فقير، يجتمعون كلهم في صف واحد، يركعون ويسجدون للخالق سبحانه وتعالى، فلا فرق ولا تميز بين المسلمين فكلهم سواسية كأسنان المشك، فلا كبَر ولا تكبر ؛ بل خضوع وخشوع لله عزّ وجلّ، والتذكير بقول الحق تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٣٠]؛ فالمسجد يُقر الاختلاف ويرفض النزاع.

وسائل الإعلام

تحتل وسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمسموعة، مكاناً هاماً في الحياة الفردية والاجتماعية للإنسان، ولا سيّما أن هذه الوسائل دخلت إلى غرف النوم، وأصبح مخاطبها الجميع من دون استثناء، فهي تؤثر في الكبير بنفس الدرجة التي تؤثر فيها في الصغير، وعلى المرأة كما هو الحال على الرجل، فلهذه الوسائل من الإيجابية بمكان بحيث يمكن للعاملين على التربية أن يستغلوها لتحقيق الأهداف، وذلك من خلال البرامج والأفكار

المبثوثة فيها، وإذا نظرنا إلى الآيات القرآنية نجد الحق تعالى قد فتح باب التأثير لهذه الوسائل في النفوس، قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣١]، فالمتأمل لهذه الآية المباركة يجد الله تعالى قد فتح شاشة تلفزيونية كبيرة لهذا الذي مر على تلك القرية مشككاً في نفسه حول كيفية الاعادة وليس في أصل الإعادة، تلك الشاشة التي جعلته يرى من خلال حواسه الداخلية والخارجية، كيفية الإعادة، ولا سيّما أن الشاشة قد شملته، وبنفس الوقت شملت من رافقه من الحيوانات أو الطعام الذي يحمله، بحيث جعله الله تعالى يشاهد كيفية الإحياء والإعادة، عند ذلك تيقن بالكيفية من خلال تلك الشاشة التلفزيونية العريضة التي مثلها الحق تعالى أمامه، وكأن القرآن يُريد أن يوصل إلينا رسالة مفادها أن الوسيلة الإعلامية التي يشاهدها الإسان لها من التأثير ما لها، بحيث تجعل الإنسان يتأثر حتى لو كان ذلك الإنسان يحتل موقعاً مهماً في الحياة.

نعم هذه الوسائل ليس دورها أحادياً، بمعنى ليس إيجابياً فقط، وإنما لها من الدور السلبي الكبير الذي قد يؤدي إلى القضاء بنحو كامل على الجيل، وحرفه عن مساره ضمن توجهات وأفكار وقيم تابعة لنظريات أخرى بعيدة كل البعد عن قيم وأفكار وتوجهات الإنسان المسلم، فما يقدمه التلفاز من برامج متعددة وما تقدمه الصحف والمجلات والكتب، وما تقدمه الإذاعة

المسموعة من برامج وموضوعات، كل ذلك يمكن أن نضعه في وصف السيف ذي الحدين، فمن جهة يمكن أن يكون سلبياً، ومن جهة أخرى يمكن أن يكون وسيلة لغرس القيم الإسلامية إذا استغلت استغلالاً أمثل، وخطط له التخطيط السليم، فوسائل الإعلام المتنوعة كلها محايدة فهي ليست شريرة أو خيرة في حد ذاتها، ولكن طريقة استعمالها بل المحتوى الذي تقدمه هو الذي يجعلها بنّاءة أو هدامة للقيم، فإذا ما استطعنا أن نسيطر على تلك الوسائل، وتقديم الأفضل للجيل الناشئ، فسوف تكون تلك الوسائل مؤسسات اجتماعية تربوية إعلامية لها تأثير إيجابي على تربية الإنسان وثقافته ووعيه، ولا سيّما أنها تتمتع بقدرة فائقة على جذب اهتمام الناس من مختلف الأعمار والمستويات، وبمختلف الطبقات والثقافات، بالإضافة إلى تأثيرها القوي على الرأي العام في مختلف الظروف، وأن تأثيرها يصل إلى قطاعات عريضةٍ من فئات المجتمع ؛ وهذا يعني أنه من المهم جداً استثمارها، والإفادة منها، والعمل على تسخيرها بشتى الطرق والكيفيات لخدمة أهداف التربية الإسلامية وأغراضها ؛ عن طريق التنسيق المستمر بين هذه الوسائل وغيرها من المؤسسات التربوية الأخرى في المجتمع، وعن طريق إسناد مهمة الإشراف عليها لمن تتوافر فيه الكفاءة الدينية والخُلقية والعلمية والمهارية، حتى نحقق تنشئة اجتماعية من خلال تزويدهم بالمعلومات، المشفوعة بالإقناع، والترفيه، بحيث تؤدي إلى دعم الاتجاهات النفسية الفردية للمتلقي، والبناء الاجتماعي له، من خلال تعزيز القيم والمعتقدات أو تعديلها، والتوافق مع المواقف الجديدة، ولا سيّما أن لهذه الوسائل دوراً كبيراً في التأثير يفوق دور

المؤسسات التربوية الأخرى ؛ بل قد يتغلب على دور الأبوين والمدرسة وتأثيرهما في جميع المراحل العمرية، فعلى المهتمين بالشأن التربوي خلق التنسيق والترابط بي أعمال المؤسسات التربوية وبين الوسائل الإعلامية، بحيث يصب الجميع في خدمة أفكار النظرية التربوية الإسلامية من خلال الترابط بين أعمال هذه المؤسسات التربوية والمؤسسات الإعلامية الأخرى، لخطورة الدور الذي تلعبه تلك الوسائل في تشكيل الآراء، وتغيير الأحكام، وإيصال المفاهيم، وغرس القيم، ومحو السيئ من العادات والتقاليد، او زرع عادات وتقاليد سيئة في المجتمع، لأنها تخاطب العقل وتدغدع العواطف وتمس المشاعر بوسائل متنوعة وجذابة وشيقة.

لذا تقع على النظرية التربوية القرآنية مسؤوليات تربوية تجاه المجتمع بمختلف شرائحه، في التوجيه والتثقيف والاهتمام بعرض مشاكله وإيجاد الحلول لها، ولكن للأسف الشديد نجد تقاعساً في إعلامنا وتجاهلاً لأدواره الأساسية، والأسوء من ذلك كله أصبح يتغنى بعرض المشكلة بعيداً عن الحل، فوسائل الإعلام لها دور الإيصال، أما التساؤل المهم فما هي المادة التي يجب أن يوصلها هذا الإعلام بوسائله المختلفة، وهنا تُسكب العبرات، فيجب الوقوف طويلاً عند المادة الإعلامية، التي قوَّضت الحصون، وأقضت مضاجع المهتمين بالشأن التربوي، بما تحمله من أفكار وثقافات وأنماط سلوكية مختلفة، فلابدّ من وقفه تستهدف المراجعة والتدقيق من جهة، وإحلال البديل المناسب من جهة ثانية، نعم لم يكن الأمر بهذه السهولة، ولا سيّما أن الطرف الآخر له من الشراسة بما يحمل من أفكار ونظريات تخدم أهدافه، فالعملية شاقة وصعبة للوصول

إلى طريق صحيح يؤدي إلى تثبيت وظيفة وسائل الإعلام التربوية والتي تتركز فيما يأتي: .

١ ـ إعداد برامج تربوية متناسبة ومتناسقة مع النظرية التربوية الإسلامية، ومشاركة المُعدّين التربويين في وضع استراتيجية إعلامية تتضمن تلك الأهداف، ولا يقتصر دور التربوي على الإعداد للبرامج التروبية ؛ بل يتعدى ذلك حتى إلى التنفيذ والتطبيق لما له من أهمية كبيرة ومدخلية مهمة في إيصال المعلومة إلى مخاطبيها، فإعداد البرنامج الهادف لا يكفي للوصول إلى تحقيق الهدف التربوي منه، بل للتطبيق دور بارز في ترك أثر ذلك البرنامج في سلوكيات مخاطبيه، فالفكرة والنص والإخراج والتنفيذ، كل منها يُساهم في تحقيق الأهداف التربوية، فوسائل الإعلام تختلف في مدى تأثيرها على صياغة الإنسان وبنائه على المستويات المتعددة سواء كانت روحية أم فكرية أم خُلقية أم وجدانية، وبنظرة خاطفة إلى البرامج الدينية التربوية التي تبثها وسائلنا الإعلامية نجد العجز الكبير مع الأسف في إدارة البرامج وتنفيذها، ولا سيّما أنها مبتورة عن الجذور الدينية، والبرمجة المتكاملة بحيث يكون كل برنامج يصب في تحقيق الهدف التربوي، يقول الحق تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[٣٢] ، فالعمل العلمي التربوي من خلال استعمال وسائل الإعلام يحتاج إلى خبرة وحنكة ودراية، وغوص في أعماق التأريخ لإستخراج الدور التربوية التي تركها لنا تأريخنا، وإعادة إنتاجها من جديد، لأخذ الدروس والعبر منها، ولسنا بعيدين عن بعض الأعمال التلفزيونية التي قامت بها وسائل الإعلام الإسلامية التي نقلت لنا

الحقيقة من خلال برامج ومسلسلات أثرت في الشارع الإسلامي، فوسائل الإعلام قادرة على تحويل التأريخ بما يحمل من دروس تربوية إلى مشاهد ومقاطع وحركات تنبض بالحيوية، وتنطق بالصدق، فتشد الفكر، وتوقظ الوجدان، وتسمو بالروح، وعند ذلك يتحقق المراد.

٢ ـ التركيز على المادة الترفيهية، فالملاحظ للبرامج التلفزيونية المتعددة يجد المادة الترفيهية فيها قد تفوق كثيراً من البرامج المُعدّة، لما لهذه المادة من قبول وارتياح نفسي كبير للمشاهد، فالتعامل مع المادة الترفيهية التي تميلها الضرورة، ويفرضها العصر، ويرتضيها الطبع السليم، تفرض علينا أن نحيطها بقناعات مؤكدة في الحس، ومركوزة في الفطرة، فلا توجد مادة ترفيهية إلا ولها هدف تربوي مقصود، فحتى تلك البرامج الترفيهية التي تُعد للتسلية والضحك، بل حتى تلك التي تنحرف بالإنسان إلى مستلزمات الطينة المخلوق منها، فهي تخدم رؤىً خاضعة للنظريات تربوية مختلفة، فالترفيه في النظرية التربوية القرآنية لابدّ أن يحاكي الروحوالبدن، بنحو متوازن، انطلاقاً من ساعات الإنسان التي يجب أن يقضيها وفقاً لحديث رسول الله صلّى الله عليه وآله: ـ « حق على العاقل أن تكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها بأصحابه الذين يخبرونه بعيوبه ويحدثونه عن ذات نفسه، وساعة يخلو فيها بلذاته فيما يحل ويجمل فإن في هذه الساعة عوناً على تلك الساعات »[٣٣] ، ويقول أمير المؤمنين عليه السّلام: « روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلب إذا أُكره عمي »[٣٤]؛ فالمادة الترفيهية في النظرية التربوية القرآنية تقوم بدور الترفيه من

جهة، ومن جهة أخرى تؤثر في النفس باتجاه هدف محدد تسعى إلى تحققه النظرية التربوية القرآنية، وهو خلق الإنسان الصالح المتكامل بأبعاده المختلفة، مستغلاً لكل الساعات التي رسمها له الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله، فهو ترفيه موجه ومسير بأسلوب علمي مدروس ومنظم.

٣ ـ جعل الهدف التربوي محطاً للأنظار في كل حركة وسكنة تقوم بها تلك الوسائل الإعلامية.

٤ ـ المحافظة على المضمون والمحتوى من دون التفريظ بالشكل والظاهر.

٥ ـ اختيار العاصر ذات التخصص في التفكير والإعداد والإخراج والتنفيذ.

٦ ـ زوج العناصر المختلفة التي تشترك في تلك الوسائل الإعلامية بدورات توضح النظرية التربوية القرآنية، والأهداف المرجوة منها، بحيث تتمثل تلك الأهداف عملياً لا نظرياً.

٧ ـ تنمية الشعورالديني، والتركيز على منشطات هذا الشعور سواء على مستوى التاريخ، أم على مستوى الحاضر، بل والمستقبل، لبناء جيل يحمل ذلك الشعور بين حناياه.

المكتبات العامة ودورها التربويّ

المتأمل لواقع التأريخي الذي عاشه الإنسان قبل ظهور المكتبات يجد الذاكرة البشرية الداخلية كانت هي الموقع والمركز لمعلومات الإنسان، فقد عاش الإنسان مدة من الزمن ليست بالقصيرة بدون أي نوع من أنواع التوثيق للمعلومة التي يحصل عليها، مع ما لهذه المعلومة من تأثير كبير على واقعه التربوي والأخلاقي في الحياة، فالإنسان كان يستثمر معلوماته المخزونة في ذاكرته، فالذاكرة البشرية كانت

تمثل مكتبة الإنسان ومصدر معلوماته، وتختلف معلومات هذه الذاكرة من شخص لآخر، بحسب اختلاف قدراته الفكرية والتجريبية في الحياة، التي يأخذها تارة من التجارب التي يعيشها، وأخرى من قصص ومرويات السابقين عليه، وبتطور الحياة وتعدد المعلومات التي يصعب على الذاكرة الداخلية الاحتفاظ بها، وللحاجة الماسة إلى وضع جديد لحفظ المعلومات، لجأ الإنسان إلى طريقة جديدة وهي طريقة التدوين على الحجارة والطين وعظام الحيوانات، وبتطور الحالة التدوينية للمعلومة بدأ النظام التربوي لحياة الإنسان يختلف باختلاف هذا التطور، ولا سيّما أن هذا النظام يتأثر بالمعلومات المنقولة إليه، فأضيف إلى الإنسان ذاكرة جديدة، وبنك معلومات جديد، بالإضافة إلى الذاكرة الداخلية، وهي الذاكرة الخارجية، فأصبحت الذاكرة الخارجية التدوينية البدائية أكثر استيعاباً للمعلومات، وأكثر حفظاً من الذاكرة الداخلية، وبدأت تتطور عملية التدوين شيئاً فشيئاً، وبدأت عمليات حفظ المعلومات تتطور إلى أن وصلت إلى الكتابة على الأوراق والاحتفاظ بها، ثم في أماكن مخصوصة تعرف باسم المكتبات، وتطورت إلى أشكال وأنواع مختلفة، وهكذا الأمر بدأ يتطور إلى أن أصبحت المكتبات اليوم تضمّ عشرات الآلاف من الكتب والمؤلفات، وأصبحت تمتلك برامج مختلفة لإيصال المعلومة إلى متلقيها، فهذه الإطالة البسيطة على التطور التأريخي للمكتبات يعطينا تصوراً واضحاً لدور الكتاب والمكتبة في بناء الإنسان تربوياً، فالدور التربوي لهذه المؤسسة المهمة لا يكاد يخفى على أحد، ولا سيّما أن مكتبات اليوم لم تتوقف عند حدود الخزائن للكتب والمعلومات، بقدر ما لها من دور في

توجيه الرواد لهذه المكتبات إلى نفس المعلومة بل إلى كيفية تلقيها، وتأثيرها، فمكتبات اليوم هي تجمعات عملية مدروسة ضمن منهجة رصينة ومؤثرة على المتلقين، فالدور الوظيفي التربوي للمكتبات وللقيمين عليها لا يكاد يخفى على أحد، فنشر الثقافة والمعرفة وخدمة القضايا التروبية والتعليمية والاجتماعية ونحوها، من أبرز علامات ذلك بالإضافة إلى تنظيم المسابقات الثقافية، وعقد الدورات التدريبية، وإقامة المحاضرات، والندوات المتنوعة، وتنظيم معارض الكتاب، ونحو ذلك من النشاطات المختلفة، بل إن التعليم القديم كان يتم عن طريق التكرار والحفظ، أما اليوم فإن التربويين يأملون بالإسراع بالعملية التعليمية وتطويرها ؛ وأصبح للمكتبة دور تزداد أهميته في طرائق التدريس الجديدة، فمخزون المكتبة من الكتب، والصور، والنشرات، والخرائط، والأفلام والصور العلمية غير المتحركة، والتسجيلات المسموعة والمرئية وكل المواد المكتبية المطبوعة المؤثرة في الأهداف التربوية التي تقوم عليها تلك المكتبات، مما يجعل منها منجماً تربوياً وتعليمياً لكل دارس ومتعلم، تلميذاً كان أم مدرساً، وقد أدركت الدول المتقدمة ومنظمة اليونسكو أهمية المكتبات المدرسية في التربية الحديثة فاهتمت بإنشائها والعناية بها، ودعت إلى إقامتها والتوسع فيها، وأوصت في العديد من مؤتمراتها بدعمها وجعلها حجر الأساس في سبيل بناء جيل تربوي سليم ؛ لأنها واحدة من أهم الركائز العلمية التي تقوم عليها المدرسة الحديثة، فالحاجة إلى المكتبة تتزايد يوماً بعد يوم خصوصاً في الدول النامية، لأن المكتبات المدرسية والجامعية غالباً ما تلعب دوراً كبيراً في صياغة شخصية الإنسان والتأثير على سلوكياته ؛ ولذلك

تقع على المكتبة المدرسية مهام مضاعفة تخرجها من حدود دائرة تدريس الكتب المقررة إلى آفاق معرفية أوسع، وفي مقدمتها ترسيخ عادة القراءة لدى التلاميذ بحيث تصبح اتجاهاً تربوياً أصيلاً عندهم، ويصبح الكتاب رفيق العمر الذي لا يستغنون عنه أبداً، وتصبح المكتبة المكا الذي يترددون عليه من حين إلى آخر للانتفاع بها، والإفادة منها ومن محتوياتها، خصوصاً إذا أنشئت المكتبة وهي تحمل هدفاً تربوياً قوامه التأثير في القارئ والمتلقي، وبالأخص إذا طُعمت البرامج المكتبية بالبرامج الترفيهية والتوجيهية، فالمكتبة المدرسية إذاً مؤسسة تربوية تعمل كجزء من مؤسسة تربوية أشمل وهي المدرسة، ولا شك في أن المكتبات تُعد جزءاً لا يتجزأ من العملية التعليمية والتربوية، وفي مطلع القرن الماضي تجلى الاهتمام بتوفير مقومات التعليم ومتطلباته كافة، ومن الطبيعي أن تأتي المكتبات المدرسية في مقدمة تلك المتطلبات، ورغم أهمية هذا المطلب في دعم المنهج الدراسي والعملية التربوية بأكملها فإنه لم يستوف حقه من العناية في مدارسنا الأكاديمية والحوزوية، وبخاصة في مرحلة التعليم الأساسي الابتدائي والإعدادي والديني ؛ لأنه لا يشرف عليها جهاز مؤهل علمياً وعملياً، ولا يتوفر لها الدعم المالي المناسب لتدبير احتياجاتها الملائمة لأداء خدماتها، فلم تكن المكتبات أماكن منزوية أو منعزلة عن مبنى المدرسة ؛ بل أصبح ينظر إليها على أنها مركز إشعاع تربوي وذلك عن طريق توفير المواد التعليمية والتربوية من كتب ومراجع ووسائل تعليمية سمعية وبصرية، استجابةً إلى العملية التربوية التي تقرر وجوب توفير الرغبة لدى كل متعلم، وتسهيل عملية الوصول إلى المعلومة، انتقالاً من التعليم

إلى التعلم، ومن التقي إلى البحث والتنقيب والتحصيل الذاتي، أضف إلى ذلك أن النظريات التربوية كانت توجه في الماضي إلى العناية بالتعليم الجماعي الذي لا يراعي الفروق الفردية بين التلاميذ، تلك الفروق التي أكدتها الدراسات النفسية والتربوية ولقد أصبح هذا الاتجاه يعتمد على الفلسفة الحديثة للتربية التي تنادي بتفريد التعليم، بمعنى أن يتم التعامل مع كل تلميذ كفرد مستقل يختلف عن غيره من التلاميذ ؛ وانطلاقاً لتحقيق ذلك كانت المكتبات العامة والخاصة هي المجال الرئيسي بالمدرسة الذي يمكن أن يتم فيه التعلم على أسس فردية، وذلك بفضل مصادرها المتنوعة التي تتيح للتلميذ اكتساب المهارات والمعلومات والخبرات طبقاً لاحتياجاته الفعلية وقدراته الخاصة وتشجيعه على تنمية مواهب خارج نطاق مناهج الدراسة التقليدية، ومن هنا كانت وظائف المكتبات بمختلف أنواعها متعددة ومتنوعة، والذي يرتبط منها بالجانب التربوي هو: .

١ ـ رفع مستوى الثقافة العام للمجتمعات، خصوصاً إذا توزعت توزيعاً جغرافياً مدروساً، وبُنيت وفق أسس علمية ومنهجية واضحة لاستغلال أوقات فراغ الطبقات الاجتماعية المختلفة من الرجال والنساء، والشباب والصبيان، ومختلف طبقات المجتمع التي ترغب في الإفادة من المكتبات، بحيث يكون ذلك الاستغلال ضمن برامج مؤثرة تربوياً.

٢ ـ تشجيع المواهب والمهارات العلمية والأدبية والفنية، ونشر الإنتاج المبدع منها، خصوصاً ذات التأثيرات التربوية على المبدع والمتلقي.

٣ ـ تشجيع الحركة الثقافية عن طريق إقامة الندوات والمحاضرات

ومعارض الكتب، مما يؤدي إلى خلق مناخ تأثيري على الآخرين.

٤ ـ جذب أكبر عدد ممكن من الزوّار من خلال برامج ترفيهية داخل المكتبات بحيث تتحول المكتبة إلى مجتمع مصغر فيه كل وسائل الاستفادة والتعلم.

الهوامش

١ـ سورة الرعد، الآية: ,٢٨

٢ـ سورة النور، الآية: ,٣٦

٣ـ سورة التوبة، الآية: ,١٨

٤ـ انظر: المساجد، مفهوم، وفضائل، وأحكام، وحقوق، وآداب في ضوء الكتاب والسنة: د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني: ص ,٣٤٥

٥ـ بحار الأنوار: العلامة المجلسي: ج ٨٠: ص ,٣٨٥

٦ـ كلمات قصار: الإمام الخميني قدّس سرّه: ص ,٦٤

٧ـ كلمات قصار: الإمام الخميني قدّس سرّه: ص ,٦٤

٨ـ كتاب الأمالي: الشيخ الطوسي: ص ,٤٩٢

٩ـ الكلمات القصار: الإمام الخميني: ص ,٦٥

١٠ـ بحار الأنوار: العلامة المجلسي: ج ٨٥: ص ,١٣

١١ـ كلمات قصار: الإمام الخميني قدّس سرّه: ص ,٦٤

١٢ـ منهجية الثورة: الإمام الخميني قدّس سرّه: ص ,٤٧٨

١٣ـ سورة الجن، الآية: ,١٨

١٤ـ مستند الشيعة: المحقق النراقي: ج ٢: ص ,٢٤

١٥ـ سورة الجن، الآية: ,١٨

١٦ـ سورة القصص، الآية: ,٧٧

١٧ـ سورة النور، الآية: ,٣٦

١٨ـ منهجية الثورة: الإمام الخميني قدّس سرّة: ص ,٤٧٩

١٩ـ سورة آل عمران، الآية: ٩٦ ـ ,٩٧

٢٠ـ انظر: بحار الأنوار: العلامة المجلسي: ج ٣٤: ص ,٢٣٤

٢١ـ مستدرك سفينة البحار: العلامة آية الله الشيخ علي النمازي: ج ٢: ص ,٢٩٥

٢٢ـ انظر: المساجد: حسين مؤنس: ص ٥٦، (١٤٠١ هـ). سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ومحمود، علي عبد الحليم: المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي: ص ٤٥، ووائلي، خير الدين. (١٣٩١ هـ): المسجد في الإسلام، ورسالته، نظام بنائه، أحكامه، آدابه، بدعه: ص ,٥٦٤

٢٣. كلمات قصار: الإمام الخميني قدّس سره: ص ,٦٤

٢٤. منهجية الثورة: الإمام الخميني: ص ,٤٧٩

٢٥. انظر: المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي: محمود، علي عبد الحليم: ص ,٢٣١

٢٦. سورة التوبة، الآية: ,١٠٨

٢٧. سورة الأعراف، الاية: ,٣١

٢٨. المسجد في الإسلام، رسالته، نظام بنائه، أحكامه، آدابه، بدعه: وائلي، خير الدين: ص ,٩٨

٢٩. شرح نهج البلاغة: عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد، ج ١٠، ص ,٣٦

٣٠. سورة الحجرات، الآية: ,١٣

٣١. سورة البقرة، الآية: ,٢٥٩

٣٢. سورة التوبة، الآية: ,١٠٥

٣٣. عوالي اللآلي: ابن أبي جمهور احسائي: ج ١: ص ,٣٧

٣٤. العمل وحقوق العامل في الإسلام: باقر شريف القرشي: ص ٣٤.

إعداد : محمد جواد الحمداني

باحث من العراق، جامعة كربلاء، ماجستير فكر إسلامي

الإلحاد
بين تهافت الأدلة وإستنكار الفطرة[1]

في أعمق الأعماق من نفس الإنسان يوجد الدليل الأول على الله ، بل والدليل الأول على توحيده وتنزيهه والحافز الذاتي للإنسان على التوجه إليه .

في أعمق الأعماق من نفس هذا المخلوق المفكر ، حتى لو أطبق عينيه عن عجائب الكون ، وصرف فكره عن التأمل فيها والتدبر في قوانينها . في فطرته حين يدع لها الحكم ويسند إليها الرأي .

في فقره الذاتي وهو يشير إلى غني مطلق يأمل منه الغنى ، و في نقصه الطبيعي وهو يتوجه إلى كامل أعلى يرجو منه الكمال ،

وفي ضعفه الشديد وهو يتعلق بقوي غالب يستمد منه القوة ، وفي عجزه المتناهي وهو يلجأ إلى قادر قاهر يبتغي منه القدرة والنصرة . وبكلمة جامعة في قصوره الذاتي من كل ناحية وهو يتوجه إلى قوة عليا كاملة من كل ناحية ، متعالية عن الحدود ، مرتفعة عن الحاجة تفض الخير وتكفي السوء . بلى وكل إنسان له ساعات لا يخادع فيها نفسه أو هو لا يستطيع أن يخادعها ، ساعات تتعرى له فيها الحقائق فيؤمن انه لا يملك شيئاً مما في يديه ، وان يك أغنى الأغنياء أو أقوى الأقوياء في مقاييس الناس . وتستلفته نِعمٌ عظيمة تحوطه من شتى نواحيه ، ظاهرة وباطنة ، نِعمُ لا يحصيها عدداً ، ولا يملك لها وصفاً ، ولا يفي بها شكراً ، فيوقن بفطرته كذلك ان هذه الأيادي جمعاء صنيع تلك القوة العظمى التي لجأ إليها عند ضعفه وتعلق بها عند خوفه .

ويمتد بصره إلى ما يكتنفه من أحياء و أشياء فتقول له بداهته : هذه آثار لها مؤثر . وتقول له فطرته : موجد هذه المكونات هو تلك القدرة الغالبة التي لا ينتهي بها حد ، ولا يعجزها شيء . وهكذا يجد الإنسان دليل الربوبية ودليل التوحيد مطبوعين في ركائز شعوره ، فإذا ركن إلى العقل الواعي ليفصل له ما أجملته الفطرة وجده يقول : خالق الكون يجب أن يكون كاملاً ، لأنه يهب الكمال لخلقه ، وواهب الكمال لا يكون ناقصاً . وخالق الكون يجب أن يكون غير متناهي الحدود في كماله ، لأنه لو تناهى كماله لا فتقر إلى المزيد ، وهذا يعني انه مفتقر إلى العلة فلا يكون إلهاً .

والنتيجة اللازمة المحتومة لذلك أن إله الكون لن يكون الا واحداً ، لان الإلهين والإلهة الكثر لا محيد من أن

يختص كل واحد منهم بحصة من الكمال لا تكون لشركائه، فان هذا هو المعنى المفهوم للتعدد. وهذا يعني أن كل واحد منهم متناهي الحدود في كماله. فلا يكون إلهاً ولا خالقاً.

فإذا رجع إلى المنطق يتعرف حكمه في ذلك وجد البراهين النيرة متوفرة متضافرة عليه.

والعلم؟ ماذا يؤمل منه أن يقول بعد أن لمس الوحدة الكونية في كل خطوة خطاها، وفي كل ظاهرة أو خفية كشفها؟.

ماذا يؤمل من العلم أن يقول؟. لقد اعترف بوحدة الكون، أفلا تكون هذه دليلاً على وحدة المكون؟.

وهكذا تتأزر فطرة الإنسان الخاصة، وفطرة الكون العامة، وفطرة كل شيء من أشيائه وكل جزء من أجزائه على إثبات هذه الحقيقة وتجليتها للفكر الواعي، حتى إذا جاء دور الدين، دور وحي الله إلى أنبيائه المطهرين لم يبق له في مجال هذه العقيدة غير تبيين حدودها ورسم أبعادها، وتوضيح لوازمها وآثارها. وغير هذا حفز الفطرة لتنتبه من سنة، وتوجيه العقل ليعرف طرق البرهان.

ولا ادعي عصمة الإنسان في هذا المجال، وان التوفيق حلفه فيه أنى سار وأنى توجه، فكيف إذن ألحد من ألحد؟ وعلى م أشرك من أشرك؟. ولكنني أقول: هذا هو الطريق الأحب الذي أعده التكوين لتجلية هذه العقيدة، وهذا هو سبيلها المستقيم الذي اهتدى بإتباعه من اهتدى وضل عنه من ضل.

وفي أعمق الأعماق من تاريخ الإنسان توجد آثار هذه الفطرة، وتلمح ظلال هذه الفكرة، آثار الفطرة السليمة التي أرشدت الإنسان إلى التوحيد، والعقل

المؤمن الذي أوضح له فكرة الإلوهية وان وجدت معها كذلك آثار الفطرة الملتوية. أو بالأحرى اثار الإنسان الذي التوى عن الفطرة، وصدق عن هداها

وهذه حقيقة لا يمتري فيها علماء التاريخ ولا علماء الآثار. فالتوحيد الخالص والشرك الصريح والإلحاد المرتاب وجدت جنبا إلى جنب في جميع عصور التاريخ، وحالها في الأزمان الغابرة كما هي في الأزمان الحاضرة سواء بسواء. ومواقف دعاة التوحيد من المشركين والملحدين معروفة مشهورة في جميع الأدوار، بل والحقيقة التي تثبتها الحجج القاطعة أن التوحيد سابق على الوثنية في النشأة

وتتشهى فئة من الناس أن تحكم أهواءها في التاريخ لتحكم أهواءها في هذه العقيدة، ثم في فكرة الدين!!.

لنقول: إن الله وهم أنتجه الخيال الأسطوري للإنسان، وان الدين والنظم الأخلاقية وتعابير الشرف والاستقامة قيود صاغها السادة للعبيد!!. تتشهى هذه الفئة أن تبتدع لعقيدة الإلوهية تأريخاً لا يعرفه التأريخ.

تقول: أن هذه العقيدة نشأت عند الإنسان القديم من فكرة بسيطة، من طريق تشخيص القوى الطبيعية. ثم مرت مع الأزمان تنمو وتربو وتتحور وتتطور، حتى بلغت الذروة في عقيدة التوحيد. ونشأت معها كذلك فكرة الدين، وتطورت بتطورها ونضجت بنضوجها في الأديان التوحيدية. وإذن فالإله وهم اخترعه الخيال وعمل فيه التطور. والدين خرافة وضعها السادة ليقيدوا بها العبيد. وأقرأ إن شئت قول (فردريك انجلز) في كتابه لودفيج فيوربارخ:

((ولم تكن الحاجة إلى العزاء الديني هي التي أدت إلى نشوء الوهم

الممل عن الخلود الشخصي ، بل هي الحيرة القاسية التي نجمت عن الجهل العمومي المشترك بما ينبغي فعله مع هذه النفس . إذا ما قبلت فكرة بقائها حية . بعد موت الجسم وفنائه . وهكذا نشأت الآلهة الأولى ايضاً بطريق تشخيص القوى الطبيعية ، ثم اتخذت . خلال تطور الدين اللاحق . صورة تخرج أكثر فأكثر عن نطاق العالم الأرضي إلى أن ولدت هذه الالهة العديدة ، وهي ذات سلطة ضيقة على درجات متفاوتة ، وسلطة كل منها تحد من سلطة الآلهة الأخرى . خلال عملية طبيعة من التجريد . كدت أقول من التقطير . أقول ولدت في عقول الناس مفهوم الإله الواحد المتفرد الذي بشرت به الأديان التوحيدية))[1] .

واقرأ أيضاً قول فؤاد أيوب في مقدمة هذا الكتاب : ((إن الله نتاج وجدان الإنسان الديني وخيالها الأسطوري ، أما العكس أي أن الوجدان الديني والأسطورة نتاج الوحي الإلهي فغير صحيح البتة . وان التاريخ ليثبت ذلك ، فالفكرة او الصورة اللتان صنعهما المؤمن عن الله قد تبدلتا خلال مراحل المدنية الانسانية ومع تبدل مستوى تطورها الأخلاقي ، هذا التطور الذي لا يزيد تانك الصورة او الفكرة عن أن يكون انعكاسا له أو إسقاطا . ذلك أن الإنسان يسمو بالصفات والقيم التي تدله المدنية على انها فضائل مرغوبة يستفيد النوع منها والتي لا ينجح هو الفرد الفاني الضيق الأفق في الحصول عليها أو تحقيقها بصورة كاملة ، يسمو إذن بتلك الصفات والقيم فيضيفها على فرد إلهي متسام . وهذا يعني أن الصفات الالهية نعوت إنسانية لا تخص الفرد بل تخص الجنس في المجموعه)) ٢ .

أقرأت ؟ _____

هـذه هـي دعـواهم . . . . وهـذه هـي حجتهم . . . ! ودليل الهراء لا يكون غير افتراء .

ويبـدو أن نظريـة التطـور هـي الـتي سـاقتهم إلى هـذا الغـرض ثم إلى هـذا الاستنتاج .

التطور قانون تخضع له كل الأشياء فلا بد أن تكون عقيدة الالوهية خاضعة له أيضاً .

وإذن ففكـرة الإلـه قـد خضـعت للتطـور . وإذن فقـد نشـأت في ذهـن الإنسان القديم نشأة بسيطة وإذن فهي من مخترعات الإنسان ومبتدعاته ، وقد أنشـاها وطورهـا وفقـا لدوافعـه . . . . والماركسـيون يقولـون بتطـور الأشـياء وتطـور الآراء تطبيقـا لمبـدأ النقـيض وللحركة الديالكتيكية . وقد تعرضنا من قبل لهذه الأوهام .

ويلاحظ أن انجلز في قوله المتقدم قد عجز أن ينشّىء الفكرة الإلهية نشأة اقتصـادية وان يجعلـها انعكـاس للواقـع الاقتصـادي علـى مـا يـراه في كل فكـرة ، وان يصورها فكرة بورجوازية كما يقول في غير هذا الوضع .

ثم ماذا ؟ _____

ثم لنفـرض أن فكـرة الإنسـان عـن الإلوهيـة بـدأت كـذلك بسـيطة ثم تطـورت ، فهـل يـدل هـذا علـى أن الإلـه وهـم ولا حقيقـة لـه ؟ ! وقـد كانـت للإنسان في القرون الأولى فكرة ما عن الشمس والقمر والنجوم وظواهر الكون ، ثم تبـدلت الفكـرة وتطـورت حـتى أخـذت صـورتها التجريبيـة في القـرن العشـرين ، فهـل يـدل هـذا علـى أن الشـمس والقمـر والنجوم أوهام ليست لها حقائق ؟ !

ولماذا نذكر الشمس والنجوم وظواهر الكـون فـأكثر المفـاهيم الـتي يتصـورها

الإنسان للأشياء تبدأ هكذا بسيطة ومخطئة، ثم يمضي الإنسان مع الزمان يحك ويجرب وينقد ويمتحن حتى ينتهي المفهوم إلى صورته الأخيرة. وجميع المفاهيم والأفكار عند هؤلاء الماركسيين خاضعة للتطور. للحركة الديالكتيكية. فهل يدل ذلك على أن الأشياء كلها أوهام وأباطيل ؟.

أي منطق هذا المنطق، وأي أسلوب من الاحتجاج هذا الأسلوب ؟ ؟ !.

فلنقل ـ ولا ضير ـ أن الفطرة دفعت بالإنسان إلى معرفة ربه، فاندفع إلى ذلك منذ قرونه الأولى، ولكنه اخطأ السبيل وقصر دون الغاية، ووضع للإلوهية فكرة غامضة، قبس بعض حدودها من محيطه المحدود، وأكمل سائرها من فكره البسيط. ثم مضى مع الأزمان يصحح أخطاءه ويبتعد في حدوده. ويعمق في تفكيره، ويرجع إلى ركائز المعرفة من نفسه والى دلائل التوحيد من سواه، حتى بلغ الغاية التي يستطيعها الإنسان في هذا الميدان. وجاءت الأديان التوحيدية السماوية تبارك له جهوده وتسدد له خطواته. لنقل بهذا إذا لم يكن محيد عن تطور الفكرة، ولم يكن محيد عن تأخر التوحيد عن الشرك في النشأة.

أما الأديان. أما المناهج العملية التي تقدمها الأديان للأخلاق والتربية والسلوك والاجتماع والمعاملات فلا محيد من أن تهبط من السماء موافقة لمنزلة المجتمع من التطور، ولا محيد من أن تترتب شرائعها بحسب تلك الأدوار وقد تحدثنا عن هذا في بحوثنا عن الدين في ينابيعه الأولى.

فكرة عامة و عقيدة خاصة

والتوحيد في الإسلام فكرة عامة تتمثل في عقيدة خاصة.

فكرة عامة تقوم على طي الكون كله

في وحدة، وربطه كله في نسق، وتأليفه كله على غاية.

الوجود المنبسط على هذا الملكوت، المحيط بكل باد منه ومستور، الشامل لكل صغير فيه وكبير، هذا الوجود من أدناه إلى أعلاه، ومن اقرب مظاهره إلى ابعد تخومه كله ظل واحد لموجد واحد، والقانون العام الذي يسير عليه هذا الوجود المحيط توجيه واحد من مدبر واحد. والوجهة التي يتولى شطرها غاية واحدة لصانع مختار واحد. أما المادة فهي مظهر من مظاهر هذا الوجود، وأما الطبيعة فهي الطريقة المعينة لسير الوجود في المادة. وأما الحياة فهي مرقاة من مراقيه، وأما الإنسانية فهي النموذج الأعلى من نماذجه وأما كمال الإنسانية فهو القمة من التطور فيه.

فالكون والطبيعة والحياة الإنسانية مجموعة واحدة نشأت من معدن واحد عن علة واحدة وعلى طريقة واحدة. ونظم الكون والطبيعة والحياة والإنسانية متشابكة لا تنفصل، وغاياتها متداخلة لا تفترق.

وهذه فكرة الإسلام العامة عن التوحيد العام، واقرأ إن شئت هذه الآيات الكريمة: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[٣].

لا أطوف بعيدا فاذكر أسرار أومأت إليها الآيات ثم كشفها العلم بعد نزولها بقرون. ولكن مع الآيات في دلالتها الواضحة وفي مدلولاتها القريبة.

للإنسان ولمنافعه ولحاجاته هيأ الله الكون الأعلى وما يظل واعد الكون الأدنى وما يحمل. هذا ما تقوله الآيات الكريمة. للإنسان ولمنافعه ولحاجاته التي تتطلبها حياته ويتطلبها بقاؤه. وتتطلبها سعادته وهناؤه، بل وكرامته في الدنيا وسيادته في الأرض. للترفيه على الإنسان في شتى نواحيه كل هذا الأعداد وكل هذا الارصاد. للإنسان لينتفع به في حياته الأولى، وله لينتفع به في حياته الأخرى. ليستدل بها على صانعها وعلى وحدت وحكمته ووجوب طاعته.

من آيات الكون

وسواءاً أكان نفع البشرية غاية مقصودة من خلق الكون والطبيعة والحياة أم كان فائدة مترتبة على وجودها فان في ذلك دلالة عميقة على التعاون البالغ بين مظاهر الكون وأجزائه وعلى الاشتباك القوي بين قوانينه وغايته.

وشد العلم إزر هذه الفكرة فأبرز وجوهاً من وحدة الكون، وابدى ضروباً من أسانيد هذه الوحدة ومعززاتها، وهو لا يفتأ يكتشف ويستدل ولا يخطؤه الاكتشاف ولا التدليل.

فهذه الأرض الكدرة هذه الشمس المنيرة وهذه الكواكب السيارة وما يتبعها من أقمار وما تحتوي عليه من أجرام وأجسام كلها من اصل واحد. ولقد كانت في بدء أمرها شيئاً واحداً. هكذا يقرر العلم التجريبي الحديث. وقد قال الله سبحانه في القرآن الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا...﴾[٤].

وشمسنا هذه التي نعيش على ظهر كوكب صغير من كواكبها مع ما في المجرة من ألوف ملايين الشموس أمثالها ، ومجرتنا هذه التي تحتل الشمس والكواكب ناحية صغيرة منها مع ما في الفضاء من ملايين المجرات أشكالها ، كل هذه العوالم الكثيرة المتباعدة في الأمكنة متحدة في المادة متسقة في النظم متفقة في الحركة ٥ .

والحياة الموجودة على هذا الكوكب جزء من نظام الشمس ، لأنها تأنف من عناصرها وتغتذي من ثمراتها ، وتتقوم بحرارتها وإشعاعاتها .

والحيوان والنبات صنوان قريبان يمد احد هما الاخر بما يعوزه من العناصر ويرفده بما يفتقر إليه من الحاجات ، والطبيعة امهما الرؤوم والأرض مهد هما الوثير ومعهد هما المربي وحصنهما المنيع .

ونظام البصر في عين الإنسان واعداد طبقاتها وعدساتها وتحديد مجاري الضوء منها وتقدير منافذ الصورة ، كل هذا امتداد لقانون الأشعة التي توجهها الشمس ويمتلئ بها الأفق وتنتشر على كل مرئي وتنفذ إلى كل منظور .

وذرة الرمل الصغيرة مع المنظومة الشمسية الكبيرة شيء واحد فالمعدن فيها هو المعدن والطاقة هي الطاقة والنظام هو النظام .

وهذا الملكوت الواسع بمجراته الهائلة وعوالمه الكبيرة الكثيرة وأجرامه الفخمة الضخمة وما لها من توابع وظلال ومن أنظمة وحركات كلها يذعن لقانون عام واحد يقيه التصادم ويمنعه عن التخلف والاضطراب ويدفع به إلى التناسق والانسجام .

من صمم هذا القانون العام الواحد

ينشعب قانون كل موجود ، وكل جزء من كل كائن ، وكل خلية من كل جزء وكل ذرة من كل خلية وكل نوية وجسيم من كل ذرة ، والى الغاية الكبرى المحيطة ترد كل غاية جزئية لأي كائن جزئي .

وعلى هذه الفكرة الجامعة يجب أن تقوم فكرة الدين ونظرة الاجتماع وفلسفة الخلق ومنهج التربية ونظام الاقتصاد وقانون السياسة والحكم ، وعلى هذا الأساس يجب أن ترتكز كل نظرة تبحث عن الإنسان الفرد أو الإنسان الأمة ، وكل تشريع يعد للإنسان الفرد أو للإنسان الأمة .

هذه الفكرة الإسلامية الجامعة عن التوحيد وهي التي اثبت العلم كل مقطع من مقاطعها ، وأكد العقل كل منحى من مناحيها .

وفي ضوء هذه الفكرة فالبشرية جماعة واحدة ذات اتجاه واحد ويتحتم أن يظللها دين واحد ، وان تذعن كذلك لحكومة واحدة يرأسها إمام واحد .

والمسلمون إخوة اشقاء يصل بينهم نسب البشرية ولحمة العقيدة ورحم الدين ، والمسلمون أولياء على تنفيذ هذه الخطة وتحقيق هذه الفكرة ، يرشدون من يجهلها بالحسنى ويقوّمون من يزيغ عنها بالحجة ويخضعون من يكيد لها بالقوة .

أما من لا يشاء أن يقتنع ولا يحاول أن يكيد فهو وان نشز عن الوحدة التي يفرضها الإسلام ، وعن الفكرة الجامعة التي يحتمها قانون التكوين ، الا أن دين الإسلام يقرر له حرية المعتقد ، وحرية العبادة ، وحرية العمل ، وحرية المعاملة ، والمساوات الكاملة أمام العدل والكرامة الموفورة في الحياة وله على حكومة الإسلامية أن تصون له هذه الحقوق ، وان تفي له بهذه الضمانات .

يقـرر الإسـلام لـه هـذه الحقـوق ويضمن له هذه الحريات وينجز له هذه الضمانات ما دام لا يريد به كيداً ولا يقف له في وجه.

وما دام لا يريد كيداً بالإسلام بما هو دين، ولا يبدي له خلافاً بما هو دولة ولا يتربص به الدوائر بما هو وحدة، ولا يبتغي الفتنة بأهله ولا الصد عن سبيله. فهذه جهات لا يتسامح فيها الإسلام، ويتناقض مع نفسه لو تسامح فيها.

أشعة التوحيد

وعقيدة التوحيد عميقة الأثر ضاربة الجـذور في خلـق المسـلم وفي بنـاء شخصيته وتقويم طباعة وتزكية أعماله.

فهي تطوي جميع آماله في أمل، وتوحد كل صلاته في صلة، وتؤلف عامة أهدافه في هدف، فآمال المسلم الحق وروابطه وغاياته كلها محصورة في الله ربه الذي يخلص له في السر ويعبده في العلانية ويدعوه لكل نازلة ويلجأ إليه عند كل مهمة، في الله الذي بيده مساك الموت والحياة، وبتدبيره ملاك القبض والبسط، وبأمره تقدير النفع والضر. في الله الذي يأمله الأمل فلا يخيب ويلجأ إليه اللاجئ فلا يذل، ويتوجه أليه القاصد فلا يشقى.

تتوحد آمال المسلم كلها في أمل، وتنطوي صلاته بأجمعها في صلة، وتندمج غاياته بأسرها في غاية، ثم يشع أمله ذلك الواحد على كل أمل له في الحياة فيزدهر، وتمتد تلك كل صلة له في الدنيا فتزكو. وتتصل غايته بكل غاية له في الكون فتعظم.

يوقن المسلم بان الله وحده المعبود الحق، وان بيده وحده مقاليد الأمور، واليه وحده مصائر الأشياء فهو الإله الذي لا يُعبد غيره والرب الذي لا يملك التدبير سواه وهو الملك الفرد فلا ترجى

إلا رحمته ، ولا تخشى إلا نقمته . ولذلك فالمسلم لا يضرع ولا يتصنع لكائن سوى الله ولا يستعين ولا يرجو موجودا غيره ، ولا يحابي ولا يتملق ولا ينافق ولا يرائي .

ولم يفعل ذلك وهو يعلم أن من سوى الله عبد خاضع لن يملك لنفسه نفعا ، ولن يدفع عنها ضراً ، عبد خاضع خاشع رضي العبودية أم أباها ؟ فالمسلم رفيع النفس ، عزيز الجانب ، خفيف المؤنة ، صريح الكلمة .

ويوقن المسلم بان لك ما في الكون من القوى وكل ما يبد المخلوقين كافة من الحلول فهو في قبضة الله وتحت سلطانه ، ينفذ فيه حكمة وتتصرف فيه إرادته . والله مقدر الآجال ومسبب الأسباب ، ثم لن تستطيع اية قوة في العالم نقض ما أبرم أو تأخير ما قدم . ولذلك فالمسلم لا يرهب إلا الله . ولا يحذر إلا بطشه ولا يخشى إلا غضبه .

وكيف يخاف احد غير الله وهو يعلم انه ضعيف الحلول إلا حين ينتصر بالله ، واهن الكيد إلا حين يستعين به ، معدوم القوة الا حين يلتجئ إليه ؟ فالمسلم ثابت العزيمة قوي النفس بعيد الهمة .

ويوقن المسلم بان كل ما في السماوات وما في الأرض من متحرك وساكن ، ومن صغير وكبير ، ومن حي وجامد وكل ما بيد الإنسان من مال وثروة وما يعتز به من مجد وسطوة فهو ملك خالص لله الغني الذي لا منتهى لغناه ، الوهاب الذي لا حصر لجوده ، القادر الذي لا حد لسلطانه ولا أمد لقدرته ، ولذلك فالمسلم لا يزدهي بثروة ولا يستطيع بقوة ولا يحسد على نعمة ، ولا ييأس من رحمة ، ثم هو لا يظلم ولا يحيف ولا يتكبر .

ولم يصنع ذلك وهو يعلم أن كل ما في يده او في يد غيره فهو لله الجواد

الذي لا يبخل، العدل الذي لا يظلم، العزيز الذي يهب النعمة انى شاء بقدرته، ويسلبها انى شاء بحكمته؟ فالمسلم عف الضمير، نقي السر طاهر العلانية، موصل الامل بالله شديد الثقة بتدبيره.

وهذه الدرجة من التوكل لن تقعد بالمسلم عن خوض غمار الحياة، ولن تقصر به في شيء من مجالاتها. فقد ألهمته الفطرة السليمة إن لكل امر مدخلاً، وقد لقنه الإسلام لكل شيء سبباً، ولا عذر له من أن يلتمس رزق الله من سبله التي يسرها ومن موارده التي قدرها، ولكن المسلم من اجل هذا اليقين الذي يفعم قلبه ويملأ جوانحه - هادئ النفس حين يعمل، قوي الطمأنينة حين يكسب، ثابت الجنان حين يخفق، متزن المشاعر والاعمال حين يستغني وحين يفتقر وهو من اجل هذا اليقين الذي يفعم قلبه ويملأ جوانحه معاني من العقد التي تخشو نفوس الآخرين والاضطرابات التي تظلم آفاقهم وتسعر حياتهم.

والمسلم يرجو من كسبه سد العوز في دنياه ونيل المثوبة في آخرته فقد علم من بدائة دينه ان الكسب الحلال الطيب قربة كبيرة يتعبد بفعلها الى ربه، ويتطلب بها رضا ويبتغي بها الزلفة لديه. فهو يسعى في الحياة بأملين ويكدح بحافزين، ولذلك فهو أقوى جلدا وأرهف عزيمة وأدنى إلى الفلاح وأرجى للغاية من الكادحين الآخرين.

والمسلم يعلم أن في الفقر مهانة لا تتفق وعز الإسلام، وضعة لا تنسجم والكرامة التي يبتغيها للمسلم، وضعفاً لا يقوم للوظائف التي ينبطها به، فهو يكافح هذا الخصم ما وجد الى كفاحه سبيلاً. وهو كذلك يتقرب إلى الله بمناجزته ويستمد منه العون عليه ويتبع

هداه في خوض غمارها .

ويوقن المسلم بأن الله مطلع فلا تخفى عليه خاطرة نفس ، عليم فلا تغيب عنه خالجة قلب ، محيط فلا يضل عنه مثقال حبة ولا مقدار ذرة ، ثم هو حاكم لا يجوز عدله ظلم ، جبار لا يقوم لغضبه شيء ، قاهر لا يفوت قدرته حي ، ولذلك فالمسلم لا يعصي الله في سر ولا يتعرض لمقته في علانية ، ولا يتباطأ عن حق ولا يتسامح في حد .

وأنى يجرؤوا على شيء من ذلك وهو يعلم أن الله شديد الأخذ على الجريمة ، أليم البطش على انتهاك الحدود ، فالمسلم مأمون العثار صادق اللهجة زكي الروح ، محمود السلوك .

ويوقن المسلم بأن الله الذي فرض عليه الإيمان وحببه إليه وزينه في قلبه قد ربط بينه وبين سائر المؤمنين بالأخوة ، وسوّى بينه وبين عامة البشر في الحقوق وأوجب عليه النصرة لكل مسلم إذا ظلم ، وفرض عليه النصيحة لكل بشر إذا جهل و الهداية لكل جاهل إذا ضل . ولذلك فالمسلم نزيه الطوية عن الحقد رفيع الهمة عن الخداع مجبول الطبيعة على الإحسان . والمسلم عون الله للضعيف ، ودعوة الله إلى الخير ، وقّيم الله على إقامة الحق وإفشاء العدل وإنارة السبيل وإيضاح الدليل .

ويوقن المسلم بأنه حين يؤمن بالله ويحكم صلته به وحين يمتلئ بهذا الإيمان عقله ونفسه وقلبه وجوارحه فإنما يصل عقله ونفسه وقلبه وجوارحه بالقوة التي لن تضعف ، وبالعظمة التي لن ترام والعزة التي لن تظام والقدرة التي لن يمتنع منها شيء وبالنور الذي لن يطفأ ، والعلم الذي لن يجهل . ولذلك فالمسلم لا يعرف الجبن في موقف ولا يناله الخوف من حادث ولا يدركه

الصغار في مقام، ولا يقيم على ضيم ولا يخلد إلى مهانة، والمسلم مشرق الروح نير العقل والقلب، يستمد صنوف كماله من أعماق نفسه. من صلته الوثقى التي ملأت آفاقه وملأت حياته. من هذا السلك الذي يشده بمصدر كل كمال وينبوع كل خير وجمال. من صلته العظمى بربه.

كذا تنفذ أشعة التوحيد في أعماق الفرد المسلم وتضيء آفاقه وتوقظ ضميره وتبني شخصيته، وتوجه إرادته ومشاعره وتحكم أشواقه ورغباته. فلا يعثر ولا يتردد، ولا ينكب عن سبيل الهدى ولا ينكفىء دون الغاية، ولا يتهرب من واقع ولا يلتوي في قصد.

ثم تنفذ في أعماق المجتمع المسلم وتطهر صلاته وتضبط حدوده، فلا بخس لحق ولا خسر لميزان ولا أثرة ولا تحاسد ولا تباغي ولا نفاق ولا مداهنة، ولا إغضاء على ظلم، ولا حيف في حكم ولا استبداد من راع ولا التواء من رعية.

إن الإسلام بشرائعه ومعارفه و هداياته وآدابه ومفصلات نظمه ومبسطات مناهجه يتجمع وينطوي وتتداخل حدوده وتندمج تعاليمه حتى يكون وحدة لا تعدد فيها من وجه، هي عقيدة التوحيد التي يدين بها المسلم لبارئه ويخضع من أجلها لقوله.

فالإسلام هو التوحيد مجلو القسمات مبين الظِلال والسمات.

والتوحيد هو الإسلام مجمل التفاصيل مطوي الحدود، متجمع الطاقة.

وهذه هي الحقيقة الرائعة التي قررها داعية الإسلام الأول لما قال كلمته الأولى: (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) لما ضمن للناس الفلاح أن يقولوا هذه الكلمة ويؤمنوا بهذه

العقيدة .

أما تنزيه الله عما لا يليق بجلاله من الصفات ، وتقديسه عما ينافي حكمته من الأفعال .

اما هذه العقيدة فهي من شعب التوحيد الخالص والغني الذاتي المطلق .

فما كان للعقل المستنير أن يؤمن بان الله وحده واهب كل كمال في هذا الوجود ومصدر كل غنى ومؤتي كل رحمة ، ثم يرتاب بعد ذلك أو يزعم أن هذا الوهاب ليس جامعا لصنوف الكمال ، او ليس متفرداً بضروب الغنى . وما كان للعقل أن يقول بهذا بعد أن آمن بذلك فان من بدائة الأشياء إن من لا يملك شيئاً لا يعطيه .

وما كان للعقل المستنير أن يعترف بأن الله وحده واهب الكمال لكل كامل ومانع الرفعة لكل رفيع ومؤتي العظمة لكل عظيم ، ثم يبتغي بعد ذلك أن يجد لله شبيهاً من خلقه ومضارعاً له في نعوته . ما كان للعقل أن يبتغي هذا بعد أن اعترف بذلك فما شباهة مفتقر في وجوده محدود في كماله بغنى غير متناه ولا محدود ؟

وما كان للعقل المستنير أن يقول : بارئ الكون مستغن بذاته عن كل شيء ، ثم يقول بعد ذلك وله صفات هي غير ذاته يستجمع بها ضروب الكمال . وما كان للعقل أن يقول بهذا متى أيقن بذلك لأنه تناقض صريح سواء أكانت الصفات التي يعنيها قديمة ام حادثة ، وسواء أكانت واجبة أم ممكنة ، مادامت زائدة على ذاته . (على حد تعبير علماء الكلام) وما دامت تعني أن الذات استكملت بها من نقص وأفادت بها من عُدم .

وما كان للعقل المستنير أن يقول : واجب الوجود واحد يستحيل عليه أن يتعدد ، احد يمتنع عليه أن يتركب . ثم

يقول: ولبارئ الكون صفات غير ذاته هي كذلك واجبة الوجود. وما كان للعقل أن يقول بهذا متى اعترف بذلك. فان وحدة واجب الوجود تمنع أن يكون متعددا، وبساطته تحيل أن يكون مركباً. أما إذا ادعى أن الصفات ممكنة فانه يكون اشد إحالة و أوضح منعا.

وما كان للعقل المستنير أن يقول: مبدع العالم حكيم لا منتهى لحكمته وغني لا حد لغناه، ثم يقول: وهو الذي يقتاد العباد إلى عمل الطاعة إذ يطيعون، و يقتسرهم على ارتكاب المعصية إذ يعصون. يفعل ذلك بهم ثم يأخذهم بتبعات أعمالهم وينزل بهم العقوبات على مخالفاتهم. ما كان للعقل أن يقول بهذا متى اقر بذلك لانه تناقض بينّ.

والبحث عن حقائق صفات الله سبحانه كالبحث عن كنه ذاته كلا هما مما يستعصي على العقل أن يخوض فيه، فان للعقل آفاقاً محدودة من المعرفة ليس في طرقه أن يجوزها، ولمعرفته وسائل معينة ليس في مكنته أن يتعداها.

ولن تزال أمام الإنسان أعداد هائلة من المحسوسات لم يستكنه حقائقها بعد ولعله لن يستطيع ذلك أبدا

ما حقيقة هذه الحياة التي ينعم بها الأحياء ؟.

وما كنه هذا الوجود الذي تستبين به الأشياء ؟.

بل وما جوهر هذا العقل الذي يطمع أن يكتشف ؟.

وما هذه النفس التي ترغب أن تكتمل ؟.

هذه أمور قريبة قريبة جداً من الإنسان. إلا أنها بعيدة بعيدة جداً عن إدراكه فكلها ألغاز لم يكتشفها العقل

بعد ولعله لن يستطيع كشفها ابداً .

وإذا أعيى على العقل أن يستجلي هذه الحقائق ـ على أنها قريبة منه بل ومندمجة في حدوده فكيف يطمع أن يدرك حقيقة واجب الوجود أو أن يحيط بكنه صفاته ؟ .

إنها محاولة مستحيلة ما في ذلك شك .

ولكننا إذا أحلنا هذا على العقل الإنساني لأنه لا يملك الوسائل التي تبلغه إليه ، أفنحيل عليه كذلك أن يدرك أن الواحد لا يمكن أن يكون متعدداً ، وأن البسيط لا يسوغ أن يكون مركباً ، وأن الكامل لا يجوز أن يكون ناقصاً ، وأن الإله الحكيم العادل لا يعقل أن يكون ظالماً ؟ . أنحيل عليه أن يدرك أن الموجود إذا وجبت له صفة معينة امتنع عليه أن يتصف بضدها ؟ .

إن هذه إمور تدخل في حدود البداهة فليست تخفى على عقل ولا يسعه أن يرتاب في واحد منها ، وهي بذاتها عين النتائج التي تحدثنا عنها .

الغنى الذاتي

بارئ الكون غني بذاته عن كل شيء ، ولا حد ولا أمد لغناه ، فكل ما يغمر جهات العوالم من خير وبركة ، وما يملأ رحال الأفق من عناصر وقوى ، وما يزخر به واسع الفضاء من أفلاك وأجرام ، وما يزحم مناكب الأرض من حي وجامد ، وما يسد فروجها من معادن وخزائن فهو فيض من غناه وبسط من جوده ، ثم لو قدرنا الفناء على جميع هذه المكونات لم ينقص من غنائه مثقال ذرة ، ولو أضيفت إليها أضعافها وأضعافِ أضعافها لم يزد ذلك في ملكوته قيد شعرة : ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا * لَهُمْ

فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا * وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ ٦أجل. كل ما يزخر به هذا الملكوت العظيم فهو في قبضته، وفناؤه وبقاؤه بمشيئته، فهل هذا هو معنى غناه الذاتي؟

قد يكون هذا مظهراً من مظاهر الغنى الإلهي، ولكنه لا يصلح أن يكون تفسيراً له.

وبارئ الكون يمنح الوجود والحياة، والقوة والسعة، والكمال والدعة، والرفعة والسيادة، والهناء والغبطة، وما يصبو إليه الإنسان في وجوده وما يتطلبه لبقائه وما يكدح للسيطرة عليه لسعادته، وما يفتقر إليه غير الإنسان من الأحياء والأشياء، لا لنفع يرتجعه من هذه المنح، ولا لجزاء يأمله كفاء هذه الهبات، وإنما هو محض الإحسان وسجية التفضل، وهو يفرض على الخلق أن يؤمنوا به ويكلفهم بأن يطيعوه ويلزمهم بأن يتبعوا دينه ويستمسكوا بشريعته لا لمنزلة يرجوها من إيمانهم، ولا لرغبة يبلغها في عبادتهم، وإنما هي دلالة لهم على وظيفة العبودية وأخذ بأيديهم الى منهج السعادة، ثم لو كفر هؤلاء العبيد كلهم بنعمته وجحدوا بربوبيته لم تتضع بذلك له منزلة ولم يتخلخل له سلطان ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ...﴾ (٧). فهل هذا هو معنى غناه الذاتي؟

بارئ الكون غني في وجوده وفي كل نعت من نعوت كماله عن العلة، وغني في صنعه وفي كل مجلى من مجالي قدرته عن الظهير، وغني في تدبيره وفي كل ظاهرة من ظواهر حكمته عن المشير، ثم هو متنزه في ذاته وفي كل شأن من شؤون عظمته عن الحاجة، ومترفع في غناه وفي كل معنى من معاني

جلالته عن التحديد .

وإذا تنزه عن الافتقار والحد والتعليل في كل معنى من معاني الكمال فهو عن العبث والظلم أشد تنزهاً وأعظم تعالياً .

هذا هو المعنى الظاهر للغنى الإلهي أو هو اللازم القريب من لوازمه .

فإذا أيقن المسلم لربه بهذا الغنى وإذا آمن له بهذا التنزيه ، فهل يستطيع أن يؤمن أيضاً بأنه يستكمل بصفته أو يمتدح بعبث أو يستطيل بظلم ؟ .

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وتعالى المسلم أن يدين لربه بهذه العقيدة .

وتعالت عقيدة التوحيد في الإسلام عن مثل هذا الإسفاف وهذا الالتواء .

الهوامش :

١. لودفيج فيور بارخ ص ١٥ .
٢. ص ١٧ نفس المصدر السابق .
٣. القران الكريم : سورة النحل (١٦) ، الآيات : ١٠ – ١٦ ، الصفحة : ٢٦٨ .
٤. القران الكريم : سورة الأنبياء (٢١) ، الآية : ٣٠ ، الصفحة : ٣٢٤ .
٥. يقول علم الفلك الحديث : أن أرضنا هذه التي نحيا ونعيش عليها يبلغ متوسط قطرها سبعة آلاف وتسعمائة وسبعة وعشرين ميلا ، وتبلغ كتلتها خمسة آلاف مليون مليون طن . وهي أعداد كبيرة بل وهائلة إذا قيست إلى ما يألفه الإنسان من مسافات وأوزان .

ولكن العلم يقول ايضاً : وكتلة الأرض هذه التي قدرناها بهذا العدد الضخم لا تزيد على جزء واحد من ثلاثمائة واثنين وثلاثين ألف جزء من كتلة الشمس ! ! فهي إذن صغيرة جدا إذا قسناها بالشمس ، وكذلك الكواكب السيارة التي تدور حول الشمس . واكبر هذه الكواكب هو المشتري ، وكتلته على ما يقولون اكبر من الأرض ثلاثمائة وسبع عشرة مرة . ولكنه على ضخامته لا يبلغ جزءاً من ألف جزء من كتلة الشمس .

و يقولوا علم الفلك الحديث : إن أرضنا تبعد عن الشمس بثلاثة وتسعين مليون ميل ، أي بنحو من ثمان دقائق يقطعها الضوء بسرعته العظيمة . وابعد السيارات عن الشمس هو كوكب (بلوتو) وقد قدروا متوسط بعده بثلاثة ألاف وستمائة وسبعين مليون ميل ، أي

بنحو من خمس ساعات ونصف بسرعة الضوء وهي أبعاد شاسعة سحيقة لا عهد للإنسان بمثلها .

ولكن العلم يقول أيضاً : إن قرب النجوم إلينا لا يصل نوره إلى الأرض إلا بعد أربع سنين ضوئية ! ويقول كذلك : إن قطر مجرتنا يبلغ نحواً من مائة ألف سنة ضوئية ! ! فما يكون قدر مجموعتنا إذن وما قدر أبعادها وأبعاد مدتها إذا قيست بهذه المسافات الهائلة ؟ . أليست ـ كما قلنا ـ إنما تحتل بقعة صغيرة من هذه الحدود السحيقة ؟ ! .

وكشف العلم إن مجرتنا تحتوي على مائة ألف من ملايين النجوم من ملايين الشموس وأن بعض هذه النجوم يكبر شمسنا مئات المرات حجماً ويفوقها مئات المرات بهاءاً ولمعاناً .

وكشف إن في هذا الفضاء الرحب ألوفا من ملايين المجرة الواحدة منها على ما يناهز هذه الأعداد نجوما ، وتقول مؤلفة كتاب (مع النجوم في تطوراتها) : " لعلها (وتعني المجرات") تبلغ مئات الملايين" .

و وجد إن الأقمار تتحرك حول نفسها وحول كواكبها ، ووجد إن الكواكب تتحرك حول نفسها وحول الشمس ، وان الأقمار تتبعها كذلك في هذه الحركة .

ووجد إن الشمس تتحرك حول نفسها وتتحرك نحو (النسر الواقع) ، وان المجموعة بكواكبها وأقمارها تتحرك بحركة الشمس في ذلك الاتجاه .

ووجد إن المجرة تتحرك حول نفسها كذلك وان الشمس وتوابعها والبلايين من النجوم التي تملأ أكناف المجلاة تتحرك ايضاً بحركتها ! ! .

ثم وقف ليس يدري ما وراء ذلك . لعل حشد المجرات هذا الذي رآه رأي عين يؤلف مجرة للمجرات ؟ ! .

لعل لهذا الحشد أمثالا كثيرة في الكون تبلغ الملايين أو مئات الألوف من الملايين ؟ !

ولعل هذه الحشود أيضاً تتحرك حول نفسها وحول شيء آخر ؟ !

وقف العلم ليس يدري ، فان المرقب الذي تمكن من صنعه إلى الآن لم يتجاوز مرآته مائة بوصة أو مئتين . وما ندري ما سيثبته لنا إذا بلغت مراته المئات أو الالوف من البوصات ! ! .

إن العلم يسير بانتظام ، ويكشف إن كل ما في الكون يسير على نظام . ويقفز العلم ويتقدم ، وينمو ويمتد ، ويطرد تقدمه في كل وجه ، ويطرد فوزه في كل تجربة . ويقف الإنسان الكنود الجحود . الإنسان الذي يزعم لنفسه الحصافة والذكاء مدهوشاً مذهولاً ، يسبح بحمد العلم لأنه كشف عجيبا ، ولا يسبح بحمد الله لأنه خلق عظيماً ! ! .

يرى في الكشف ما يدل على عظمة الكاشف ، ولا يجد في الخلق ما يستحق إن يدل على وجود الخالق ! ! .

مئات ألوف من ملايين النجوم تسير في مداراتها العظيمة وبسرعتها المدهشة ثم لا يصطدم بعضها ببعض ولا يقترب بعضها من بعض . و ألوف من ملايين المجرات تتحرك طول الدهر ولا تهدا حركتها ولا تخف سرعتها ثم لا يخرج شيء منها ولا من نجومها عن سبيله ولا ينفرط عن نظامه .

يرى الإنسان ذلك كله ولا يشك فيه ، ثم لا يدله هذا القانون على واضع ولا يرشده هذا التدبير إلى مدبر ! ! .

انه افتئات على العقل وخروج على حكمه .

٦. القران الكريم : سورة الفرقان (٢٥) ، الآيات : ١٥ – ١٧ ، الصفحة : ٣٦١ .

٧. القران الكريم : سورة الزمر (٣٩) ، الآية : ٧ ، الصفحة : ٤٥٩ .

السيد محمد باقر الهاشمي

كاتب من العراق/ حوزة النجف الأشرف.

المنهج الاجتماعي عند العلماء المسلمين في إثبات المسائل الدينية والكلامية

لم يعر علماء الإسلام اهتماما للبحث عن نشوء الدّين كما فعل مفكروا الاجتماع الدّيني الغربيّ؛ لإيمانهم المسبق بسماوية الدّين، ولكن أكّدوا على ضرورة الدّين في حياة الإنسان؛ وذلك عبر استقراء طويل لتاريخ الإنسان، فحتى أولئك الذين لم يصلوا إلى الاهتداء بالأنبياء والرّسل، فإنَّ حياتهم لم تخلو من أجواء دينية اصطنعوها أو فرضت عليهم كممارسات وعادات، أو أنَّ تلك الأديان المنحرفة هي ذات منشأٍ سماوي، ولكن نتيجة لعدّة عوامل انحرف مسارها، كل ذاك مؤشّر كبير على البعد الدّينيّ الموجود

في الإنسان، حتى اعتبره البعض بُعداً رابعاً عند الإنسان؛ إذ « الملاحظ أن بعض علماء النفس يعتقد بأنَّ لعبادة الله والتديّن في واقعه دافعاً فطرياً مستقلاً، يعبّر عن مصدره الشعور الديني، ويعتبره بعداً رابعاً للروح الإنسانية، بالإضافة إلى حب الاستطلاع، والشعور بالخير، والشعور بالجمال »[1].

و لكن هذا الإيمان بسماوية الدين، لم يمنع من البحث عن أثر الدين داخل المجتمع، وأثر المعتقدات الأصولية والفرعية، وتفاعل المجتمع الديني وخصائصه، وإن لم يكن البحث بصورة تأصيل لاجتماع ديني إسلامي، إلّا أنَّ هذا البعد الديني بدا واضحاً في عقلية علماء الإسلام في بناء نظرياتهم الفلسفية والاجتماعية؛ فقد ذكرت كثير من الوظائف والانجازات الاجتماعية عند المفكرين الاجتماعيين الإسلاميين، بحيث لا مناص من الدين في المجتمع، ودراسته على إثر المنهج الاجتماعي والبعد الاجتماعي للعقائد الدينية؛ فمن الانجازات الاجتماعية للدين[2]:

١. إنَّ الدين يعدُّ ظاهرة اجتماعية، ولكن يمكن أن يكون سياسة وأيديولوجية، ونستطيع كذلك استشفاف البعد السّلميّ والخيريّ منه، واستثماره في مجال الاتحاد، والانسجام فيما بين أبناء البشرية.

٢. يعتبر الدّين الحل الوحيد للمعضلة الاجتماعية (عدم التّوافق بين المصالح الاجتماعية والفردية)؛ لأنّه يعدّ الإطار الوحيد الّذي بإمكانه حل المشاكل والتناقضات الفكرية والاجتماعية، فهو في حصيلته الفردية والاجتماعية والمعنوية يمكنه استبدال النعيم الزّائل والعابر بنعيم خالد وأبديّ، واجتثاث جذور الأنانية وعدم المساواة والظلم، والارتقاء ببواعث التعاون والترفّع

والإيثار والمحبة. فالدين قادر على استبدال المصالح الفردية والنفعية الضيّقة والتي لا ترتقي عن المستوى المادي والدنيوي بمصالح أعلى ومقاصد أسمى.

٣ـ يولي الدين الإرادة الإنسانية أهمية خاصّة ويعمل على تعزيزها وجعلها خاضعة وتابعة للعقل وأوامره، ويبعث في الإنسان الأمل للوصول إلى الكمال والتّطور والازدهار.

إنَّ ابن خلدون، رائد علم الاجتماع ومؤسسه كما يعتقد الكثير من الباحثين بذلك، جعل من الدين ركيزة أساسية في بناء المجتمع والدولة؛ «إن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها والسبب في ذلك كما قدمناه أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء؛ لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم وهم مستميتون عليه»[٣].

لقد نظر ابن خلدون للنبوة في حيثيتها الاجتماعية، واعتبرها أحد عوامل التغيير في المجتمع، وأنَّ هدف الأنبياء إنما زرع قيم اجتماعية جديدة، فالنبوّة بهذا اللّحاظ ضرورة اجتماعية؛ لأنّها على الدوام عنصر فاعل في إيجاد قيم يحتاجها المجتمع على الدوام، فالنبوّة تعني رسل الله إلى المجتمع، لزرع قيم اجتماعية جديدة، مما يعني مجتمعاً آخر:

(النبوّة ظاهرة اجتماعية ← قيم ومبادئ اجتماعية جديدة مع النبوّة مجتمع جديد بفعل النبوّة).

و من خلال هذا المخطط التوضيحي ـ البسيط ـ يفهم ضرورة النّبوة في المجتمع بوصفها ظاهرة اجتماعية من

الله تبارك وتعالى لتبدأ بالمجتمع وتنتهي به، لتسد حاجاته: في هذا الصدد يقول الدكتور مهدي قصّاص: «والنبوة كما يراها ابن خلدون ظاهرة إنسانية اجتماعية، فالنبي كائن بشري وخصائصه إنسانية اصطفاه الله ليحمل رسالته، وهدف النبي اجتماعي؛ فهو مرسل ليثبت في المجتمع مفاهيم جديدة من شأنها أنْ تغيّر طريقة حياته، كما تخلق فيه أنظمة جديدة واتجاهات جديدة، فالأنبياء في نظر ابن خلدون يلعبون دوراً اجتماعياً كبيراً في التّاريخ»[٤].

أما الفارابي؛ فإنَّ التّدقيق والتمحيص في مدينته الفاضلة فإنَّها «محاولة توفيقية بين الفلسفة الاجتماعية اليونانية والدينية»[٥]، وكانت شروط الفارابي في القائد والمجتمع شروطاً عقلائية يرتضيها أي عقل سليم، ولكن لا يخفى أثر الفكر الديني الإسلامي في صياغته لمثل هذه الشروط، والتي يوجبها الإسلام في القائد، ويوجب غيرها أيضاً؛ ويعني ذلك حضور الدين في بناء النظريات الفلسفية، ومحاولة تأطير الفكر الاجتماعي وبناءه دون إغفال لتصوّر الإسلام عن المجتمع الذي يسعى إليه.

كل ذلك يعتبر محاولات أولية لاكتشاف أثر الدين ورؤيته للمجتمع، مما يعني بوادر تأسيس علم اجتماع إسلامي يدرس خصائص المجتمع الإسلامي، أو أثر الدين في المجتمع روابطه، وإن كانت هذه المحاولات ليست مباشرة في الوغول في هذا الصدد، فلا يمكن الحديث عن منهج اجتماعي في تلك الحقبة، ولعل انفصال علم الاجتماع عن الفلسفة هو ما حرّك الراكد، وهي مرحلة متأخرة عن ذاك العهد.

لقد عرفت العلوم الاجتماعية تقدّماً

كبيراً إبّان النهضة العلمية الحديثة في أوروبا، وهو ما انتقلت آثاره وإن في مرحلة متأخرة إلى علماء الصحوة والنهضة الإسلامية، ولعل الدافع وراء هذا انتشار الأفكار الاجتماعية عن الدين بنظرة غربية وفرضها على الساحة والفكر الإسلامي مما يعني نسف كثير من القيم والمبادئ الدينية التي جاء بها الإسلام، هو ما دعا كبوادرٍ أولية إلى بحث اجتماعي بطابع ديني يدرس العقائد والفقه وتكوين المجتمع الإسلامي من هذا الأفق الاجتماعي ذات طابع إسلامي، وكانت البذرة الأولى ـ كما يعتقد البعض ـ على يدِّ السيّد جمال الدّين الحُسيني المعروف بالأفغاني، فقد استوعب الفكر الاجتماعيّ الغربي إلّا أنّ فكره لم يكن ناسخاً أو ناقلاً لتلك المؤديات الغربية الاجتماعية، بل نظر وفكّر وراجع في الحيثيات الاجتماعية الغربية، وحاول أن يجد البديل الاجتماعي الإسلامي لها « فنظر السيّد جمال الدين إلى الفكر الاجتماعي الغربي، ليست نظرة إعجاب عفوي، أو انبهار، بل عن نظرة تمت من خلال القيم والمفاهيم الإسلامية كالعدل والشورى والتوازن في مجال العلاقة بين الفرد والمجتمع، والعلاقة بين الثابت والمتغيّر في مجال القيم الأخلاقية والمصدر الغيبي المتعالي لهذه القيم والمفاهيم السابقة، فالفكر الاجتماعي المعاصر عاش ابتداء من السيد جمال الدين علاقته بالفكر الاجتماعي الغربي بشخصيته المتميزة، وتعامل معه تعاملاً يتّسم بالتفتح والنقد في نفس الوقت »[٦].

فيما كان السّيد جمال همّهُ الأكبر ينحصر في إعادة الفكر والوعي والتخلّص من الجهل والرّكود الذي يعاني منه المسلمون في شتّى أصقاع العالم، لم يخفَ عنه آنذاك أن المواجهة

لا تنحصر بالنهضة المعرفية العامة، بل فهم أنَّ أزمات الأمة تبدأ من خلال التفريط بعقيدتها، أو ما يطرأ عليها من شبهات تحاول حرف مسارها، فكان كتابه (الرد على الدهريين) والملحدين، ولكن هذه المرّة كان البحث العقائدي والرّدُّ على المسلك الإلحادي بالعقائد مختلفاً عن ما هو معروف في الاستدلال والنقض في الكتب الكلامية، هذه المرّة كان المنهج الاجتماعي هو السبيل للرد على هؤلاء، فبحث آثار الإيمان بالتوحيد اجتماعياً ومضار إنكاره، ودلل على ضرورة التوحيد اجتماعياً ومن خلال البحث في ضرورات المجتمع، وكذلك المعاد، فقد سار سيراً اجتماعياً ليدلل على فساد النظم في المجتمع غير المؤمن بالمعاد.

إنَّ آثار السّيّد جمال الدين تكشف عن وعي في العقيدة ووظائفها الاجتماعية، لقد بات الإيمان هو الركيزة التي يستند إليها الأمن الاجتماعي، والينبوع الذي تستقي منه العلاقات الاجتماعية الحياة، هذا ما يظهر من كلام طويل له، يقول: « الإيمان بأن للعالم صانعاً عالماً بمضمرات القلوب ومطويات الأنفس، سامي القدرة، واسع الحول والقوة، قدّر للخير والشر جزاء يوفّاه مستحقه في حياة بعد هذه الحياة، وازعان قويان يكبحان النفس عن الشهوات، ويمنعانها عن العدوان، ظاهره وخفيه، وحاسمان صارمان يمحوان أثر الغدر ويستأصلان مادة التدليس. وهما أفضل وسيلة لإحقاق الحق، والتوقف عند الحد. وهما كذلك مجلبة للأمن، ومتنسّم للراحة. وبدون هذين الاعتقادين لا تقرر هيئة للاجتماع الإنساني، ولا تلبس المدينة سربال الحياة، ولا يستقيم نظام المعاملات، ولا تصفو صلات البشر من شائبات الغل، وكدورات

الغش، فتسكن شياطين الرذائل في القلوب، ويُمحى كلّ ما يمكن أن يحمل المرء على المعاونة والمرادفة والرحمة، وعلو الهمة، وما أشبه ذلك من الأخلاق التي لا غنى للهيئة الاجتماعية عنها »[٧].

هنا يبدو الإيمان محوراً أساسياً للاجتماع الإنساني، إذ لا تستقيم العلاقات دون هذا المعتقد، ليكون النظام الاجتماعي الإنساني دليلاً اجتماعياً على ضرورة الإيمان بالخالق، دليلٌ يختلف في محتواه وطرائق المتكلمين العقلية والنقلية والجدلية وغيرها، بل سير في المجتمع وضروراته لينتج دليلاً يعطي المعتقدات بعدها الاجتماعي، وفي الوقت نفسه يدلل عليها.

وفي السّياق نفسه يؤكد السّيّد جمال الدين على أهمية المعاد، وأنَّ إنكاره أحد السّبل لعدم استقامة النظام الاجتماعي، يقول: « إلّا أنَّ قليلاً من هذه الطائفة[الدهريين] عملوا على إخفاء مقصدهم الأصلي، وهو الإباحة والإشراك، واكتفوا في ظاهر الأمر بإنكار الألوهية، وبجحود يوم الدّين يوم العرض والجزاء، وقد يظن بعض ضعفة العقول أنَّ في ذلك بسطة الفكر وسعة الحرية لهذا أحببت أنْ أبيّن أنَّ هذه النزعة وحدها كافية في إفساد الهيئة الاجتماعية، وتزعزع أركان المدينة، وليس من ضروب الباطل ما هو أشد منها تأثيراً في محو الفضائل وإثارة الخبائث والرذائل »[٨].

إنَّ بوادر الفكر الاجتماعيّ وسحبه إلى دراسة المرتكزات والعقائد والتدليل عليها كانت السمة البارزة في هذا الحقبة لتمتد الى فترات لاحقة لما بعد السيد جمال، وصولاً إلى طلبته الشّيخ محمد عبده، وما بعده، ولكن يمكن القول: إنَّ الفيلسوف الهندي محمد إقبال أصّل لهذا المنهج تأصيلاً واضحاً

في كتابه (تجديد الفكر الديني في الإسلام) ، فإنَّ السّيّد جمال الدين وإن كان له قصب السّبق في إبداء هذا الإطار المنهجي الاجتماعي، إلّا أن عمق التنظير ظهر مع إقبال بشكل بارز ، فإقبال يعتقد « إنَّ الإنسانية تحتاج اليوم إلى ثلاثة أمور: تأويل الكون تأويلاً روحياً ، وتحرير روح الفرد ، ووضع مبادئ أساسية ذات أهمية عالمية توجّه تطور المجتمع الإنساني على أساس روحي. ولا شك أن أوربا في العصر الحديث قد أقامت نظماً مثالية على هذه الأسس ، ولكن التّجربة بيّنت أنَّ الحقيقة التي يكشفها العقل المحض لا قدرة لها على إشعال جذوة الإيمان القوي الصادق ، تلك الجذوة التي يستطيع الدين وحده أن يشعلها »[٩] .

لقد كشف إقبال أنَّ العقل المحض ونتائجه لم تستطع أن تشبع روح الفرد ، لأنّها غير معنية بهذا الجانب ، ولذا فإنَّ الإنسانية تظل دائماً في محور الحاجة والنقص لتسدَّ هذا الجانب ، وليس الحديث عن مسلم أو مسيحي ، إنّها مسألة تعيش في أعماق النّفس الإنسانية دون فرق بين اتجاهاتها ، ولذا ، فإنّه لا محيص من الاتجاه نحو جانب ينهض بالإنسان وقضاياه بشكل يحس معه الإنسان أنَّ سدَّ محور الحاجة الإنسانيّة عنده ، هنا يشير إقبال إلى الدّين وضرورته ، ويشير إلى الإنسان المسلم وإيمانه الرّوحيّ ، يقول : « إنَّ الدّين استطاع دائماً أن ينهض بالأفراد ويبدّل الجماعات بقضها وقضيضها وينقلهم من حال إلى حال . إنَّ مثالية أوربا لم تكن أبداً من العوامل الحية المؤثرة في وجودها ، ولهذا أنتجت ذاتاً ضالّة أخذت تبحث عن نفسها بين ديمقراطيات لا تعرف التسامح ، وكلّ همها استغلال الفقير لصالح الغني . . . أمّا المسلم فإنَّ له هذه الآراء النّهائية

القائمة على أساس من « تنزيل » يتحدث إلى النّاس من أعماق الحياة والوجود ، وما تعني به هذه الآراء من أمور خارجية في الظّاهر يترك أثره في أعماق النّفوس ، والأساس الروحي للحياة عند المسلم هو إيمان يستطيع أقلنا استنارة أن يسترخص الحياة في سبيله . . . »[10] .

هنا يحاول إقبال إعادة الوعي الإسلامي في المجتمع عبر ما لديه من طاقة روحية تلبّي حاجاته ليعيد صياغة واقعه على هذا الأساس ، دون الاقتصار على الاعتقاد الفارغ بعقائد لا تنزل إلى المجتمع ليصير المجتمع عقائداً متحركة ، ويكون المجتمع والمنهج الاجتماعي دليلاً على هذه المعتقدات ، وسبيلاً لرقيه يقول إقبال : « فعلى المسلم اليوم أن يقدر وضعه ، وان يعيد بناء حياته الاجتماعية على ضوء المبادئ القاطعة « في الإسلام : كمبدأ التوحيد ، وختم الرسالة . . . » وأن يستنبط من أهداف الإسلام ، التي لم تتكشف إلى الآن إلاّ تكشفاً جزئياً ، تلك الديموقراطية الروحية التي هي الغاية الأخيرة للإسلام ومقصده »[11] .

بوضوح لا لبس فيه يرسم إقبال مشروعه في إعادة بناء العقيدة ، وتجديد فاعلية الإيمان ، عبر دعوة المسلم إلى إعادة بناء حياته الاجتماعية على أساس التوحيد ، بنحو يتحرر فيه التّوحيد من كونه فكرة مجردة لا حياة فيها أو تجربة باطنية لا تمت إلى الواقع الاجتماعي بصلة إلى (فكرة قابلة للتنفيذ) تتجسد في المساواة والاتحاد والحرية .

وفي السّياق نفسه كان تركيز مالك بن نبي ، الفيلسوف الاجتماعي ، فكانت دراسته دراسةً واعية للمجتمع الإسلاميّ وعوامل التخلّف فيه ، وبالرّغم من أنَّ مالك بن نبي فليسوف اجتماعي عاش

في الغرب، إلّا أنَّ ذلك لم يمنع من أنْ يوجّه لتلك المدارس الغربية النّقد الصّارخ، ومنظّراً لفكرٍ اجتماعي إسلاميّ، لقد وجد بن نبي أنَّ التخلّف الحقيقي هو إبعاد العقائد عن الحياة الاجتماعية، وعدم البحث في الجانب الاجتماعي لهذه المعتقدات، لتكون أسيرة المؤلّفات والأبحاث العقلية التي لا تمّت إلى واقع الإنسان وسلوكه بشيء.

إنَّ بن نبي، اعتقد وآمن أنَّ هذه المعتقدات إنّما هدفها بناء مجتمع؛ لأنّها أوّلاً وأخيراً موجهةٌ له بنحو مباشر، وهنا، أكّد بن نبي أنَّ بناءه يعتمد على بالجانب الاجتماعيّ للمعتقدات، وفي الوقت نفسه يكون التّمسّك سبيلاً لإثباتها؛ لأنّها ستكون حقائق واضحة في إعادة ترتيب الوضع الاجتماعيّ الإسلاميّ، ومن ثَمَّ فهم المغزى الحقيقي لهذه المعتقدات، إنّما كانت لأنَّ الضّرورة الاجتماعية هي من فرضتها، فتكون الضّرورة الاجتماعية أحد أوضح الأدلّة على إثباتها، وفي الجانب الآخر تكون سبيلاً لبناء المجتمع وحل مشكلاته وتخلّفه، فأكّد أنَّ المشكلة لا تكمن في تخلّي المسلم عن عقيدته؛ لأنَّ المسلم « لم يتخل مطلقاً عن عقيدته، فلقد ظل مؤمناً، وبعبارة أدق ظلّ مؤمناً متديناً، ولكن عقيدته تجردت من فاعليتها؛ لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي، فأصبحت جديةً فردية، وصار الإيمان إيمان فرد متحلل من صِلاته بوسطه الاجتماعي »[١٢].

وبناء على هذا التّشخيص للمشكلة وبيان منبعها، يدلّنا مالك على أنَّ العلاج ليس في تكثير البراهين العقلية ونقض الإشكالات على وجود الله تعالى، مثلما يفعل علم الكلام التّقليدي، إذ « ليست المشكلة أن نُعلِّم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم

أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الايجابيـة ، وتأثيرهـا الاجتمـاعي ، وفي كلمـة واحـدة : إنَّ مشـكلتنا ليسـت في أن نبرهن للمسلم على وجود الله ، بقدر ما هـي في أن نشـعره بوجـوده ، ونمـلأ بـه نفسه ، باعتباره مصدراً الطاقة »[13] .

إنَّ المنـهج الاجتمـاعيّ الإسـلاميّ ، يمكن أنْ يقال : إنّه خسر منظّراً يرسم أبعاده بالرحيل المبكّر للشهيد الصدر ؛ إذ تكشف مؤلّفاته عن وضعه مخططاً لاسـتكمال مشـروعه الإسـلامي (اقتصـادنا ــ فلسـفتنا) بكتـاب كـان المفروض أنْ يكون (اجتماعنا) ، إلّا أنّه لم يرَ النور بسبب الغروب المبكّر لشمس ذلك العالم .

إلّـا أنَّ بـاقي مؤلّفاتـه لم تخلـو مـن هـذا الهـدف ، وهـو المـنَهج الاجتمـاعيّ وضـرورته ، فقد أكّد ـ باعتباره فقيهاً ـ على لـزوم الأخـذ بـالفهم الاجتمـاعيّ في فهـم الـنّص ، وأنَّ الـنّص أوّلاً وأخـيراً موجّهاً له ، وهو المعني بفهمه ، ولذا فإنّ حجية الظّهور تلزم الأخذ بهذا الفهم ، ويعطي السّيّد الشّهيد دوراً كبيراً للفهم الاجتمـاعيّ للـنّص ، فحـين ينتـهي دور الفهـم اللّفظـي واللّغـوي للـنّص ، ويرجـع ذلـك إلى « نفس مبـدأ حجيـة الظهـور ؛ لأنَّ هذا الارتكاز يكسـو النّص ظهوراً في المعـنى الـذي يتفـق معـه ، وهـذا الظّهـور حجّة لدى العقلاء كالظّهور اللّغوي ؛ لأنَّ المتكلّم بوصفه فـرداً لغويـاً يفهـم كلامـه فهمـاً لغويـاً ، وبوصـفه فـرداً اجتماعيـاً يفهـم مـن كلامـه فهمـاً اجتماعيـاً ، وقـد أمضـى الشّـارع هـذه الطّريقـة في الفهم »[14] .

هـذه الإحالـة للفهـم الاجتمـاعيّ يعطي الفقه أبعاداً تأخذ برؤية المجتمع ، ويكون لـه دور في فهـم الـنّص وتوجيهـه ، ممـا يعـني أنَّ الفهـم والمنـهج الاجتمـاعيّ أحـد السّـبل في تقـويم عمليـة الاسـتدلال وفهـم الـنّص ، أي أنَّ الفهـم الاجتمـاعيّ

يدخل في عملية الاجتهاد، وليس للمُجتهد أنْ يغفلها؛ لأنَّ الفهم الاجتماعيّ مما أقرّه الشّارع كما يقول السّيّد الشّهيد ﷺ.

أما في مجال الدين وضرورته في المجتمع، وأنَّ أحد الضرورات الاجتماعية هي الدين، لقوام حال أي مجتمع وحل مشاكله الأساسية.

ففي مسألة ضرورة الدّين؛ يجد السّيّد الشّهيد أنَّ التنظيم الاجتماعيّ لا يكون إلّا من خلال الدّين التام؛ لأنّه القادر على إجابة تساؤلات الفطرة، « فإن المشكلة الأساسية في حياة الإنسان نابعة من الفطرة؛ لأنها مشكلة الدوافع الذاتية في اختلافاتها وتناقضاتها مع المصالح العامّة، والفطرة تموّن الإنسانية بالعلاج، وليس هذا العلاج إلّا الدين الحنيف القيّم؛ لأنّه وحده القادر على التوفيق بين الدوافع الذاتية، وتوحيد مصالحها ومقاييسها العملية »[١٥]، وعليه، فلابدَّ « للتنظيم الاجتماعي في مختلف شُعب الحياة أن يوضع في إطار ذلك الدين القادر على التجاوب مع الفطرة ومعالجة المشكلة الأساسية في حياة الإنسان »[١٦].

هذه الضرورة تكشف عن ضرورة أخرى وهي المعتقدات التي يحملها الدّين، فقد توافق مع من قبله كالسّيّد جمال وبن نبي وإقبال، على ضرورة الإيمان بالتوحيد لبناء المجتمع، وإلّا فإن المجتمع غير الموحّد عرضة للصراعات والاقتتال، ومن هنا، فأدلة التوحيد لا تقتصر على تلك الأدلّة العقلية وغيرها مما هو معروف في طيّات الكتب الكلامية، بل تبدو الضرورة الاجتماعية والمنهج الاجتماعيّ دليلاً آخراً على ضرورته ووجوده؛ إذ صلاح الهيئة الاجتماعية أدل دليل على التّوحيد: « ففي ظل عقيدة التوحيد ينشأ المفهوم الإسلامي عن التقوى

القائل: إنَّ التّقوى هي ميزان الكرامة والتّفاضل بين أفراد الناس، وتتولد عن هذا المفهوم عاطفة إسلامية بالنسبة للتقوى والمتقين... ثم يتأسس على هذه الأرضية الصيغة الإسلامية العامة للحياة، ويتخذ المجتمع الذي يجسّد هذه الصيغة صورة المجتمع التوحيدي؛ لأنَّ عقيدة التوحيد هي المنبع الوحيد الذي تصدر عنه العناصر المكوّنة للقاعدة الأساسية في هذا المجتمع... وتنظيم نمط الحياة الاجتماعية وتكيفها بنحو لا يتقاطع مع النظرة الكونية التوحيدية »[17].

إنَّ الإحاطة بالمنهج الاجتماعي عند السّيّد الشّهيد ﷺ أمرٌ يصعب على هذه الرّسالة[18]، فإنّه ومن خلال أبحاثه المختلفة فقهاً وأصولاً وتفسيراً وفلسفةً يبرز هذا المنهج، وضرورته في إعادة الفكر الإسلاميّ، وفهمه، ومن ثَمَّ النّهوض بالمجتمع.

وبالانتقال إلى مفكّر آخر؛ وهو الأستاذ الشّهيد مرتضى مطهري، وهو المعني بالفلسفة الإسلامية، والفكر الديني، ونقد كثير من المسلّمات[19]، مع تنظير لمبادئ تدخل في عملية الإصلاح الدّينيّ، وكانت من ضمن أعماله محاولة إبراز علم اجتماع إسلامي في كتابه (المجتمع والتّاريخ)، وكان مما عالجه الأستاذ مرتضى مطهري مشكلة الجبر والاختيار الاجتماعيين، فقد كانت النّظريات بين أصالة الفرد، ومعنى هذا حريته، وبين أصالة المجتمع بمعنى الوقوع في الجبر الاجتماعيّ، بينما يقدّم الشّيخ معالجة لهذه الإشكالية في ضوء القرآن، ويعتبر أنَّ « هذا القول [أي النظريتين المطروحتين] له بديل، وهو النظرية الثالثة التي غفل عنها هؤلاء والتي تعتبر لكل من الأفراد والمجتمع وجود مستقل، وفي نفس الوقت واقعي

وحقيقي » ويتابع الشّهيد عرض الرّؤية القرآنية فيقول : « والقرآن الكريم يقول باستقلال المجتمع ، ووجود قوانين خاصّة به ، وفي نفس الوقت يصرّح بقدرة الفرد على عصيان هذه القوانين واختراقها ، ومن الآيات قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾[٢٠] ، وقوله تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ﴾[٢١] ، مضافاً إلى أنَّ التعاليم القرآنية كلها مبنية على مسؤولية الانسان عن نفسه ومجتمعه ، وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووقائع قصص الأنبياء في دعوة أممهم ، ليس ذلك إلا من باب ثورة الفرد على فساد المجتمع وطغيانه ومحاولة إصلاحه وتغييره »[٢٢] .

القيمة المعرفية للمنهج الاجتماعي

إنَّ (المنهج الاجتماعي في دراسة المسائل الدينية) يقسم الى مراحل في استيعابه للأبحاث الدينية :

أ : المعالجة الغربية لمسألة الدّين والمعتقدات حسب المنهج الاجتماعي :

هذه المعالجة ، وإن كانت غزيرة في مادتها ، وكتب عنها الكثير ؛ نظراً للأزمة الدينية التي اجتاحت الغرب إبان النهضة الحديثة عنده ، إلا أنّها معالجات لم يكن الهدف منها إثبات معتقدات ، بل لم تفرّق في غالبها بين ما هو سماوي وما هو وضعي ؛ بل وضعت الدين تحت معيار واحد ، ورصدت المعتقدات الداخلية فيه ، وحاولت تحليلها ، والبحث عن أ همیتها ، والأبعاد التي تخلقها في المجتمع ، مع تسليط الضوء وتحليل المعتقدات ، وإحالتها إلى عوامل عديدة كما اتضح ذلك من المبحث المتقدّم .

توزّعت هذه الدراسات بين آراء متعددة[٢٣] ؛ بين من يرى ضرورة الدّين في خلق مجتمع متناغم ، وآخر يرى فيه مسألة مرحلية هامّة ، إلّا أنَّ الإنسان تجاوزها بفعل التقدّم العلمي ، ورأي يذهب إلى أنَّ الدين أفيون الشّعوب وحالة مخدّرة له وهي المشكلة الأساسية في تقدّمه ، وبين هذه الآراء الغربية ما فتح الله من الأخذ والرّد ؛ سببه

اختلاف التوجّهات والمعارف الأولية بين فلاسفة الاجتماع في المجتمع الغربي.

وهنا ملاحظة: لا يتصوّر أنَّ فلاسفة الغرب - بشكل كامل - ومفكريه لا يرون للدين موقعية، أو أنّهم غير متدينين، بل عرف الفكر الغربي دراسات دينية وفكر يدافع عنه، إلّا أنَّ السّمة الغالبة في الغرب أنَّ العقل غير قادر على إثبات مسألة الدين والله تبارك وتعالى، بل يثبت بمناهج أخرى؛ فعلى سبيل المثال ذكر كير كيغارد بأنَّ العقل لا يمكن أن يؤدي إلى الإيمان هذا إذا قبلنا التسليم بأنّه قادر على الاستدلال « فهو يرى بأنَّ جميع الأدلّة والبراهين عاجزة عن صناعة إنسان مؤمن، وهي جميعاً لا فائدة فيها ولا ثمرة منها؛ وذلك لأنّه حتى أكثر الأدلة القطعية يظل في معرض الشك والترديد ويبقى دائما احتمال بأن تأتي قرائن جديدة مخالفة للإيمان، وتقام لإثبات خطا الاعتقاد الديني.... فحتى لو تمكّنا من إثبات وجود الله تعالى بشكل قاطع، فإنَّ ذلك سيجعل الإيمان بهذه النتيجة أمراً مستحيلاً، وذلك لأننا لم نحصّل بواسطة هذا الدليل إلّا العلم وليس الإيمان»[٢٥].

ومن المفكّرين البارزين الذين استخدموا المنهج الاجتماعي بشكل كبير الدكتور شريعتي حيث وظّفه في إعادة وبناء الهيكلية الإسلامية من وجهة نظر يعتقد بصحتها، وكان لهذا المنهج أثره الواضح في التأثير على الشباب والطبقات المثقّفة آنذاك.

لقد سعى شريعتي من خلال هذا المنهج إلى إبراز البعد الحيوي في الدين (الثورة)، وانعكس ذلك على فهمه لكافة المسائل والمفاهيم الإسلامية، وحتى الكلامية منها، محاولاً إعادة الاستدلال على هذه المسائل من وجهة نظر علم الاجتماع، وفهما ضمن إطار أثرها الاجتماعي وهو ما يتّضح في الفصل الثالث.

إنَّ قيمة المنهج الاجتماعي في معالجة المسائل الدينية سواء أكانت نفياً أم إثباتاً تكمن في المعالجات الكثيرة والنتائج التي توصّلت لها عن الدّين، هنا يمكن أخذ هذه النّتائج - لا لتكون استنساخاً - وتعميقها أو ردّها حسب الرّؤية الإسلامية، ودراسة أبعاد الدّين في الغرب، وأثر هذا الفكر في الواقع الإسلاميّ، يضافُ إلى ذلك الاستفادة منه في إثبات المعتقدات الدّينية الإسلامية مع تطوير المنهج وملائمته مع الإسلام.

ب: المعالجة الإسلامية لمسألة الدّين والمعتقدات حسب المنهج الاجتماعي:

تختلف المعالجة الإسلامية عن الغربية حسب المنهج الاجتماعي لمسألة الدين والمعتقدات، فقد نحت نحواً آخراً، كان الهدف منها تسخير هذا المنهج في سبيل بناء مجتمع إسلامي، تتناغم معتقداته مع سلوكه، وتشكّل كلٌّ من المعتقدات والمجتمع دليلاً على إثبات الآخر.

إنَّ التوجّه الإسلامي من خلال المنهج الاجتماعي تجاه المعتقدات كان توجهاً يسعى لإثباتها، متجاوزاً مسألة نشوء الدين، إضافة إلى أنّه لم يعر اهتماماً للأديان الوضعية، أو مساواتها بالتحليل مع السماوية، ويمكن القول: إن المنهج الاجتماعي في معالجة قضايا الدين اقتصرت على معتقدات الإسلام وأحكامه، إلا ما ندر من بعض التوسّع.

لقد اتضح جلياً أنَّ المنهج الاجتماعي الإسلامي لم يكن استنساخاً للغربي بآلياته ووسائله ومناهجه، بل عمل المسلمون على تصفية الرواسب والشُبه، ومعالجة المنهج بما يستجيب للضرورات المطلوبة في القضايا الإسلامية، وحاولوا أن يستنطقوا المعتقدات بغية الحصول على تصور اجتماعي للمجتمع المسلم، ومعرفة "الأبعاد الاجتماعية المعتقدات"، ولكن مع هذا، يمكن القول: إنَّ المنهج

الاجتماعي عند مفكري الإسلام لم يصل إلى مرحلة النّضج في الأبحاث إلى درجة تجد مؤلفات تدرس الأبعاد الاجتماعية للعقائد والأحكام بشكل تفصيلي، أو كتباً فقهية كثيرة تخرج من دائرة فقه الفرد إلى فقه المجتمع، حيث يصبح الخطاب الفقهي فيها على نحو جمعي لا مسألة فردية على المكلّف كذا، ويحرّم عليه كذا.

وهنا يطرح السّؤال الرئيس: ما هي القيمة المعرفية للمنهج الاجتماعي في معالجة القضايا الدينية؟.

إنَّ الإجابة عن هذا السّؤال يكون ببيان مقدمتين تخصّان المنهج الاجتماعي:

١: الجانب النظري للمنهج والتأصيل (إشكالية الضعف)

وهنا لابدَّ أن يقال: إن ضعفاً كبيراً يشوب هذا المنهج من حيث الجنبة التنظيرية الإسلامية، فإنّه من الملاحظ الكم القليل من الاهتمام بهذا المنهج، والسّير به على نحوٍ يكون في مصافِ منهج العقل والنقل، أو يكون داعماً ومطوّراً لهما؛ هذا الضعف سببه الأوّل عدم قراءة نصوص الإسلام بشكل يستخرج منها منظومة فكرية اجتماعية تعالج كل جوانبه، بحيث يكون هناك منهج اجتماعي يستخرج من الكتاب والسنّة بشكلٍ تفصيلي، تقرأ من خلاله فاعلية المعتقدات والأحكام على المجتمع.

لقد اقتصر الأمر على عدّة محاولات لمفكرين أدركوا ضرورة هذا الأمر، لكنها توقّفت عند مرحلة، ليترك الأمر بيد من لا إدراك له بالكتاب أو السنّة لينتج فكراً اجتماعياً، حينها يقتصر الأمر على الرد أو التعديل أو القبول، وبعبارة أجلى موقعية الدّفاع لا التأصيل، هذا الأمر كلّه يترك المنهج الاجتماعي رهين المعطيات، لا أنَّه ضمن الأولويات التي تفرضها ضرورة تفعيل

هـذا المنـهج وإعطـاءه بعـداً واقعيـاً مـن خـلال إنتـاج فكـر اجتمـاعي مستمدٌ مـن قلب الإسلام وكيانه الفكري.

إنَّ الجانب التنظيري ضعيفٌ للغاية، فحـتى الـذين اسـتخدموه وأكّـدوا علـى ضـرورته، لم يعـدّوا قبـل اسـتخدامه صورة واضحة عنه، بل كانت المباشرة في التطبيـق هـي مـا اصـطبغت بهـا مؤلفـاتهم، بينمـا تجـد أنّهـم اهتمـوا بوضـع مقدّمـة عقائديـة لكتـب الفقـه تسـتوعب في الغالـب المنـهج العقلـي والنقلي وليس ذلك بخفي على مطّلع.

ولـذا يجـد المتتبـع أن المنـهج الاجتماعي حاضر في الكتب والمؤلفات، إلّـا أنّـه وجـودٌ غـير مسـبوق بالتأصـيل والتمهيـد لمعرفـة ركـائز هـذا المنـهج؛ وذلـك لعـدم اعتبـاره ذات أهميـة قياسـاً بمنهج العقل والنقل، وهـو مـا سنتحدّثُ عنه في النقطة اللاحقة.

٢: أهمية المنهج الاجتماعي (غياب الوعي)

إنَّ مراجعـةً بسـيطة للمنـتج المعـرفي الغـربي في مجـال علـم الاجتمـاعي الديني، والمنهج الاجتماعي، يعرف من خلالـه الاهتمـام الكـبير الـذي أولاه الغـرب لهـذا المنـهج، لإدراكـه ضـرورة فهـم الـدين فهمـاً اجتماعيـاً، والوقـوف علـى العناصـر الدينيـة الاجتماعيـة الـتي تـلازم المجتمعـات والإنسـان عبـر مراحـل وجـوده، ولـذا يستغرب المتتبـع أن بعـض البـاحثين قضـى عمـره في قريـة بدائيـة لاكتشـاف الأبعـاد الدينيـة والطقـوس ونشـوء الـدين في هـذا المجتمـع الأولي، وصـولاً إلى الدراسـات في العصـر الحديث، حـتى ذهـب البعض كدوركايم إلى أنَّ الدين ضرورة اجتماعية، وليست عقليـة[٢٦]، وبغـضِّ النظـر عـن صـحة المُـدّعى أو بطلانـه، إلّـا أنّـه يكشـف ظـاهراً عـن ضـرورة البحـث والمنـهج

الاجتماعي في دراسة الدين.

إلّا أنَّ الأمر على النقيض تماماً في الحالة الإسلامية، ترجمةً وتنظيراً؛ فمن خلال المراجعة تدرك هذه المسألة؛ فإنَّ الكتب المترجمة في هذا الصدد لا تتعدى أصابع اليد أو هي أكثر بقليل، على العكس - وإن كانت قليلة أيضاً - فيما يخص المنهج العقلي؛ فإنّ الترجمة في العالم الإسلامي قد استغرقته قياساً بغيره من المناهج؛ ولعل السبب في ذلك تأكيد المعتقدات الإسلامية على أنّها تتناغم مع مقتضيات العقل، وهو سبب وجيه، إلّا أنَّ ذلك لا يعني إهمال المناهج الأخرى؛ فالعقل - وكما هو معروف - أصيب بهزّات كثيرة، واختلفت معانيه ومدارسه التي تنسب إليه، مما يعني اختلال البناء الإسلامي المعتمد عليه كلياً ظاهراً، هذا الأمر كان بالإمكان تجاوزه لو سار الأمر نحو استيعاب كافة المناهج، والتأكيد على مسألة أن الإسلام لا يقف إثباته على منهج دون آخر، وهو ما يعني عالميته أخيراً، هذا على مستوى الترجمة.

أمّا لو بحث الأمر بشكلٍ أعم؛ فإنَّ دائرة عدم الاهتمام تتوسّع لتشمل كافة المنتج الإسلامي؛ فإنَّ الملاحظ أنَّ غمار المعرفة اقتصرت في أغلب فتراتها على إحياء الجنبة العقلية وأبعادها، وتدعيم النقل، دون الاكتراث بالمناهج الأخرى، وهو ما يشير إلى أنَّ علماء الإسلام يرون في هذين المنهجين السبيل الأقوى للحفاظ على الإسلام، فكانت أبحاثهم مقاربة لهذا الهم، الأمر الذي أدّى إلى التراجع في كثيرٍ من المناهج الأخرى، ليس المنهج الاجتماعي وحيداً فيها، بل أغلب المناهج كاللسانيات، والهرومنوطيقا، والتي لا مجال للهروب منها في البحث القرآني وغيره سواء رداً أو أخذاً وغيرها من الأبحاث.

هذا الابتعاد كثيراً ما خلق عسراً في مواجهة القادم كالعولمة والحداثة وما بعد الحداثة، ولا يعني عدم القدرة على ذلك؛ ولكن غياب التنقيح المنهجي والابتعاد عن المناهج الأخرى هو ما

يخلق هذه الأزمة .

لقد اقتصرت الأبحاث الإسلامية في العقائد على إثباتها بشكل عقلي ، دون وجود دراسات تؤكد على فاعلية الدين اجتماعياً ، ودراسة الضرورات الدينية للمجتمع ، أو حتى صدور كتاب بعنوان (العقائد الإسلامية ـ من التوحيد للمعاد ـ في بعدها الاجتماعي) .

وكذلك الفقه ؛ حيث الاستغراق في البعد الفردي ، وإهمال البنية الاجتماعية للفقه بشكل عام ، أو صدور كتاب على غرار العقائد يكون (الفقه الإسلامي في بعده الاجتماعي) .

هذان الأمران ومن خلالهما يتكرر السّؤال : ما هي القيمة المعرفية للمنهج الاجتماعي في البحث الديني الإسلامي ؟ .

إنَّ المنهج الاجتماعي لا يقل قيمةً عن أيِّ منهج آخر ، فله نتائجه وأدواته التي أكّدت فاعليته عبر التاريخ المعرفي البشري ، وهو كفيل بالحصول على نتائج جديدة تدفع البحث الديني الإسلامي نحو اتجاهات أخرى وفاعلية أكبر ، ومن خلاله يستطيع الفكر الإسلامي تقديم نتائج اجتماعية كبيرة مقابلة للمنتج الغربي أو الفكر الاجتماعي الإنساني بشكل عام ، وليس هذا مدّعى يراد منه إضفاء قيمة على هذا المنهج ، فقد أكّد البحث الإسلامي العميق أن الإضاءة على أي جانب إسلامي له المكانة بين الفكر البشري ، فإن كتاب اقتصادنا الذي بين النظرة الإسلامية للاقتصاد ، وفي الوقت نفسه ناقداً للاقتصاديين الرأسمالي والماركسي ، ترك الأثر الكبير في توجّه الفلاسفة الاقتصادين نحو الفكر الاقتصادي الإسلامي ، والاعتراف بمتانة المنتج الاقتصادي الإسلامي باعتراف المتفقين معه والمختلفين ، وكذا الحال في كتاب فلسفتنا ، هذا الأمر يدلل على أن الواقع الإسلامي لو اتجه لبيان فكره من شتى الجوانب لكانت أفكاره تؤخذ بعين النظر والاعتبار .

وكذا الحال في المنهج الاجتماعي ؛ فإنَّ كثيراً من الباحثين يعتقدون أنْ لا

رؤية واضحة للإسلام عن المجتمع، وليست عقائده ذات طابع اجتماعي، وبالنتيجة هي مجرد عقائد لا تراعي المجتمع بل تفرض عليه الأوامر فرضاً لا غير، هنا يكون استخدام المنهج الاجتماعي والتأكيد والاستدلال على المعتقدات من حيث الضرورة الاجتماعية بعداً آخراً فاعلاً في البحث الدّيني.

والبعض الآخر يعتقد أنَّ المنهج الاجتماعي الإسلامي المستخدم ليس إلا نقلاً لذاك المنتج الغربي[٢٧].

حينها يكون البحث في المنهج الاجتماعي والتأكيد على أصالة هذا المنهج في الفكر الإسلامي، والاستدلال به على المعتقد والأحكام خير دليل على بطلان هذا الفرض.

هذا ولكن، لا يجب المغالاة في هذا المنهج، واعتباره منهجاً يمكن الاستعانة به دون غيره في إثبات المعتقدات والمسائل الدينية الإسلامية؛ لأنّه أوّلاً غير ناضج تأصيلاً وتنظيراً حسب المباني الإسلامية، وثانياً: لا يتكفّل هذا المنهج إثبات جزئيات مهمّة في المعتقدات الإسلامية، فإنّه وإن كان بالإمكان إثبات ضرورة خالق حسب هذا المنهج؛ إلّا أنّه غير قادر - بشكل دقيق - على إثبات صفاته، وغير قادر على إثبات أحوال المعاد وتحديد الأنبياء؛ لأنَّ الغرض من هذا المنهج ليس إثبات مثل هذا الأمور، بل الكليات، والتأكيد على البعد الاجتماعي للمعتقدات، وهو أمرٌ لا يقلل من أهميته؛ لأن إثبات الكليات يكون العلّة الأولى لإثبات الجزئيات، فبدون إثبات الكلي - ومثلاً ضرورة المعاد - لا تصل النوبة لإثبات أحواله.

الهوامش

١ـ اليزدي، مصباح، دروس في العقيدة، ج١، ص٣٢، ط٨، دار الرسول الأكرم، بيروت، ٢٠٠٨م.

٢. سامرائي، مهدي، الدّين وعملية العولمة، ت: عبد الكريم الجنابي، ص ٢١٠ - ٢١٤،

ط١ ، دار المصطفى العالمية ، قم ، ٢٠٠٩م . بتصرف .

٣. ابن خلدون ، عبد الرحمن ، مقدمة ابن خلدون ، ص١٢٤ ، الفصل الخامس ، ط : لا ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت . ت : لا .

٤. د . القصاص ، مهدي ، علم الاجتماع الديني ، ص٧٩ ، ط١ .

٥ـ مسلّم ، عدنان أحمد ، محاضرات في علم الاجتماع ، ص٢٤ ، ط : ٧ ، منشورات جامعة دمشق ، ٢٠٠٢م .

٦ـ مجلة الجامعة الإسلامية الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية لندن ، العدد١ ، لسنة ١٩٩٣م ، بحث بعنوان : « (إشكالية العلوم الاجتماعية في العالم الإسلامي وضعيتها وآفاقها) ، للكاتب محمد عبد اللاوي ، ص ١٥٢ .

٧. الأفغاني ، جمال الدين ، الرد على الدهريين ، تر : محمد عبده ، ٨٢ـ ٨٣ ، لا . ط ، مطبعة محمد محمد مطر ، لا . ت ، مطلب : (الأمر الرابع الاعتقاد بالألوهية) ، والكتاب قديم ونسخة ضوئية على هذا الرابط :

http://dar.bibalex.org/webpages/mainpage.jsf?PID=DAF-Job٣%A١٩٤٢٥٠

٨. المصدر السابق ، ص ٧٥ ، (مضار إنكار الألوهية) .

٩ـ إقبال ، محمد ، تجديد الفكر الديني في الإسلام ، تر : عباس محمود ، ص ٢١٢ـ ٢١٣ ، ط٢ ، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر ، ٢٠٠٠م .

١٠. المصدر السابق ، ص٢١٢ـ ٢١٣ .

١١. المصدر نفسه ، ص٢١٢ـ ٢١٣ .

١٢. بن نبي ، مالك ، وجهة العالم الإسلامي ، تر : عبد الصبور شاهين ، ص٥٤ ، ط٢ ، دار الفكر ، دمشق ، ٢٠٠٢م .

١٣. المصدر السابق ، ص٥٤ .

١٤ـ السيد الصدر ، محمد باقر ، الفهم الاجتماعي في فهم الإمام الصادق ، موسوعة الإمام السيد الشهيد الصدر ، مج ١٧ (ومضات) ، ص١٩١ ، ط١ ، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر ، قم ، ٢٠٠٨م .

١٥ـ الحكيم ، منذر ، مجتمعنا في تراث الشهيد السيّد محمد باقر الصدر ، ص١٦٤ ، ط١ ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، ٢٠١١م .

١٦. الصدر ، محمد باقر ، اقتصادنا ، ص٣٥٩ ، مج٣ ، ط١ ، مركز الأبحاث التخصصية

للشهيد الصدر ، قم ، ٢٠٠٨م .

١٧ـ مجلة قضايا إسلامية معاصرة ، ع : ٣ ، لعام ١٩٩٦م ، بحث بعنوان : « المدلول الاجتماعي لأصول الدين عند الشهيد الصدر » ، للكاتب عبد الجبار الرفاعي ، ص٥١٨ .

١٨ـ حاول السيد منذر الحكيم أن يجمع التراث الاجتماعي للسيد الشهيد قدس سره في عنوان جامع ، وقد صدر كتاب باسم (مجتمعنا) على ضوء أبحاث السّيد الشهيد ومحاضراته .

١٩ـ راجع : نقد الفكر الديني عند الشهيد مطهري ، جمع وتصنيف : مهدي جهرمي ، محمد باقري ، تر : صاحب صادق ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط١ ، بيروت ، ٢٠١١م .

٢٠. سورة المائدة ٥ : ١٠٥ .

٢١. سورة الأعراف ٧ : ١٧٣ .

٢٢. مطهري ، مرتضى ، المجتمع والتاريخ ، تر : مرتضى الحسيني ، ص٣٢ ، ط١ ، وزارة الإرشاد الإسلامي ، قم ، ١٩٨١م .

٢٣ـ راجع : الأديان في علم الاجتماع ، جان بول ويليم ، تر : بسمة علي بدران ، ط١ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠١م .

٢٤. الأعرافي ، علي رضا ، الفلسفة بحث فقهي ، ص ٣٠١ ، ط١ .

٢٥. راجع : الفصل الثاني من الرسالة ، البحث الأول ، المحور الأول ، الدين لدى دوركايم .

٢٦. مجلة الجامعة الإسلامية الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية ، لندن ، : العدد١ ، لعام ١٩٩٣م ، بحث بعنوان : « إشكالية العلوم الاجتماعية في العالم الإسلامي وضعيتها وآفاقها » للكاتب محمد عبد اللاوي .

د. خنجر حمية
أستاذ الفلسفة في الجامعة الإسلامية في لبنان

مطهري
السيرة والتجربة ومسارات التفكير

أوّلاً: السيرة الذاتية:

في خضمِّ أحداث هذا العصر الذي استعرضنا شيئاً من تفاصيل حِراكه الفكري والسياسيّ، وتوترات أوضاعه وأحواله، وُلد مرتضى مُطَهّري سنة ١٣٣٨ هـ في قرية فريمان من قرى خُراسان.

كان والده الشيخ محمد حسين مُطَهّري رَجُلَ ورع وتقوى وإيمان، فنشأ مطهري في كنفه متأثراً بشخصيته، مُستلهماً روحه وسيرته في ورعه وزهده وتقواه. ولقد تركت هذه المرحلة المبكرة من حياته، أثرها الذي لا يُمحى في تكوينه الروحي والمعنوي، وفي سيرته ونمط عيشه، وفي فكره وعقله في المراحل اللاحقة من عمره.

بدأ مطهّري دراسته في إحدى مدارس قريته مشتغلاً بالقراءة

والكتابة وحفظ القرآن، ودراسة علوم العربية، من نحو وصرف وبلاغة وأدب.

انتقل إلى مَشهد وهو في الثانية عشرة من عمره أي سنة ١٣٥٠ م، والتحق بحوزتها الدينيّة وانشغل فيها على مدى خمس سنوات بدروس المنطق والفلسفة ومقدمات الشريعة والأدب العربي. فاكتمل فيها تكوينه الأوّلي في العلوم التي تشكل الأرضية للتخصص في الشريعة والفلسفة، ولقد بدأ مُطهّري يُظهر في هذه المرحلة ـ كما يُحدثنا هو عن نفسه ـ ميلاً إلى العلوم العقلية، وشغفاً بكتبها وأعلامها.

حين أصبح في الثانية عشرة من عمره عزم على الرحيل إلى مدينة قُم، وقد كانت تَحدُوه رغبة في الالتحاق بحوزتها والحضور عند كبار عُلمائها، وملكت عليه هذه الرغبة كلّ تفكيره، بالرغم مما كانت تُعانيه المؤسّسة الدينيّة حينها من تراجع وانكفاء، وتتعرض له من قمع وعزل واضطهاد من قبل سلطة رضا خان، ما جعل من تفكير مُطهرّي بالالتحاق بدروسها قفزة في المجهول، لا يتبيَّن لها أفق أو تتَّضح لها نهاية[1].

ومنذُ وصوله إلى قُم، حضر مطهري دروس ثلاثة من علمائها المعروفين، هم: السيد صدر الدين الصدر، والسيد محمد مُحقق، والسيد حسين حُجَّت. ثم حضر بين سنة ١٣٦١ هـ و١٣٧٣ م دروس الإمام الخميني في الفلسفة والعرفان التي كان يُلقيها على طلابه يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع. ولقد كات هذه الفترةمن فترات دراسته من أخصب أيام حياته وأغناها وأعظمها تأثيراً في توجيه فكره وتكوين شخصيّته وتحديد معالم خياراته في المعرفة والنضال. وبقي تأثير هذه الشخصيّة الفكريّة والدينيّة والثوريّة جلياً في حياته إلى قيام الثورة، وبقيت

تعاليمها توجّه خطواته إلى نهاية عمره.

كما حضر في هذه الفترة كذلك، دروس آية الله البروجردي، الذي كان الشخصيّة الفقهيّة والدينيّة الأبرز في إيران في ذلك الوقت، وزعيماً للحوزة الدينيّة في قُم من غير منازع. وفي هذا الدرس تعرّف على آية الله مُنتظري الذي سيشاركه في ما بعد رحلته العلمية ونضاله.

سنة ١٣٦٢ هـ التقى مُطهّري صُدفة بأحد علماء أصفهان الكبار، وهو الميرزا علي الشيرازي، ولقد قُدِّر لمُطَهّري في صيف تلك السنة أن يحضر درسه في نهج البلاغة، فغيّر هذا العالم طريقة تفكير مُطَهّري في هذا الكتاب وقلب قناعاته، وهزَّ وجدانه، وترك أثراً كبيراً في توجيه عقله. ولقد بهرته قدرة هذا الرجل على الغوص في دلالات نهج البلاغة ومعانيه وأبعاده، والكشف عن أغواره العميقة وآفاقه القصِيّة. وكان كتاب « سيري در نهج البلاغة » (نظرة في نهج البلاغة) ثمرة هذه المرحلة وخلاصة هذا اللقاء[٢].

ومضافاً إلى انشغاله الدائم في قُم بالدرس والتحصيل، فقد كان له مجلس درس يُلقي فيه على طلابه علوم المنطق والفلسفة والكلام، والبلاغة والفقه والأصول. وكان يُطالع ما يقع تحت يده من الكتب خصوصاً ما يتعلق منها بالماركسيّة التي طغى الاهتمام بها على مُثقفي جيله، وراجت سُوقها في إيران رواجاً كبيراً، وتركت تأثيرها الكبير في جيل كامل من الشباب. فقرأ كتب د. آراني في شرح مبادئ الماركسيّة وأيديولوجيتها في الثورة والتغيير، وفلسفتها في الإنسان والوجود، واطَّلع على ما كان يُصدرته حزب توده من منشورات وكتب وإصدارات، فشكلت مطالعاته في هذا السياق الركيزة الأساس لتفكيره اللاحق في الماركسيّة

وفي مناقشاته لركائزها المعرفيّة والفلسفيّة، وفي نتاجاته التي خصَّصها لتنفيد أيديولوجيتها، كالمجتمع والتاريخ، ونقد الماركسيّة، وأصول الفلسفة، والدوافع نحو المادّية وغيرها من الكتب.

ولأنَّ ميول مُطَهّري إلى العلوم العقلية كانت طاغية على شخصيّته وفكره، فلقد حضر دروس العلامة الطباطبائي حول فلسفة ابن سينا، وتحقيقاته المعمقة حول التراث الفلسفي الإسلاميّ بعامة ؛ ولأنَّ أستاذه كان يعرف عُمق اهتماماته المعرفيّة، فلقد عقد له مجلس بحث للنقاش حول الفلسفة المادّية مُقارنة مع الفلسفة الإسلاميّة، شكلت حصيلته الأساسَ لكتاب أصول الفلسفة والمذهب الواقعي[٣]. ولقد فتح هذا المُعلم، من خلال درس التفسير الذي أداره على مدى سنوات طويلة وأنفق في جُل وقته وخلاصة عمره، الأُفق لمُطَهّري على الكتاب الكريم آخذاً بيده إلى عوالمه التي لا تتناهى وآفاقه التي لا تنفد، في ظاهرة كانت نادرة في مُؤسسة طغى عليها الاهتمام بالفقه على أي اهتمام آخر.

في هذه المرحلة بالذات كانت الحوزة العلمية بدأت تتأثر بالمناخ الفكري الذي ساد في إيران منذ مطلع القرن، وبدعوات النضال والإحياء والتغيير، وكان الطباطبائي والإمام الخميني كلا هما جزءاً من هذا المناخ الذي ساده وعي جديد، على ضوء مستجدات الأحداث وتقلبات الزمن، والعواصف التي راحت تضرب في كل اتجاه، فولَّد ذلك كله في وعي مُطهّري رغبة في التعرف على مُشكلات المجتمع الإيراني خاصة والإسلاميّ بعامة، فانكفأ على تأمل الوقائع والأحداث، وراح يُراقب تجارب الفكر ومحطات النضال ودعوات التغيير، بذهن مُنفتح وعقل بصير، ثم

انخـــرط في الأنشـــطة السياســـيّة والاجتماعيّـة الـتي كـان يُـديرها علمـا مُتنـورون حركيـون في قُـم، ومثقفـون إصلاحيون. ولأنَّ الحوزة الدينيّة لم تكن قـد تهيـأت بعـد لتقبـل دعـوات التغـيير، وحركات الإصلاح، وفكرة دفع الإسلام في معتـرك الحيـاة مُشـرعاً لمسـيرتها، هاديـاً لخطواتهـا، موجهـاً لحركتـها علـى الطريقـة الـتي كـان الإمـام الخمـيني والمتـأثرون بـه يُفكـرون فيهـا، تـرك مُطهّري قُم وانتقل إلى طهران[٤].

حلَّ مُطهّري في طهـران سـنة ١٣٧٣ هـ[٥]، فتزوج كريمة أحد مشاهير علماء خراسـان، ثم عقـد مجلس درس خـاص في مدرسـة مـروي، وألقـى خلالـه دروسـاً في الفلسـفة والفقـه والتفسـير، اسـتمرت سنوات.

وفي سنة ١٣٧٤ هـ ف نشر أوّل مقالة له في مجلة (حِكمت) التي كانت تصدر في قُم. وفي سـنة ١٣٧٦ هـ نشـر الجـزء الأوّل من كتاب أُصول الفلسفة والمذهب الواقعي.

وفي السنة نفسها أرسلت إليـه جامعـة طهران دعوة للتدريس في كليـة الإلهيـات فلبَّاهـا، وهنـاك شـارك مضـافاً إلـى انشـغاله بالتـدريس، بتوجيـه الشـباب واستهاضـهم، وبعـثِ قـيم الإسـلام في نفوسهم، وتحريك هِمَمهم للتغيير عبر المحاضرات والندوات والأنشطة المختلفة، مـن خـلال الإرشـاد والتوجيـه والهدايـة والتابـة والبحـث والتحقيـق، وقضـى في جامعـة طهـران اثـنين وعشـرين عامـاً كانت من أخصب أيام حياته وأغناها، وأكثرها تأثيراً.

كانـت حسـينية الإرشـاد في هـذه المرحلة المؤسسة الأبرز في طهران التي انطلـق منـها جُهـد التوجيـه والإرشـاد، وشُعلة التغيير والإصلاح، ولقـد شـكلت في حينـها المنـبر الـذي احتضـن جهـود جماعـة كـبيرة مـن الإصـلاحيين، كعلـي

دواني، ومهدي بازركان، وعلي شريعتي، ووالده محمد شريعتي، ود. سحابي، مضافاً إلى مُطهّري نفسه. وبين جدرانها سوف تتحدد معالم النهوض الفكري والسياسيّ لإيران المعاصرة.

لم ينقطع مطهّري قطُّ - في هذه المرحلة - عن التواصل مع كل شرائح المجتمع وتكتلاته وتيّاراته، فعانى من اضطهاد السلطة وأجهزتها، وكان على تواصل دائم مع الأفكار التي تُطرح سواء منها ما ينطق باسم الإسلام ويُعبر عنه كما هو الحال مع أفكار بازركان وشريعتي، أو مع التيّارات الليبرالية والماركسيّة والقومية والوطنية، فأدار نقاشات حامية ولدت بين الحين والآخر تجاذباً ونزاعات. لكنّ الهدف الذي كان يرمي إليه مُطهّري هو تصويب اتجاه الإصلاح وترشيد حركته ليؤتي ثماره وليتجنب محطات الإخفاق التي وقعت فيها حركات إصلاح سابقة، وتيّارات تغيير لم تصل إلى خواتيمها[٦]. ولقد كان دائم الاتصال في هذه الفترة بالإمام الخميني في منفاه في فرنسا، ليشكل حلقة الوصل بينه وبين التيّارات المناوئة للسلطة والمعارضة لها. ولأنَّ مطهّري لم يكن يُساوم، أو يسكت على المحاولات التي كانت تستغل الإسلام لأهداف آنية ولمصالح عابرة فتشوِّه تعاليمه ورُؤاه وتصوراته، ولأنَّه لم يكن يتكر فرصة سانحة لمواجهة ذلك ومكافحته فقد جعله ذلك هدفاً دائماً للقائمين بها أو القيمين عليها، لذلك فقد اغتالته جماعة دينيّة مُتطرفة تُطلق على نفسها اسم (جماعة الفرقان) ! وذلك سنة ١٣٩٩ هـ[٧]، وبعد انتصار الثورة بثلاثة أشهر تقريباً.

لقد كانت هذه المرحلة من أغنى مراحل حياة مطهري فكراً ونضالاً وحركة، فلقد أثمرت جهوده فيها وجهود أمثاله بزوغ الثورة الإسلاميّة، ووصول

حركات النضال إلى خواتيمها المنشودة، وأثمرت كذلك نتاجاً معرفيّاً وفكرياً ودينياً مُتعدد الأوجه مُختلف المناحي، قلَّ أن نجد مثله في حجمه وسعته وعُمق تأثيره في هذه المرحلة من مراحل التاريخ الإيرانيّ الحديث.

ثانياً: النِّضال الفكري والسياسيّ: ـ

تَلازم النِّضال السياسيّ لمُطهّري على الدوام مع نضاله الفكريّ. فمُذ وصل إلى مدينة قُم شغلته هموم الواقع ومشكلاته، وقد كانت تلوح له في الأفق إرهاصات زمن جديد بالرغم من كل ما كان يتحسَّسه من مآسٍ وآلام وانكسارات وإخفاقات وتراجع وانهزام. ولقد حفَّز عزيمته الإيمان الراسخ الذي كان يُدركه في شخصيّة الإمام الخميني حينذاك بالأمل بالمستقبل، وبحتميّة النجاح والانتصار، وتخطي كل العوائق والسدود، والآفاق المُظلمة التي كانت تمتد من حوله في كل اتجاه[٨].

لكنّ بيئة قُم المحافظة لم تكن البيئة النموذجية للعمل الذي يرتضيه مطهري أسلوباً لنشاطه، ولا المناخ الملائم لطريقة تفكيره، فلقد كان الإسلام بالنسبة إليه شيئاً يتجاوز بكثير حدود الدَّرس الفقهيّ المنكفئ على ماضٍ ميت وبلا حراك، وحدود الطقوس الجامدة المتحجرة المنعزلة عن واقع الحياة وشؤونها.

ولقد راحت تترسَّخ في وعيه منذ البدايات العواقب السلبية التي تترتب على انكفاء المؤسسة الدينيّة عن وظيفتها التغييرية، وتخلِّيها عن دورها في دفع الإسلام إلى حدود المجتمع، ضابطاً لحركته موجهاً لمساره، مُستجيباً لتحدّياته وأسئلته المُلحة، مواجهاً الإشكاليات الكبرى التي تنتظره. وترسَّخت في ضميره طبيعة الأخطار التي يجلبها الفهم المُشوه للدين،

والإدراك الـمُنتقص والمبتـور لتعاليمـه وتشـريعاته وقوانينـه، في الوقـت الـذي راحت تجتاح المجتمع ومبادئه تصورات دخيلـة وفلسـفات مادّيـة، ورُؤى ليبراليـة مُتطرفـة، ومـذاهب في الأخـلاق والقـيم، وتجد فيه أرضاً خصبة للنمو والانتشار، وشـباباً مُتعطشـاً للمعرفـة والاسـتنارة، باحثاً عـن إجابـات شـافية عـن أسـئلته، ومسـارات واضـحة ترسـم لـه معـالم الطريـق، في بحثـه عـن العدالـة والحريـة والنهوض، وفي طموحه نحـو تجـاوز واقـع مرير، حوَّلته ـ في خضمّة سُلطة سياسيّة مستبدة وطاغية ـ إلـى شباب خاضع، لا يملـك إرادة تحديـد مصـيره، ولا قُـدرة رسم ملامح مُستقبلة، وتلمّس خياراته.

وقـد كانـت أوّل مشـاركة لمطهّـري في قُم، في نشاطات (مكتب تشيع) و(مكتب إسـلام)، وفي جهـود (مكتـب توحيـد)[٩]. ولقـد نشـر مـن خـلال هـذه المؤسسـات بعض كتبه ودراساته، التي كانت تنمُّ في جوهرها عن طبيعة الرؤية التي يحملها للإسـلام، والفهـم الـذي يكـتنزه لـدوره ووظيفتـه، والإدراك العميـق لطبيعـة المشـكلات الـتي تحـيط بمجتمعـه والأوضـاع المأسـاوية الـتي يرفـع فيهـا. ولقد كانت محاضراته وندواته وأنشطته حينـها تصـبُّ في اتجـاهين: الأوّل هـو ضـرورة إعـادة إحيـاء شـامل لتعـاليم الإسـلام لتسـتجيب لقضـايا عصـره، ولتُسـاهم في الإجابـة عـن مقتضـياته، والثـاني البحـث العميـق عـن جـذور المشكلات التي أوصلت العالم الإسلاميّ إلى ما هو عليه من تخلف وانهيار وتردٍ، ليُصار بعدها إلى رسم ملامح نهوض شـامل علـى ضـوء الإسـلام ومـن وَحيـه، مستفيدٍ من تجارب وإخفاقات من جهة، ومن عناصر قوة وحراك، ومن مظاهر إرادة واعيـة وعـزم راسـخ كـان يجـده في وعي شرائح كبيرة من الشباب والمثقفين والجامعيين من جهة أخرى، للخروج من

دائـرة الاسـتبداد السياسـيّ والتخلّـف الاجتمـاعي، والفقـر المعنـوي والروحـي، والتردي الاقتصادي.

وبانتقاله إلى طهران كانت المرحلة المهمة من نضاله السياسيّ والفكري قد بـدأت، فهنـاك وجـدت قناعاتـه ورُؤاه ترجمتها الواقعية، وأدرك صواب ما كان يُفكـر فيـه، ووقـع علـى مشـهد سـلطة تمارس أعتى أنواع الاستبداد السياسيّ والقمع والإذلال من جهة، ومشهد حراك يتحفـز للنـهوض علـى جميـع المسـتويات مؤسسـاً علـى بـدايات كانـت مجيـدة ؛ لكنّها لم يُحالفها التوفيق في العموم من جهة أخرى.

ولقـد عـاين مُطهّـري بنفسـه، في هـذا المنـاخ المضـطرب وفي هـذا الأُفـق الواسـع مـن الحـراك، مكـامن الضـعف ومكـامن القوة، وعناصر النجاح وعوامل الإخفاق، وعاش تجربة مباشرة أدرك من خلالها أنَّ الأفـق بـات ملائمـاً لتغـيير جـذري تستجمع له الطاقات والقدرات وتوفر له الوسـائل والأدوات، وتحـدد لـه الـبرامج وترسـم لـه الخطـط. فتحمَّـل بنفسـه مسـؤولية دفـع الجهـود باتجـاه ذلـك، مُحاضـراً في النـدوات، مشـاركاً في اللقـاءات، ناشـطاً في حلقـات النقـاش والجـدل، مُوجهـاً لجماعـات المعارضـة والمواجهـة، مكافحـاً في سـبيل تعريـف الجيل الصاعد بمفاهيم الإسلام وقيمه، مواجهـاً تيّـارات الفكـر والسياسـة الـتي كـان يراهـا خطـراً علـى هويـة مجتمعـه وقيمـه وتراثـه، شـرقية كانـت أو غربيّـة، مصـوباً للمواقـف، مصـححاً للقناعـات والاسـتثمار الخـاطئ للإسـلام في منـافع عابرة، ومصالح آنية، ومكاسب شكلية لا تخـدم غـرض الإصـلاح ولا هـدف النهوض.

ولأنَّـه لم يكـن يُـؤمن بجـدوى العمـل الفـردي ولا بكفايتـه، فلقـد وجـد فـقط شخصيات تملك قناعاته ورُؤاه، وتشاركه

همومه وهواجسه ـ في الفكر وفي العمل، في الدين وفي السياسة ـ خير معين له في نضاله.

ولقد طمح أن يُشكل من هذا السَّديم من الشخصيات تيّاراً كبيراً يجمع مُجمل طاقات النهوض، ويوجه مسارها، ويقوّم حركتها، ويُبلور عبر النقاش والحوار رؤيته ومشروعه. وكانت علاقاته بهؤلاء في العموم علاقة شراكة فاعلة، بدأت بشراكة نضال وفكر مع أمثال بازركان وعلي شريعتي وبهشتي ومحمد شريعتي وباهنر، وشراكة تنظيم وتأسيس للعمل مع جماعة المُؤتلفة الإسلاميّة التي تشكلت من تيّارات دينيّة عدّة، وتأسست ملامحها بادئ الأمر في مجالس العزاء وحلقات الوعظ والإرشاد والتبليغ، والتي كان للشهيد مُطهري وجماعة أخرى من العلماء فيها، دور توجيه وتنظيم وإرشاد، ودور تعميق للوعي والتجربة، وتأصيل للمعرفة والثقافة، وتأكيد للمقاصد والأهداف، ورسم للاستراتيجية والرؤية[١٠].

وكانت حصيلة مُشاركاته في هذه الجماعة كتابه المعروف: « الإنسان والمصير ». ولأنَّ مطهّري كان يُدرك أنَّ أيَّ حركة مُثمرة لا بدَّ من أن تنشط في كل الميادين، وأن تتعامل مع مشكلات الواقع في كل أبعادها، ومنها السياسيّة، فلقد انخرط في مواجهة واضحة وعلنية مع السلطة السياسيّة إدراكاً للخطر الذي تُشكله وللدور السلبي والمُدمر الذي تمارسه، ولأنَّه كان يعلم أنَّ أي تغيير جوهري في المجتمع وأنَّ أي طموح للنهوض سوف لن يتحقق في ظل سلطة مستبدة عاتية، مصادرة للحريات، قامعة للإرادات، سالبة للحقوق، مُنتهكة للكرامات، دافعة للمجتمع إلى حدود الإنهيار الإجتماعي والأخلاقي والخواء الروحي والفكري. فبدأ نشاطه الواضح في هذا الاتّجاه في أعقاب المواقف

الحازمة التي أطلقها الإمام الخميني وأنصاره ضد الشام عام ١٩٦٢ م، على خلفية مجزرة الفيضية، والاستفتاء على الإصلاحات الدستورية التي أعلنها الشاه قبل ذلك، مُشكلاً حلقة الوصل بين التيّارات الممانعة والامام الخميني، والجامع بين الحركات المعارضة وتيّارات التغيير، وحركات النهوض والثورة، وبين الجماهير وعامة الشعب عبر خُطبه وبياناته ومحاضراته التي راح ينقل من خلال التجارب، ويُعرِّف بواسطتها عن طبيعة الحراك وأسلوب العمل، وحجم الإنجازات وأشكال العمل المختلفة التي كانت تنهض بها وتمارسها.

في هذه المرحلة من مراحل نضال مُطهّري، أدركت السلطة السياسيّة طبيعة الخطر الذي تُشكله طبقة رجال الدين الإصلاحيين على وجودها واستمرارها، وحجم التأثير الذي يُمكن أن تحدثه في المجتمع، ولقد فاجأتها قوة الإمكانات التي يتمتَّع بها تيّار الممانعة الذي كشفت عنه حركة الإمام الخميني وما تلاها من أحداث، فعمدت إلى اعتقال الإمام الخميني عام ١٩٦٣ م، وأصدرت قانوناً يفرض على رجال الدين الخدمة العسكريّة، رغبة منها في إخماد حركتهم وتطويع إرادتهم وقمع طموحاتهم، وكان مطهّري من بين من أُلحقوا بالخدمة في أحد المعسكرات، فنشط في مراكزها موجّهاً ومرشداً، مثقّفاً ومعلّماً، مُستغلاً الفرصة من أجل بثِّ الوعي الديني في نفوس الجنود، ولما انكشفت حركته فرَّ من المعسكر قبل اعتقاله ليعود إلى ممارسة دوره، واستئناف نشاطه، في العلن تارة وفي السِّر أُخرى، مُتصلاً بالجماهير وبالنخب المثقفة والتغييرية وبحلقات النقاش والتوجيه والحوار.

وبعد نفي الإمام الخميني إلى الخارج كان لمُطهّري دَورٌ باز في حشد

الجماهير حول حركة الإمام الخميني ومبادئها وأهدافها، بالرغم من الصعوبات التي واجهت أنشطة التوجيه والنهوض بعد اغتيال اللجان المؤتلفة - التي كان مطهّري يُوجّه حركتها - لرئيس وزراء الشاه، وزَجّ أقطابها في السجون، وتصاعد سخط الشاه على مُطهّري وأفعاله.

وبالرَّغم من الرقابة المُشدّدة التي فُرضت على مطهّري في هذه المرحلة الدقيقة من نضاله، فلقد تابع نشاطه هذه المرة بأسلوب مختلف، هو أسلوب الكفاح الفكريّ ضدَّ نزعات الإلحاد في مجتمعه، وتيّارات المادّية المتنوعة، والأفكار العدميّة، والنزعات القومية العنصرية، ومذاهب التوفيق المُتكلّف بين الإسلام والأيديولوجيات الثوريّة الغربيّة، وطروحات التغريب في شتَّى أشكالها، فاصطدم بجماعات كانت جُزءاً من حركة النهوض، كمجاهدي الشعب، التي ركبت أيديولوجيتها التغييرية أوَّل الأمر على مزج مشوَّه بين تعاليم الإسلام الثوريّة والماركسيّة، أو مع اليسار الإسلاميّ الذي كان يفتقد إلى معرفة كافية بمبادئ الإسلام ومعارفه، والذي تحلَّق أتباعه حول علي شريعتي وطُروحاته.

وسوف يكون نتاج مطهّري الأغنى والأثرى في هذه المرحلة، بدأ مع بداياتها واستمرّ إلى الأيام الأخيرة من عمر النظام الشاهنشاهي، ليتحوّل جُهده عند انتصار الثورة وفي الأيام الأولى لها إلى جُهد تنظيم لشؤونها، تأطير لمؤسّساتها، وتأسيس لإدارتها، وتقنين لنظمها وتشريعاتها، من خلال عمله في مجلس إدارة الثورة الذي كَلّفه الإمام الخميني مهمة تأسيسه ورئاسته، لينتهي نشاطه ونضاله في الشهور الأولى للثورة شهيداً على مذبحها، قُرباناً في سبيل أهدافها ومبادئها وشعاراتها.

ثالثاً: خصائص شخصيَّته العلمية ... منابعُ ثقافته ومصادر تكوينها

لقد سمحت الدراسة المُنظمة لمطهّري فيد مشهد ثم في مدينة قُم، بالإحاطة الواسعة بالعلوم الإسلاميّة على تنوعها وتشعبها، وبالاطلاع المعمق على مصادر التراث الإسلاميّ، وبالإلمام الكافي بالآثار الأدبية العربية والفارسية، وبالنصوص التأسيسية في كلتا اللغتين. وإذا أردنا أن نوجز بدقة العلوم التي أنفق سنوات في تحصيلها وإتقانها والتعرف على مضامينها، أمكننا أن نسردها كالتالي:

ـ معرفة عميقة بالأدب الفارسي، ونُصوصه الكبرى ككتابات حافظ وسعدي وجلال الدين الرومي، ومصنفات العرفان والشعر الصوفي الأخلاقي.

ـ معرفة واسعة بالأدب العربي قديمه وحديثه، واللغة في جوانبها كافة كالصرف والنحو والبلاغة والبيان، ما سمح له بتدريسها سنوان طويلة من عمره خصوصاً في قُم[11].

ـ ولقد ظهرت معرفته بالفارسية وامتلاكها لناصيتيها، في كثرة استشهاده بنصوصها التأسيسية، وبأدبها الرفيع، وفي لغته السلسة الواضحة وبيانه الجذاب، وجمال أسلوبه، وسهولة تراكيبه. أما معرفته الواسعة بالعربية فلقد ظهرت في عُمق فهمه لنصوصها، واستيعابه لدلالاتها، وحُسن استثماره لما تنطوي عليه أصولها الكبرى ومنابعها، كالقرآن والحديث ونهج البلاغة، من معانٍ ومضامين، وفي قدرته الفائقة على استيعاب النصوص الفلسفيّة العربية المعقدة والإصطلاحية على تعدُّد اتجاهات أصحابها وانتماءاتهم.

ـ معرفة مُعمّقة وموسوعية بالعلوم الشرعية وأصول الفقه والتفسير وعلوم القرآن الحديث، وهي معرفة نَهَلَها من

دروسه المُتطاولة عند كبار المجتهدين والفقهاء في قُم، في الفترة التي قضاها هناك متفرغاً للتحصيل العلمي.

- معرفة مُتبصرة بالفلسفة الإسلاميّة وعلم الكلام والتصوف والعرفان والأخلاق، كوّنها من خلال حضوره لفترات طويلة محفل درس السيد الطباطبائي - الذي انتهت إليه رئاسة هذه العلوم، خصوصاً الفلسفة - وعند مهدي الأشتياني، وانكبابه الاشامل على دروس الإمام الخميني في هذه الحقول الفكريّة والمعرفيّة. ولقد عُرف عن مطهّري ميله الشديد كما سيأتي إلى العلوم العقلية، وهو شيء سوف يتبدَّى في نتاجه وطريقة تفكيره واهتماماته في ما بعد.

ولقد كان لمطهّري طريقة خاصة في التعامل مع هذه المنابع التي شكلت جماع ثقافته وتكوينه الفكري. فهو كان يُدرك وحدة هذه العلوم، وارتكازها إلى بنية معرفيّة جامعة، هي القرآن والسنة اللذان يحتويان على المبادئ الأساسية لكل العلوم الإسلاميّة مَعقولها ومَنقولها، ويشتملان على تعاليم وتشريعات وأصول وقواعد تُلامس كل شؤون الحياة وتحاكيها. وعليه، فتحصيل معرفة شاملة دقيقة بالمعارف الإسلامية وتراثها الفكري أمرٌ ضروري للمفكر الإسلاميّ، وحاجة مُلحة. ولا يُدرك جوهر الإسلام في شموله وعمومه وهيمنته ولا تتحقق جاذبيته، من دون ذلك وبمعزل عنه[١٢].

ومطهّري كان يُضيف إلى خبرته بأصول كل علم، وإلى اطِّلاعه على مبادئه وقواعده وقوانينه ومسائله وقضاياه، معرفة واسعة بتاريخه، منذ نشأته إلى حين اكتماله، وبالظروف والملابسات التي أحاطت بفترات تشكله، وبمراحل اكتماله ونضوجه واستواء بنائه، مُفترضاً أنَّ ذلك ضرورة مُلحة لفهم العلوم الإسلاميّة في أبعادها

العميقة، وحاجة ضرورية تسمح بحُسن الاستفادة منها واستثمارها على ضوء وقائع الزمن وحوادثه المتجددة.

ولقد سمحت هذه المعرفة الشاملة بالإسلام لمُطهّري بمواجهة تيّارات الفكر الغربيّ التي عصفت بالبيئة الثقافيّة للمسلمين وتغلغلت في عقولهم ووجَّهت حياتهم وأساليب عيشهم. وظهر ذلك واضحاً في نتاجه، سواء منه ذاك الذي خصَّصه لمناقشة الماركسيّة ورُؤيتها الكونيّة للعالم ونظامها الاجتماعي، أم الذي عكف من خلاله على تفنيد الفلسفات الغربيّة المادّية والإنسانية، في أبعادها الاجتماعيّة والقيمية، أو في آفاقها السياسيّة والحقوقيّة[١٣]. كما سيأتي عما قريب.

ولقد أضاف مطهّري إلى كل هذه المعرفة، اطِّلاعاً ـ في حدود ما كان يملك من مصادر ومنابع ـ كافياً على تيّارات الفكر الغربيّ وعلى تنوعها واختلافها، في الفلسفة والاجتماع والسياسة، وعلى حصيلة ما بلغه تطوّر العلوم الطبيعية والأفكار المُتصلة بها هناك، وعلى ما تمخَّضت عنه تجربته المعرفيّة من نُظم وقوانين وتشريعات، وما كشَف عنه حِراكه من مؤسسات. ولقد كان اطلاعه عليها من خلال ما يكتبه المثقفون المتغربون والمفكرون المتنورون، وما يُترجم إلى الفارسية من نصوص كتابه ومُثقفيه ومفكريه ومُصلحيه... وعدم معرفته في الواقع باللغات الغربيّة كانت إحدى ثغرات التي لم يكن من الممكن بالنسبة إلى مفكر بحجمه التغاضي عنها وتجاوزها، وهذا ما جعل اطلاعه على هذه الأيديولوجيات والأفكار واستفادته منها، ومناقشته لها قاصرة ومنقوصة.

خصائصُ شخصيته العلمية

تحلّى مُطَهّري بجملة كبيرة من

الخصال العلمية التي تميّزت بها شخصيته، وقد تجلَّت في نتاجه العلمي وفي تدريسه وفي خطابه، وفي تجربة نضاله على حد سواء، منها:

ـ إيمانه العميق بما كان يدعو إليه ويُنظّر له ويُجاهد من أجله، من المبادئ والمفاهيم والرؤى، وصِدق إخلاصه لمواقفه، وثباته على قناعاته من غير تعصُّب أو تزمُّت أو تقوقع.

ـ دقَّة منهجه في التفكير، وعُمق طريقته في معالجة المشكلات. فهو كان يعرض للمسائل التي تشغل فكره عرضاً تفصيلياً، مُوضحاً تاريخها، واصفاً إيَّاها وصفاً دقيقاً وموضوعياً، رابطاً بين القضايا ربطاً منطقياً مُحكماً، مستنبطاً النتائج بروِّية وحُسن تقدير، مع قدرة مشهودة على التحليل والتفسير والشرح.

كان مطهّري يتمتع بعقل مُتجاوز، يرفض التقليد الأعمى للأفكار حتّى لو كانت راسخة ثابتة، شائعة ومنتشرة، ويلجأ إلى النقد الواعي والتمحيص المُتبصر لكل ما يقع عليه فكره منها، من غير أن يقع تحت سلطانها أو يأسره بريقها، أو يطغى عليه تماسك منطقها. وهو لم يكن يقبل رأياً أو يرفضه إلّا بحُجّة واضحة تؤكده أو بُرهان جلي يُعضده ويُؤيده[١٤].

كما كان لمطهّري طريقة فريدة في القراءة والدرس، ونهجٌ خاص لم يَحِد عنه إلى آخر أيامه، فهو لم يكن ينتقل من كتاب يُطالعه إلى كتاب آخر حتى تستقر في وعيه جملة قضاياه ومسائله، ويحفظ جماع مضامينه، حتى لو استدعاه ذلك أن يقرأه مرات كثيرة، ثم يضع ملاحظاته عليه ومناقشاته له في بطاقات خاصة ويحفظها لوقت الحاجة. ثم إذا ما انتهى منه انشغل بكتاب آخر في موضوعه، أو قريب منه، توسعاً منه في الإطلاع على الموضوع نفسه في أكثر

من كتاب. ويُكرر سيرته هذه مع الكتاب الجديد من غير تغيير. وهو إنَّما كان يفعل ذلك لقناعته بأنَّ العقل كالمكتبة ينبغي أن ترتب الكتب فيها حسب الموضوعات ليسهل الرجوع إليها عند الحاجة، فلا يختلط فيها موضوع بآخر، فيصعب عندها استجماع الموضوعات والانتفاع منها بسهولة ويُسر. ومثل هذه الطريقة في القراءة سمحت لمطهّري أن يُوسع من ثقافته ومن معارفه، وأن ينتفع منها كأفضل ما يكون الانتفاع[١٥].

والملفت في نتاجه أنه كان يُعالج فيه من الموضوعات ما تمس إليه الحاجة ويتَّصل بالمجتمع وحركة الناس وبالمشكلات التي يضطرب بها الواقع، فيختار الأهم منها ثم المُهم. ولقد كان يرى في الانضغال بالموضوعات الأكاديمية البحتة التي لا تتصل بالواقع ولا تعالج مشاكله ترفاً فكرياً، يقل نفعه وتنتفي فائدته[١٦].

وقد كان يُعيد النَّظر في ما يكتب، ويحذف أو يزيد حسب الحاجة، ويعرض كل ذلك على طلابه أو زملائه أو أصدقائه لينظروا فيه، ويضعوا ملاحظاتهم عليه، قبل أن يدفع به إلى المطبعة أو ينشره في الناس، ولم يكن يجد حرجاً في التراجع عن فكرة يظهر له خطؤها، أو يتبيَّن تهافتها، أو يتضح خواؤُها، في تواضع مُلفت وأدب جَم.

أما في تدريسه ومحاضراته وخطاباته، فلقد كان يملك لُغة واضحة سهلة يسيرة، وقُدرة فائقة على التبسيط، وانسياباً جذاباً يأخذ بالقلوب والعقول، حتى إنَّ أشد الموضوعات صعوبة وتعقيداً كانت تجد في قلمه أو لسانه الوسيلة التي تجعلها أقرب إلى التناول والفهم، وتُيسرها للاستيعاب بلا عناءولا تكلف جُهد، وهي خاصية عند مطهّري لا تكشف فقط عن قدرات لغوية وتعليمية توصيلية، بل كذلك عن

استيعاب شامل للأفكار التي ينشغل بشرحها وتدريسها، أو للموضوعات التي يُحاضر حولها، وعن وضوح للمفاهيم يجعلها طيِّعة بين يديه يُجريها كيفما يشاء ويتصرف بها حيث يهوى ويرغب[١٧].

ولقد كان مطهّري شديد الإيمان بحرية الفكر، وبحرية التعبير والرأي، ولم يكن ذلك عنده مُجرد إيمان، لا يجد طريقه إلى التطبيق ولا تُجسِّده الممارسة، بل إيماناً مقروناً بعمل، واعتقاداً تؤكده الممارسة. ولقد كان يؤكد على الدوام على حق كل شخص في أن يُعلن عما يراه بلا خوف أو اضطهاد أو خشية قمع.. وأن الإسلام يضمن حرية الفكر وحرية القول، في سلامه نية وصدق قصد، ومن غير خداع أو تضليل[١٨]، مفترضاً أنَّ ذلك هو أفضل سبيل لمواجهة الآراء الأخرى، لأنَّ القمع والتسلط لا يُولِّدان إلا الهزيمة والانكسار[١٩]، ولأنَّ المحافظة على تصورات الإسلام ومعتقداته إنَّما تتم من خلال العلم القائم على المنطق والعقل والإقناع والحجة في مواجهة ما يبثه الآخرون من معتقدات ويعلنونه من آراء، لا بالحجر على الأفكار وإقصاء أصحابها والتنكيل بهم[٢٠].

ومن خصائصه أنَّه وازن بين مُقتضيات العقل في شخصيته ومُقتضيات الروح، فلم يشغله اهتمامه بالمعرفة والعلوم والثقافة، واحترافه لمعالجة الأفكار والآراء، وتبحره على مشكلات الفكر، عن الاهتمام بالعبادة وتهذيب الذات، وترويض النفس، وتنمية الجوانب المعنويّة عنده. ولقد كان يُعرف عنه انشغاله الدائم بتلاوة القرآن والدعاء، والتزامه الصارم بالعبادة بما تعنيه العبادة من التزام ومسؤولية، وبما تُجسده من مضامين إنسانية عميقة، ودلالات روحية. كل تلك الخصائص،

وبعض آخر لم نذكره، كانت خصائص مُطهّري المفكر والمناضل، التي جعلت من شخصيته شخصيّة فريدة في عطائها وفي نضالها، في قناعاتها وفي تجربة سلوكها، في مواقفها وفي ما رسمته لحياتها من أهداف وطموحات ومقاصد.

رابعاً: مساراتُ تفكيره « من خلال نتاجه »:

ليس من الصَّعب تحديد المسارات الفكريّة للشهيد مُطهّري، والانشغالات المعرفيّة التي شكلت محور نشاطه الثقافيّ وتأمله وتفكيره. وهي بالرَّغم من تنوعها واتساعها تتأطَّر ضمن خمسة أُطر عامة تجمعها، وضمن رُؤية شمالة وكلية تدور في فلكها، وتخدم هدفاً محدداً وواضحاً، هو مشروع النهوض والإصلاح.

وقد عرض مُطهّري جُملة رؤاه وتصوراته وقناعاته في مروحة واسعة من الكتب والمحاضرات والمقالات والندوات، وعبَّر عنها في نقاشات ولقاءات وحوارات يصعب على المرء متابعتها بمجموعها، نظراً إلى تنوعها واختلاف ظروف إطلاقها، ولأنَّها نبتت وتشكلت في ضوء التجربة العملية للشهيد ومن وّحي حركة نضاله، وفي سياق ممارسته لفعل الإصلاح، انخراطه في مُمارسة العمل التغييري في خضمِّ وقائع ضاغطة وأحداث متسارعة ومتوترة.

والمُلفت أنَّ مطهّري لم يكن يطمح من خلال نتاجه إلى فعل تنظير منهجي مُتناسق لمشروعه الإصلاحي بمعزل عن الوقائع، كما لم يكن يرمي إلى تأسيس رُؤية للمستقبل تتجاوز حراك المجتمع، ثم يسقطها عليه من أعلى في عملية تطبيق قهرية، كانت نتيجتها في نظرة مُخيبة للآمال ومُحبطة في تجارب سابقة، لم تغب عن الذاكرة بعد.

ولأجل ذلك، فمن الصَّعب وضع

تصنيف موضوعي لنتاجه الفكري، وتشكيل ترسيمة واضحة لمؤلّفاته، تُدرجها في عناوين كلية متناسقة ومنسجمة. فهي في عمومها جاءت استجابة لتحدّيات معرفيّة، فلسفيّة وفكريّة، ولدواع آنية وفورية، ولحاجات ماسة كات تتولَّد على ضوء وقائع، وتتطلبها أسئلة ضاغطة ومُحرّضة ؛ لكنّها في مجموعها كانت تصبُّ في خدمة هدف مُحدد وهو تحديد المسارات العامة لحركة النهوض، وتوجيه تجربة الإصلاح والتجديد، وتنظيم الطاقات وتحفيزها، وخَلق الركائز والأسس والمنطلقات، والإجابة على التحدّيات المتجددة والأسئلة الطارئة، ورسم ملامح المقاصد والغايات والأهداف، بما يكفل لتجربة النهوض أن تُؤتي ثمارها، وأن تبلغ نهاياتها المجيدة، وأن تستوي على سوقها، وتُترجم شعاراتها في مسار العمل والفعل. فلا تنقلب إلى مُجرد ذكرى، أو حُلم يدغدغ الآمال، ويعيش في الشعور، ويرسم في إطار الفكر كطوباوية خاوية، وكنظريّة مجردة عميقة، ورؤية عقلية تتطلب التماسك على حساب إمكانية التطبيق، وتهمل الشروط الخاصة لسيرورة التاريخ وتحولاته وحراك المجتمع وتقلباته والظروف الموضوعية والواقعية المحيطة به، لصالح تماسك منطقي وشكلاني فارغ، أو عقلانية تجريدية عقيمة.

وإذا كان مشروع النهضة والإصلاح هو الموضوع الأشمل الذي شغل فكر مطهّري وطغى على نتاجه، فإنَّه من الطبيعي أن ترتبط كل الموضوعات الأخرى التي انتشرت على مدى مساحة نتاجه المتنوع والمتشعب بهذه الإشكاليّة ارتباطاً حميماً، وتتصل بها بشكل أو بآخر، وتخدمها من قريب أو من بعيد، سواء في ذلك ما يتصل بالمواجهة مع التيّارات الفكريّة السائدة والمهيمنة،

شرقيها وغربيّها، أم بمواجهة التشويه المتعاظم للمفايم الدينيّة والاستخدام المنحرف لها، أم بمحاربة الجمود الفكري الذي أفقد الدين فاعليته وعزله عن واقع الحياة، أم بالتقويم الشامل لتجارب النهوض التي نشطت في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن الماضي في العالم الإسلاميّ، أم بإعادة شكيل علوم الإسلام وتطوير آليات فهمه ليستجيب لمتطلبات العصر وأسئلته... إلخ.

ونحن إذا أردنا أن نحصر الوقائع التي وجهت تفكير مُطهّري وحكمت مواقفه المعرفيّة، أمكننا وضعها ضمن مسار شامل ومسارات رديفة. أما المسار الشامل، فهو قضية الإصلاح والنهوض، وهي تطلبت منه قراءة متأنية لأسباب الانحطاط وللشروط التاريخيّة التي ولدته والمحطات التي مرّ فيها، ولآثاره المُدمرة والسلبية، ومن ثمّ التبصر في المعوقات التي تقف في وجه فعل نُهوض شامل يطالُ جميع مستويات الاجتماع، وفي الكيفية التي تسمح بتجاوزها وتخطيها وتذليلها... وفي الشروط الواقعية ـ العملية، والفكريّة ـ المعرفيّة والتربوية والنفسيّة التي تكفل له نجاحه، وتُبلغه نهاياته، وتضمن حُسن إنجازه.

أما المسارات الرَّديفة التي كانت تخدم عند مطهّري هذا المسار الأساس، فهي ثلاثة:

الأوّل: إعادة بلورة رُؤية شاملة للإسلام في موقفه الكوني ورؤيته الفلسفيّة للعالم، وتأصيل موقفه من المجتمع والتاريخ والإنسان، باعتباره أيديولوجيا شاملة للحياة، ورُؤية واضحة لأهداف الوجود الإنساني ومقاصده، ولغاياته ومآلاته، في انفتاح شامل على آفاق المعرفة الإنسانية ونتاجاتها وتطوّراتها، من غير تحجُّر أو جُمود،

وفي حوار هادئ مع تجارب الأمم والشعوب وتراثاتها وتقاليدها الفكريّة، من غير استلاب أو ذوبان أو تبعية، وإعادة تكوين للمنظومة الحقوقيّة والشرعية للإسلام، بما يكفل لها الاستجابة لتطوّرات المجتمع وتعقد أوضاعه، ومُجابهة تحدّياته وأسئلته الطارئة والملحة والمتجددة، من خلال إطلاق العنان من جهة لطاقات الاجتهاد والتبصُّر ضمن قوانين الإسلام الكلية ومقاصده الشاملة وغاياته القصية، ومجابهة الجمود والتقليد والعُزلة والتقوقع والسكون والثبات من جهة أخرى.

الثاني: مُواجهة الفهم الخاطئ للإسلام ولتعاليمه والسطحية في تناول مبادئه وأصوله، والتشويه المتعمد أو الجاهل لتشريعاته، والاستغلال النفعي الآني والعابر والمصلحي لشعاراته في الحرية والعدالة والمساواة وحقوق الإنسان.

الثالث: مُواجهة الأيديولوجيات الوافدة، والفلسفات المستوردة والمذاهب العقلية والإنسانية الرائجة ومقارعتها، عبر نقاش منطقي هادئ، وحوار عقلاني موضوعي، لبيان ما تحتويه من حق، وما تشمل عليه من باطل، ولتحديد قيمة ما تتمتع به من أصالة أو تهافت، بعيداً عن العاطفة والانفعال، أو المكابرة والمعاندة، أو الخنوع والشعور بالدونية. ولقد كان كل مَسارٍ من هذه المسارات يتطلب من مُطهّري الانشغال على محاور كانت تخدم في العموم المسار الأساس الذي تندرج تحته، في وضوح رؤية ونفاذ بصيرة وإدراك للنتائج، وفي صبر وأناة كبيرين، ونشاط ودَأب قلّ أن يتوفر عليهما مفكر بمفرده، أو يملك من القدرة والطاقة ما يُساعده على القيام بهما. وسوف نتكلم - بإيجاز - على هذه المسارات على ضوء نتاجه،

تاركين تفصيل الكلام فيها إلى الفصول التالية.

١ ـــ المسار العام « إشكاليّة الانحطاط والنُّهوض »

لا يُمكن أن تتوفر رُؤية لواقع التقدم والنهوض ولمشروعهما، من غير أن يُقرن ذلك بالتبصُّر بواقعة الانحطاط التي هيمنت على الواقع الإسلاميّ قروناً طويلة وقادته في مدارات التخلّف والضعف والتفكك، والانعزال عن المشاركة بفاعليّة في السيرورة الحضارية للواقع الحديث. ولأجل ذلك شكل سؤال الانحطاط مُفتتح كل مشروع فكري للنهوض، ومُقدمة كل ممارسة، سواء بمعناها الواسع الشامل أم بمعناها الضيق المحدود. ولقد راح هذا السؤال يتكرر في مدى مساحة القرن الماضي كلازمة تُؤكد نفسها، وتجدد باستمرار، من غير أن تَفقد معناها أو جدواها أو مشروعيتها، إذ لا معنى للبحث عن سبيل يتجاوز المسلمون من خلاله واقعهم إلى فضاء جديد، من غير الإجابة عليه إجابة موضوعية، وتحليل الواقعة التي حرَّكته، في مضمونها وجوهرها، وعوامل تحققها، والظروف التاريخيّة والفكريّة والنفسيّة التي أفضت إليها.

ومطهّري شأنه شأن كل منظري الإصلاح ورجاله، طغى على فكره مثل هذا السؤال، وهَيمن على وجدانه، ودفعه إلى تقديم مشروع رُؤية حَّل من خلاله هذه الواقعة، ووضع الإطار العام للعوامل التي ولدتها، وأحاطت بنشوئها وساهمت في هيمنتها وطُغيانها ومنحتها الديمومة والاستمرار.

وقد قدّم رُؤيته هذه في خطوطها العريضة في الكثير من مُؤلّفاته، وأشار إليها إشارات مُعبرة في جملة من محاضراته. ونجد لها صدى في كتب: كالإسلام ومتطلبات العصر، والهدف

السامي للحياة الإنسانية، ومقدمة إلى الرؤية الإسلاميّة للعالم، والإنسان والمصير، والمجتمع والتاريخ، وفي رحاب نهج البلاغة، والهجرة والجهاد، وشهيد يتحدث عن الشهيد، والرُّشد الإسلاميّ، وختم النبوة... وكتب أخرى كثيرة ؛ لكنّنا نقع على خطوطها الكبرى وملامحها العامة، في مقدمته المفصلة لكتابة القضاء والقدر، أو الإنسان والقضاء والقدر.

أمَّا العوامل التي تكفل للمسلمين نُهوضهم، فلقد عرض لخطوطها الكبرى في بحثه حول الرُّشد الإسلاميّ، وفي دراسته الموجزة للحركات الإسلاميّة في القرن الأخير، والتي حدَّد فيها أسباب انكفاء هذه الحركات، وعدم تحقيقها لأهدافها، وتراجعها عن كثير من طموحاتها، وفي كتابه الأوسع: الإسلام ومُتطلبات العصر. وسنكتفي هنا بإيراد الأفكار الأساسية لهذه الرؤية كما ساقها في هذه الكتب.

يُحدِّد مُطهّري في مُفتتح كلامه عن الانحطاط في العالم الإسلاميّ، بداية انشغاله بهذه الإشكاليّة بالقول: « لست أعلم بالدقة متى واجهت مسألة انحطاط المسلمين، ومُنذ متى عُنيت شخصياً بالبحث والتحقيق فيها، ورُحت أفكر في مجالها ؛ لكنّني أستطيع القول جازماً بأن هذه المسألة كانت ماثلة أمامي منذ أكثر من عشرين عاماً تدعوني إلى التفكير المُلِّح حولها، ومطالعة ما يكتبه الآخرون في مجالها »[٢١]، ولشدة طغيان هذا الموضوع على تفكيره فإنَّه اندفع في قراءة كل ما يقع تحت يده في هذا الإطار من كتب وأبحاث ومقالات، وفي الاستماع بشغف إلى أي مُتحدث في هذا الموضوع.

لكنَّه انتهى من ذلك كلّه إلى حالة من عدم القناعة، حفّزته لإعادة تأمل

الإشكاليّة في كل جوانبها وأبعادها، مُتلمساً بنفسه السبل التي تكفل إصلاح الأوضاع التي يعيشها العالم الإسلاميّ في زمنه، رابطاً إياها بقراءة مُتأنية لعلل الانحطاط التي ترسَّخت في الماضي واستمرت عبر قرون وبقيت حية إلى العصور الأخيرة، يقول في نص مُقتضب: « ومُنذ ذلك الحين لحد الآن لم أكن أجد أمامي قولاً أو كتاباً في هذا الموضوع إلا قرأته بكل شوق أو استمعت إليه بتلهف، تواقاً لمعرفة رأي المتحدث أو الكاتب بدقَّة ؛ ذلك لأنَّ معرفة سبيل إصلاح الأوضاع الحاضرة في العالم الإسلاميّ مرتبط بشدة بمعرفة علل الانحطاط وموجباته التي توفرت في الماضي، أو التي هي قائمة فعلاً »[٢٢].

وقد أدرك مُطهّري بعُمق بصيرته، الأبعاد الواسعة لهذا الموضوع، والآفاق المُتشعبة لهذه الإشكاليّة، والتي لا يتوفر لفرد واحد مهما أُوتي من القدرات واستجمع من الملكات والمؤهّلات، القدرة على الإحاطة بها أو أن يستوفي البحث عنها، لكنّه مع ذلك قرر الخوض في غمارها محاولاً فتح الأفق على معالجات أوسع، وتمهيد الطريق لشركاء يُسا همون بدورهم في إغناء بآرائهم وأفكارهم ومعالجاتهم. يقول: « وهنا انفتحت أمامي الأبعاد الواسعة لهذا البحث، وعرفتُ أنَّه إذا كانت النِّية على القيام بتحقيق علمي وافٍ حول هذا الموضوع، فإنَّ البحث يجب أن يشمل موضوعات كثيرة، كما إنَّ التحقيق فيها كلها خارج عن إمكانية شخص واحد، أو على الأقل يحتاج إلى سنين طويلة من البحث والتمحيص، ومع ذلك صممت ـ كمقدمة لذلك ـ على ذكر البحوث المرتبطة مُصنفة ومختصرة، وعلى التحقيق في بعض الموضوعات كنموذج للبحث، وفتح الطريق أمام الآخرين »[٢٣]، وعلى مدى صفحات

طويلة من هذه المقدمة، يُحاول مُطهّري تصميم إطار عام للبحث، مؤكداً ضرورة معالجة الإشكالّة بموضوعية، من غير تستُّر على الحقائق والوقائع مهما كانت مُـرَّة، وأهمية الالتزام بالصراحة والوضوح من غير مجاملة أو مداورة، ومع انفتاح تام على ما يقوله غير المسلمين، وتعامل موضوعية مع أفكارهم وطروحاتهم، وانتفاع من جهودهم المعرفيّة، التاريخيّة والفكريّة، لتنجلي المشكلة في كل أبعادها، وتتَّضح في جماع معالمها وعناصرها ومكوناتها.

والبحث ع هذه الإشكاليّة ـ بحسبه ـ له مستويات عدة:

١ ـ مستوى البحث الاجتماعي في الواقع الراهن للمسلمين.

٢ ـ مستوى البحث الفلسفي التاريخي، أعني مستوى البحث في فلسفة التاريخ، مما يتَّصل بازدهار الحضارات وسقوطها.

٣ ـ مستوى البحث المعرفيّ ـ العقلي، أو بعبارة، الإبستملوجي، أو السُّوسيولوجي، وهو الذي يعني بتلمس نشوء الأفكار وتطوّرها وانزياحها، بفعل ظروف وعوامل، عن دلالاتها الأوّلى، وبالتعرف على كيفية اشتغالها وفعلها في حركة الاجتماع الإنساني، وتأثيرها في جملة سلوكه ونظام علاقاته وطبيعة مقاصده وأهدافه، ليتحدد إلى أي مدى تُشكل أفكار بعينها، ومنظومات معرفيّة إسلاميّة، تمت إزاحتها عن دلالاتها الأساسية ـ كالقضاء والقدر، ونظام الأخلاق والقيم، والزهد والتوكل، والسلفية العقلية والجمود المعرفيّ، والتمسك بظواهر الدين ـ عوامل للانحطاط والتراجع.

٤ ـ مستوى البحث التاريخي، والذي يُعني بتحليل الوقائع التاريخيّة والأحداث، والمحطات المفصلية في حركة

الاجتماع، ناظراً في أسباب حدوثها، وظروف تكونها، وآثارها التي ترتَّبت عليها[٢٤].

ولم يُتح لمُطهّري في الواقع إنجاز بحث مفصل في المستويات هذه كافة. وهو في معرض استعراضه لها، كان كثير التأكيد على أن معالجتها تحتاج إلى جُهود مفكرين باحثين ومُتخصصين مُتبحرين، ليكتمل المشروع الشامل لقراءة إشكاليّة الانحطاط في كل أبعادها. وهو شيء بالرغم من أهميته وضرورته الملحة يحتاج إلى وقت كاف وظروف ملائمة وإمكانات بشريّة وفكريّة كبيرة، لم يكن يجد في نفسه امتلاكها أو الاستحواذ عليها.

لكنّه وضع أمام الباحثين مدارات ثلاثة في موضوع الانحطاط:

١ ـ يرتبط بالإسلام، وطبيعة دوره في هذا الإطار، حيث يُناقش بعمق فكرة ترسَّخت في فلسفة التاريخ مفادها أن العامل الذي يكون سبباً في قوة أمة في زمن حضاري ما، يكون سبباً في انحطاطها، ولما كان الإسلام قاعدة نهوض المسلمين في فترات ازدهاره، فإنَّه تحول في ما بعد إلى عائق أمام التطوّر وعامل سلبي في موضوعة النهوض، وسبب مباشر للانحطاط. وهوسوف يستوعب هذا الموضوع بحثاً وتحليلاً في كتب شتَّى[٢٥]. أبرزها على الإطلاق: الإسلام ومُتطلبات العصر.

٢ ـ ومثل هذا العمل يندرج حسب تخطيطنا في المسار الأوّل من المسارات الرديفة التي عرضناها آنفاً، وهي ضرورة إحياء الإسلام باعتباره أيديولوجيا صالحة لكل زمان ومكان، شاملة لكل ميادين الحياة كما سيأتي.

٣ ـ يرتبط بالمسلمين، ويتَّصل بفاعليتهم الحضارية، وبالكيفية التي تعاملوا بها مع مفاهيم الإسلام ومبادئه

وقيمه، وعن الجمود الفكري والانحراف... إلخ.

٤ ــ ما يتصل بعوامل خارجية، وبالاستبداد السياسيّ وانعدام حرية الفكر، إلخ... كالاستعمار، والتنازع والاختلاف... وما شابهه، والغزو الفكري والروحي والحضاري، والثقافيّ والاختراق العقلي المعنوي[٢٦].

هذا في ما يتَّصل بالانحطاط، أما ما يتَّصل بالإحياء، فلقد سخَّر له مُطهّري جزءاً كبيراً من نتاجه، وأولاه أهمية كبيرة، واعتبر أنه العنصر الرديف في بناء رؤية متكاملة للإصلاح والنهوض، بعد تحديد مفهوم الانحطاط ومعالجة ظاهرته وإدراك عواملها وأسبابها.

والإحياء بنظر مُطهّري[٢٧]، عرفه المسلمون مُذ زمن بعيد ومارسوا مفاعيله حينما أدركوا ضرورة التجديد والإصلاح في الدين عند ظهور البدع، وحينما راح يخبو وَهجُه في نفوس أتباعه، وتقلَّصت فاعليته في وجدانهم، بفعل تطوّر الزمان وبُعدهم عن منبعه الحي المُتوهج زمن النبي (ص). ففكرة الإحياء فكرة أصيلة إذن لا تتصل بواقعة تعرُّف المسلمين على الغرب واطلاعهم على حداثته انجازاته في المعرفة والعلم والتقنية والتنظيم. نعم كان ذلك في حقيقته باعثاً لهم على إعادة الشعور بالمسؤولية تجاه فعل الإحياء، والنهوض بأعبائه والتزاماته ومقتضياته.

وبحسب مُطهّري فإنَّ الإحياء الديني هو المُرتكز الجوهري للبناء الحضاري الإسلاميّ ومن دونه أو بمعزل عنه سوف لن يتحقق نهوض حضاري شامل ولا تقدُّم. لكن من غير أن يتوهَّم مُتوهم أن ذلك يقتضي تكرار تجارب الماضين، أو استنساخ ثمرات أفكارهم، وما قُيض لهم أن ينتجوه من معرفة خدمة

لحاجاتهم على ضوء الإسلام ومن وَحيه، بل من خلال تدبر أصوله واكتناه قيمه في انفتاح على أسئلة الراهن وهواجسه، مقرونة بمحاولة تخليص مبادئه ممَّا علق بها على مدى الزمن من سوء فهم وتحريف وتشويه، أو من تطويع وتأويل، أو من استثمار خاطئ ومشوِّه.

ولقد عبّر مُطهّري عن مضمون هذا الفهم ونظرته إليه فقال: « وأنا أتحدث عن هذه المفاهيم، لا بدَّ لي أن أتطرق إلى موضوع يتعلق بها، وهو موضوع الإحياء الديني، لقد وُفِّقت مرة لإلقاء محاضرة حوله بعنوان إحياء الفكر الديني.. وذكرت هناك أن الدين ـ كأية حقيقة من الحقائق ـ يُصاب بأعراض... و... قُلت: إنَّ الدين كالماء الذي ينبع من العين الصافية، بيد أه يتلوث بمجرد جريانه في الإنهار، ويجب تعقيمه وتطهيره من هذه الملوثات »[٢٨].

وإذا كان الإحياء الديني هو المرتكز الأساس لكل نُهوض حضاري شامل، من خلال دفع الإسلام في خضم الحياة وترسيخ مفاهيمه في تجربة التاريخ ـ كما سيأتي ـ فإنَّ لهذا النهوض، عبر الإحياء، مداخل متنوعة يُمكن إيجازها كالتالي: العناية بتأكيد الهوية الحضارية للمسلمين، وتحديد الموقف الحضاري من الآخر، وتحديد الأهداف والغايات لكل نشاء إنساني، وتحرير الطاقات الفردية والاجتماعيّة لخدمتها، والتأكيد على عناصر التخطيط والتنظيم العقلاني للمصالح، وتحفيز القدرات الكامنة في الأمة وتحريكها، وامتلاك نظرة واعية إلى المستقبل. ولقد عبَّر عن الآثار التي يُرتبها فقدان الهوية فقال: « إنَّ ذوبان الشخصيّة حرام... والتقليد الأعمى حرام، والذوبان والتلاشي حرامٌ.. إلخ »[٢٩].

وحفظُ الهوية يقتضي إحراز

الاستقلال الفكري والثقافيّ بالدرجة الأولى، وهو شيء غير الجُمود - الذي سيواجه مُطهّري - ولا هو نزعة متطرفة في التجديد كذلك، بل هو وسيط بينهما. ذلك أنَّ « لكل مجتمع ثقافة، وهذه الثقافة تعبِّر عن روح تلك الجماعة »[٣٠] حسب مُطهّري، ولأجل ذلك فإنَّ أي انهيار ثقافيّ أو انهزام أو فقدان للشعور بالهوية الحضارية يقود إلى السقوط والتبعية والخضوع. أما ضرورة امتلاك رؤية شاملة لكل نشاط إنساني وللغايات والأهداف التي ينبغي أن يصل إليها، فلقد عالجه مُطهّري في بحث مستقل جامع تحت عنوان: « الهدف السامي للحياة الإنسانية »[٣١].

وإذا كان هذا الكتاب قد انشغل بقضية المنظومة الفكريّة التي ترسم الهدف لحياة الإنسان ونشاطه وفاعليته، والتي تمنح حياته معنى، فإنَّ مُطهّري عَكف على تعميق فهمه للرُؤية الكونيّة الشاملة من منظور الإسلام، وعلى ضرورة إدخالها في وجدان الأمة لتبني واقعها عليها ولترسم صورة مستقبلها من خلالها، ولتستفيد من طاقاتها على ضوئها ومن وحيها وارتكازاً إليها، في حلقات أخرى تقع في عدَّة أجزاء تحت عنوان: « مقدمة إلى النظرة الإسلامية للعالم »[٣٢].

وقد يُلفت عند مُطهّري بحث موجز تحت عنوان « الرُّشد الإسلاميّ » يُلقي ضوءاً كاشفاً على أحد مداخل النهوض الحضاري عنده، وهي قضية التخطيط للمستقبل، وتنمية الجهد الإنساني في إطار مفاهيمي وتطبيقي. مُركزاً فيه على التنمية السياسيّة والاجتماعيّة للأمة، وعلى وضع برنامج منظم لمواجهة المستقبل وتوجيهه وقيادته، معتقداً أنَّ « التأهّب لمواجهة المستقبل وقيادته وتوجيهه هي من مؤشرات التنمية الاجتماعيّة »[٣٣]، وأنَّ أحداثه

تخضع لقوانين ثابتة، فهي إذن قابلة للتنبؤ والتوجيه، من خلال الاعتماد على معرفة المؤثرات والعوامل الفاعلة في المرحلة الراهنة ومتطلباتها، « ذلك أنَّ التنبؤ العلمي يعتمد في أساسه على معرفة المؤثرات والعوامل الفاعلة في المرحلة الراهنة، فمعرفة الحاضر لها دور كبير في القدرة على التنبؤ بالمستقبل، إذن فشرط التنمية وعي العصر ومعرفة مُتطلباته، والذين لا يعرفون عصرهم جيداً لا يُمكنهم التنبؤ بالمستقبل، ولا السيطرة عليه وقيادته »[٣٤].

ولقد ضمَّت هذه الدراسة على إيجازها مُنطلقات حضارية أُخرى في الوقت والعمل، وفي القابليات الذهنية والطاقات المعنويّة والنفسيّة والإدارية التي يُمكن تنميتها وتوظيفها في النهضة الشاملة والبناء الحضاري، مقرونة مع أمثلة تطبيقية وعملية وأمثلة حسيَّة من حياة المسلمين ونماذج من واقعهم[٣٥].

وقد ألمح مُطَهّري إلى ضرورة التخطيط للمستقبل في كتابه « الحركات الإسلاميّة في القرن الأخير »، وأنَّه كيف يُؤدي الإخلال بهذا المدخل الحضاري إلى إهدار الكثير من الطاقات البشريّة والإمكانات، وإلى تفويت كثير من الفُرص التي لا تتكرر، مُرجعاً أحد أسباب إخفاق الحركات الإسلاميّة في العالم الإسلاميّ الحديث وتراجعها، إلى إهمال قضية التخطيط هذه[٣٦]. وسوف نتوسع في هذا الجانب عند حديثنا على الإشكاليّة الإصلاحيّة في فكر مُطهّري في ما يلي من فصول، نفصل فيها القول في بعض ما أجملناه هنا وأوجزنا الحديث فيه.

٢ ـ المسار التفصيلي الأوّل: الرؤية الكونيّة للإسلام ونظامه الحقوقيّ والتشريعيّ

كثيرة هي المؤلفات التي تركها مُطَهّري حول هذا الجانب المهم من جوانب منظومته الفكريّة. فقد حاول في بعضها إعادة بلورة تصور شامل للرؤية التوحيديّة الكونيّة في الإسلام مُستثمراً في ذلك معرفته المُعمقة بالقرآن، وبالمنظومات الفلسفيّة الإسلاميّة على تنوعها، وبالتجربة الروحية والمعنويّة المتطاولة. وقد جاءت معالجته لهذا الموضوع تارة بنحو مستقل، يُقصد منه بيان هذه الرؤية في مرتكزاتها وأسسها وفي عناصرها ومكوناتها وفي أهدافها ومقاصدها وفي الأثر الذي تتركه في الوعي الفردي والجماعي للأمة، كما هو الحال مثلاً في كتابه: الإنسان والمصير، أو الإنسان والقضاء والقدر، أو الله والإنسان، أو في الهدف السامي للحياة الإنسانية، أو في الرؤية التوحيديّة للعالم، أو في كتبه الكلامية التي انصبّ الاهتمام فيها على معالجة موضوعات الاعتقاد كالتوحيد، والنبوة والإمامة والمعاد. وتارة أخرى كانت تأتي في سياق معالجاته أو مُناقشاتها لتيّارات الفكريّة الوافدة، غربيّة وشرقيّة، كما يتجلّى في كتابه: أسس الفلسفة والمذهب الواقعي، أو في كتابه: فلسفة الأخلاق، أو في: الدوافع نحو المادّية.

وقد كان يَعنيه، مضافاً إلى عرض الرؤية الكونيّة التوحيديّة للإسلام، تقديم تصوُّر للاجتماع البشري وللتاريخ وللفاعليّة الإنسانية وللقوانين التي تحكم حركتها. ولقد جاءت خُلاصة ذلك وافية في كتابه: المجتمع والتاريخ. وهو لم يكن ليغَفلَ كذلك عن إعادة بلورة تصوُّر للمفاهيم المُوجهة والمحرِّكة لكل فاعليّة وسلوك، كالعدالة والمساواة والحرية، والزهد والتوكل، والعبادة.. والشهادة.. إلخ. فجاءت تصوراته في هذا الإطار مُكملة لجماع رؤيته مبثوثة في حنايا كثير من مُؤلّفاته ومحاضراته[٣٨].

ولأنَّ مُطهّري كان يستلهم في محاولته بناء رُؤيته للتصور الإسلاميّ للعالم موروثاً عقائدياً وفلسفياً ضخماً ومُعقداً، فلقد حاول استرجاعه وإعادة إحيائه وتأكيد جدواه وفاعليته. فانشغل بإعادة الكشف عن جوانب هذا التراث مُحلِّلا شارحاً، موضحاً ومُطوراً.

وقد عرض ذلك في كتب عدّة وشروحات غنية مُبسطة ومحاضرات مُنظمة، كما هو الحال في (مقالات فلسفي)، أو في شروحاته على منظومة السبزواري، أو معالجاته لموسوعات ابن سينا الميتافيزيقية.

ولأنَّ مُطَهّري كن يرى الإسلام نظاماً شاملاً للحياة ورُؤية متكاملة في الفكر وفي العمل، وقانوناً صالحاً للاستثمار في كل زمان ومكان، فإنَّه رأى ضرورة إعادة تكوين قضايا الشريعة ونظامها الحقوقيّ بما يتناسب مع مقتضيات الراهن الذي عزل هذه الشريعة عن واقع الناس، وراح يَسمَحُ بتكرارها بلا أدنى إبداع أو تجديد، فأفقدها حيويتها وجاذبيتها وَوَهجها وحرارتها.

وفي إطار الأوّل كان مُطَهّري موسوعياً، فقد حَلَّل طبيعة الاجتهاد وما يقوم عليه من مرتكزات وأسس، وما ينبغي أن يتوسّله من آليات وطرائق، كما حَلَّل الأهداف التي يطمح إليها، والإطار العام الذي يضبطه.

أمَّا في الإطار الثاني فقد كان واضحاً وصريحاً كأشدّ ما يكون الوضوح والصراحة، قاسياً كأبلغ ما تكون القسوة، مُحملاً المؤسسة الدينيّة آثار ما آلت إليه أوضاع الشريعة من ضُمور وانزواء وعجز وعُقم. وقد عرض ذلك بشكل مُفصل في كتب من قبيل: « مشكل أساسي در سازمان روحانيت »، والاجتهاد في الإسلام، وختم النبوة، والإسلام ومتطلبات

العصر. وفي مجموعة كبيرة من المحاضرات والبيانات والمقالات.

وإذا كان إحياء الإسلام هو المُرتكز الأساس والقاعدة الثابتة لكلِّ نهوض حضاري، فإنَّ مثل هذا الإحياء لا يتم إلا بإعادة دفعه في خضم الحياة مُجيباً على أسئلتها الكلية الشاملة المتصلة بالعالم وبالوجود، بالإنسان وبالمجتمع، بالمبدأ وبالمصير، مُرسخاً مبادئه في العدالة والمساواة والحرية في نفوس أبنائه وفي ممارساتهم، مستجيباً من خلال نُظمه الحقوقيّة وتشريعاته لتطوّرات التاريخ وتحولات المجتمع وتعاظم حاجاته وتعقد مشكلاته.

٣ ـ المسار التفصيلي الثاني: « مُواجهة التشويه المُنظَّم للإسلام وتعاليمه »

مثل هذا الطموح يُعيقه ـ حسب مُطَهّري ـ عاملان مُباشران وسلبيان. الأوّل، هو الفهم الساذج والسَّطحي والخجول لمثل هذا النظام في مبادئه الكلية وفي تفاصيله، والاستثمار المُرتجل لقيمه وإرشاداته. والثاني: هو التشويه المتعمد لكثير من تشريعاته، بُغية صرف الناس عنها، وإبعادهم عن مضامينها ودلالاتها، وعزلها عن أن تكون فاعلة مُؤثرة في بناء عقولهم وتوجيه سلوكهم.

وإذا كان العامل الثاني خطراً بما فيه الكفاية على موضوعة إعادة بعث رُوح الدين في وعيهم مُعيقاً له عن أداء دوره في جميع المستويات، فإنَّ خطر العامل الثاني أكبر وأعظم. والسَّبب أنَّ الذين نهضوا لتأكيد العامل الأوّل ونشره وترويجه والعمل له مَعرُوفو التوجّه والانتماء، وهم إنَّما ينطلقون من خلفيات هدامة ومُدمرة، لا فرق فيهم بين دعاة تغريب وتحديث والتحاق وانهزام من المفكرين المتنورين والمثقفين المُتبجِّحين الذين طغت على عقولهم

مظـــاهر التقـــدم الغـــربيّ ومشـــاهد الازدهار والرُّقي التي عاينوها، فاندفعوا قـاطعين مـع التـراث، مُشـوِّهين لمبادئـه، مُستهترين بتشريعاته وتعاليمه، معتقدين بأنَّها سبب مُعيق لبلوغ الحضارة الغربيّة مـن بابهـا الواسـع، وبـين سُلطة سياسيّة راحت تُعمق الهوة بين الإسلام وأتباعه، وتزيد الفجوة بين تعاليمه وبين عقولهم، سعياً منها لتأكيد سلطانها، بعد إفراغ الجمـــاهير مـــن محتـــواهم العقـــدي وانتمـائهم الـديني . ولترسـيخ هيمنتـها واستبدادها، من غير مُعارضة فاعلة، أو مُمانعة مؤثرة، أو حالة معترضة. فخطر هـؤلاء واضـح يَسـهُل إدراكـه ومعرفتـه، وتتيسـر مُواجهتـه وإسـقاطه، إذ يـدرك الشـعب طموحـاتهم وأهـدافهم وغايـاتهم وما يرمون إليه. لكنّ العامل الثاني إنَّما يُوجـده مُثقفـون ينتمـون إلـى الإسـلام وعلمـاء يتزيـون بـزي الـدين ويـدعون الانتساب إليـه والتحدث باسمـه والـدفاع عـن مبادئـه ويكتبـون في شـرح تعاليمـه وبيان أصوله وفروعه وتوضيح تشريعاته وقوانيه. فمجابهة هؤلاء أعقد، وتوضيح أخطائهم مُهمة شاقة عسيرة، وإعادتهم إلـى جـادَّة الصـواب والاسـتقامة صـعبة مُكلفة.

ويروي علي دواني[٣٩] قصة رجل دِينٍ أَلف كتاباً في التوحطد ونشره في النـاس، وأثـار مـن خلالـه الكـثير مـن الجـدل، وجمـع حولـه بسـبب أنصـاراً آمنـوا بمـا تضمّنه واعتقدوا بصواب ما احتواه، ولما وُوجهـت آراؤه ونُوقشـت أفكـاره، تعصَّـب لهـا ؛ فاسـتغله الـمُلحدون، واسـتثمروا تجربته. ولقد كان مُطَهّري يُعاين هذه الواقعة ويتألم لها، ويأسف لما تقود إليه مـن سلبيات وآثار مقيتة. ولقد تشكلت حول رجل الدين هذا في بدايات الثورة جمعيـة تُطلـق علـى نفسـها « جمعيـة الفرقان »، اتخذت من كتابه هذا ومن بعض الكتب الأخرى الشبيهة دستوراً

لحركتها، واغتالت في ما بعد وبوحي من أفكارها الشهيد مُطَهّري نفسه.

أما قصة مُطَهّري مع حُسينية الإرشاد وأفكار علي شريعتي، فهي مشهورة، إذ بالرَّغم من المكانة التي كان يحتلها الأخير في نفوس الشباب، والجهد الذي كان يقوم به ـ مُخلصاً ـ من أجل النهوض والتحرر، فلقد كانت بعض أفكاره تنمُّ عن قلّة اطلاع على المعارف الإسلاميّة في مضامينها العميقة. هذه كانت وجهة نظر مُطهّري الذي كان يُكنُّ لشريعتي الشيء الكثير من التقدير لدوره، والاحترام لشخصه، والاعتراف بطاقاته[٤٠].

لذلك فقد وجد أنَّ تقويم أفكار هذا المفكر المُصلح ضرورة تخدم شريعتي نفسه، وتحثُّه على إعادة التبصُّر في مضامين الإسلام ومعانيه، وتزيد من حرصه على أن يتأمل مفاهيمه بروِّية وصبر ومُكابدة، وتخدم كذلك حركة النهوض ؛ لكي لا تلتبس على الناس حقيقة ما يلقى إليهم من أفكار، وتخترق عقولهم تصورات تُقدم باسم الإسلام وهي ليست منه، وتُعشِّشُ في وجدانهم آراء وتصورات خاطئة فتوجِّه سلوكهم من غير أن يتبصّروا خطرها أو يدركوا سلبياتها[٤١].

وقد وجد مطهّري أنَّ مناقشة أفكار علي شريعتي بشكل علني تُخفف من آثارها عند الشباب، وتُقلِّل من حجم الخسائر التي تُولِّدها. فراح في مُجمل كتاباته اللاحقة ومحاضراته يتعرض لها، مناقشاً بموضوعية، مُحللاً بمنطق سليم، من غير أن يذكر صاحبها حفاظاً على مكانته، وتحاشياً لأيِّ أثر سلبي قد يثيره مثل هذا السجال في دائرة الشباب.

كما كان لمُطهّري في السياق قصة أُخرى مع مجاهدي خَلق (الشعب) وأتباعهم، انتهت في العموم إلى قطيعة

بينهما... وفي الفترة التي حصل فيها انشقاق في صفوفها، لتتشكل في ذثره منظمة بيكار الشيوعيّة، التي تخلّت عن الإسلام علانية بعد أن كانت المُنظمة الأم تطرح أفكارها في ثوب إسلاميّ وتجذب جيلاً كبيراً إليها بسبب ذلك[٤٢].

وقد عبَّرت كتابات مُطَهّري عن حرص شديد على مواجهة كلا هذين العاملين السابقين، وبيان تأثيرهما السلبي على الشباب، وفي سياق حركة النهوض. فوضع كتابه الشهير « الخدمات المتقابلة بين الإسلام وإيران » لتنفيد طموح السلطة إلى تجاوز التجربة الحضارية الإسلامية لإيران، وإلى إخفاء تاريخها الإسلاميّ، وتجربتها على ضوئه ومن وحيه، ولبيان تهافت الادعاء القائل بأنَّ الإسلام دمّر حضارة الإيرانيين وعفا على تراثهم وحطَّم تقاليدهم التي رسختها الحضارة الفارسية في قرون مُتمادّية شكلت الفترة الذهبية في تاريخها. ولتأكيد المنافع التي قدمها الإسلام لإيران وثقافتها. ووضع كتبه الثلاثة: الحجاب، ونظام حقوق المرأة في الإسلام، والجنس في التصور الإسلاميّ لمواجهة التشويه الذي مارسه مُتغربون مُتنورون تجاه المفاهيم المرتبطة بالسَّتر ونظام الإرث وتعدد الزوجات والمهر وجُملة التشريعات المرتبطة بالمرأة وبحقوقها ومكانتها.

أمّا مواجهة الاستثمار السلبي لمفاهيم الإسلام في الحرية والعدالة والمساواة والانقسام الطبقي للمجتمع ولسنن التاريخ وقوانينه، والتي كانت الحركات الماركسيّة الإسلاميّة الثوريّة تمارسه على نطاق واسع، فقد أخذت الكثير من وقت الشهيد وجُهده في محاضراته وندواته. ويُشكل كتاب: المجتمع والتاريخ، ونقدي بر ماركسيسم (نقد على الماركسيّة) استجابة لهذا

التحدي والمواجهة، ولقد كرَّر مُطهّري الكثير من أفكاره في هذين الكتابين في كتب أخرى متعددة الاهتمامات والموضوعات.

وعلى أي حال، فلقد شكل هذا المسار أحد المسارات التي شغلت مُطهّري، وحرّكت اهتمامه ووجّهت نتاجه، في إطار رؤيته الكلية لمشروع النهوض والإحياء ؛ إذ من غير تصدٍ لمثل هذه الانحرافات المعرفيّة والفكريّة، فإنّ مشروع النهوض سيصطدم حتماً بما يعيق انطلاقته، ويُعطل اندفاعته، وسيصاب بالإخفاق، ويكون نصيبه، كغيره من مشاريع النهوض السابقة، الانهزام والتقهقر.

٤ ـ المسار التفصيلي الثالث: « مُواجهة التحدّيات الفكريّة الغربيّة »

انتشرت في إيران في مطلع القرن ـ كما هو الشأن في باقي أقطار العالم الإسلاميّ ـ تيّارات فلسفيّة، ومذاهب عِلمويّة، واتجاهات طبيعيّة ماديّة، ومدارس نفسيّة واجتماعيّة وتاريخيّة، ورُؤى في الأخلاق والمعرفة والقيم، تركت آثارها المُدوية، وتمتعت بجاذبيّة كبيرة، فاجتاحت في طريقها عقول الشباب والمثقفين، ووصل صدى ذلك إلى الحوزات العلمية، ونشأت على أثرها تيّارات مُنتسخة تشبهها، وتتمثل أفكارها، وتتبنى رُؤاها، وتدافع عنها وتُروّجها.

وقد وجد مطهّري أنَّ خطر ذلك يفوق أو يساوي الخطر الذي يجلبه التشويه المنظم لتعاليم الإسلام، والفهم الساذج السطحي لتصوراته ومبادئه ؛ لأنَّه يفقد الأمة هويتها، ويقطعها عن تراثها وتاريخها، ويدفع بها في طريق التغريب والاستلاب والتبعية العمياء، ويجعلها عُرضة لأن يُسيطَر عليها، وتُستغل ثرواتها وتُهدر طاقاتها، ثم تفقد

مكانتها شيئاً فشيئاً على مسرح العالم، وبين أُممه المتنوعة وشعوبه المختلفة كأمة لها حضورها وتأثيرها وفاعليتها.

وانصبَّ جُهد مطهّري على مكافحة المذاهب الأخلاقية الماديّة، وصنَّف لأجل ذلك كتابه « فلسفة الأخلاق »، وللرَّد على الديديولوجيا الماركسيّة ورُؤيتها للتاريخ كتابه « المجتمع والتاريخ »، أو لرؤيتها الكونيّة الشاملة كتابه: « نقد الماركسيّة ». ولبيان تهافت النزعات الماديّة وعقمها وآثارها المدمرة كتابه: « الدوافع نحو الماديّة »، وعلى رُؤى ومواقف فلسفيّة واجتماعيّة ونفسيّة لمفكرين غربيّين كبار مثل: راسِل، وسارتر، وهيوم، وديوي وآخرين، يقع القارئ لمصنفات مطهّري على معالجات لأفكارهم ومناقشات لرؤاهم وتصوراتهم، كما في « أسس الفلسفة » أو « نظام حقوق المرأة في الإسلام »، أو « الإنسان والمصير »، أو « الإنسان والقضاء والقدر »، أو « العدل الإلهي »... إلخ، على نحو لا يكاد يخلو كتاب من كتبه من استعراض لفكرة غربيّة ومناقشتها أو الإشارة إلى مذهب أو معتقد وبيان ما يحمله في داخله من عناصر قوة أو ضعف.

ولا يعيبُ مُطَهّري أنَّه لم يكن يقرأ مثل هذه الأفكار في نُصوص أهلها، وفي مصادرها الأصلية، فلقد كانت الترجمات التي تتوفر لها في اللغة الفارسية، والدراسات التي تستعرضها كافية بالنسبة إليه للتعامل معها في حُدود مشروعه، وفي إطار ما يطمح إليه، وهو الأثر المترتب على اعتناقها والإيمان بها على مجمع البيئة الثقافيّة والحضارية لإيران، والأخطار التي تقودها إليها، وتُلقيها فيها. وبهذا المسار يكون قد اكتمل البناء الفكري لمُطهّري.. في أصله وفروعه، وتحدَّد الإطار العام الذي نظَّم تفكيره، والنسق

الـذي جمـع نتاجـه، علـى تعـدد عناوينـه التي عُرض بها وأُعلن من خلالها. واخـتلاف موضـوعاته وتنـوع الطريقـة

الهوامش

١ ـ مجموعة من الباحثين، المُطهري العبقري الرسالي، دمشق: المستشارية الثقافية الإيرانية، ١٩٩٣. ص ,١٢

٢ ـ المصدر نفسه، ص ,١٤

٣ ـ المصدر نفسه، ص ,١٤

٤ ـ المصدر نفسه، ص ١٥. يروي علي دوّاني أنه بعد فشل حركة الإمام الخميني ضدَّ الشاه، ووقوع مجزرة الفيضية، تعرض طُلاب الإمام وأنصاره من رجال الدين إلى العزل وقُوطعوا، وكان من جملة هؤلاء مُطهّري الذي أفسدت حاشية البروجردي الود بينهما، وبالرغم من محاولة منتظرة حل هذه المشكلة، وحمله رسالة من مُطهّري إلى أستاذه البروجردي يشرح له فيها موقفه، إلا أنَّ الأخير رفض تسلمها. فقرر مطهري الرحيل إلى طهران. انظر: علي دَوّاني، مذكراتي مع الشهيد مُطهّري، قم: مؤسسة أم القرى ١٤١٧ هـ، ص ١٢٨ ـ ,١٢٩

٥ ـ المصدر نفسه، ص ١٣٠ ـ ١٣١. ويذكر ذلك مطهّري عند حديثه عن محنته في قُم بعد مشاركته في نشاطات مكتب إسلام ومحاضراته في دار التبليغ. وهو يشبه محنته بمحنة السيد حسن القمي الذي انفض عنه المقدسون ورجال الحوزة بالرغم من كونه آية الله فنفاه النظام إلى ناحية من نواحي طهران هي (كرج)، انظر: المصدر نفسه، ص ,٨٦

٦ ـ مجموعة من الباحثين، المُطَهّري العبقري الرسالي، مصدر سابق، ص ١٦ ـ ١٧. ويُلاحظ بتفصيل: علي دواني، مذكراتي مع الشهيد مطهري مصدر سابق، أماكن متفرقة. وكذلك مجموعة من الباحثين، جولة في حياة الشهيد مطهّري، بيروت: دار الهادي، ١٩٩٢ م، أماكن متفرقة كذلك.

٧ ـ يلاحظ حول طبيعة هذه الجمعية وآرائها، وإقدامها على قتل الكثير من الشخصيات تحت ذرائع واهية ومنهم مطهّري. (علي دواني، مذكراتي مع الشهيد مطهري، مصدر سابق، ص ١٢٦ و١٢٧. وكان يوجه هذه الحركة رجلا دين مغموران استغلا من قبل عناصر إلحادية، وتعاظمت دعواتهما، ولقد أعدما بعد ذلك في سجن قصر. (المصدر نفسه، ص ١٢٥ و ١٢٧).

٨ ـ مجموعة من الباحثين، جولة في حياة الشهيد مُطهّري، مصدر سابق، ص ٢٧٧؛ مجموعة

من الباحثين، المطهري العبقري الرسالي، مصدر سابق، ص ١٧,

٩ ـ علي أكبر هاشمي رفسنجاني، «مطهّري كما عرفته»، ضمن: مجموعة من الباحثين، جولة في حياة الشهيد مطهري، مصدر سابق، ص ١٢٠، وعلي دواني، ذكرياتي، مواطن متفرقة؛ مجموعة من الباحثين، المطهّري العبقري الرسالي، مصدر سابق، ص ١٦,

١٠ ـ مجموعة من الباحثين، جولة في حياة الشهيد مطهري، مصدر سابق، ص ١٢٨ ـ ١٢٩. والمؤف نفسه، ذكرياتي، في أكثر من موضع؛ ومجموعة من الباحثين، المطهري العبقري الرسالي، مصدر سابق، ص ١٦. ولقد كان مطهّري من أبرز مؤسسي جمعية علماء الدين المناضلين التي أخذت على عاتقها قيادة مشروع النهوض الشامل في المجتمع، ومشروع تجديد المؤسسة الدينية وتفعليل دورها. انظر: المصدر نفسه، ص ١٦,

١١ ـ مجموعة من الباحثين، جولة في حياة الشهيد مطهري، مصدر سابق، ص ١٦٠؛ ومجموعة من الباحثين، مطهرري العبقري الرسالي، مصدر سابق، ص ١١,

١٢ ـ مجموعة من الباحثين، جولة في حياة الشهيد مطهّري، مصدر سابق، ص ١٤٧ ـ ١٤٩,

١٣ ـ المصدر نفسه، ص ١٤٩، وص ١٥٥ ـ ١٥٧,

١٤ ـ مجموعة من الباحثين، جولة في حياة الشهيد مطهّري، مصدر سابق، ص ٢٥٦,

١٥ ـ المصدر نفسه، ص ١٨٠ و٢٥٧,

١٦ ـ المصدر نفسه، ص ٢٥٨. وانظر: مجموعة من الباحثين، مطهّري العبقري الرسالي، مصدر سابق، ص ١٧ ـ ١٨,

١٧ ـ مجموعة من الباحثين، مطهري العبقري الرسالي، مصدر سابق، ص ١٨٠,

١٨ ـ مطهّري، مقالات حول الثورة الإسلامية، ترجمة: محمد جواد المهري، طهران: مركز إعلام الثورة، ١٤٠٢ هـ، ص ١٢,

١٩ ـ المصدر نفسه، ص ٤٩,

٢٠ ـ المصدر نفسه، ص ١٦؛ ويقارن: مجموعة من الباحثين، مطهري العبقري الرسالي، مصدر سابق، ص ١٨,

٢١ ـ مُطهّري، الإنسان والقضاء والقدر، ترجمة: محمد علي تسخيري، طهران: المكتبة الإسلاميّة الكبرى، لا. تا، ص ٥,

٢٢ ـ المصدر نفسه، ص ٥,

٢٣ ـ المصدر نفسه، ص ٥ ـ ٦,

٢٤ ـ انظر حول هذه المستويات: المصدر نفسه، ص ٩ ـ ١٥ على التوالي.

٢٥ ـ انظر مثلاً: مُطهّري، نظام حقوق المرأة في الإسلام، ترجمة: أبو الزهراء النجفي، طهران: منظمة الإعلام الإسلاميّ، ١٩٨٧ م، الفصل الرابع تحت عنوان: الإسلام وتجدد الحياة.

٢٦ ـ مطهّري، الإنسان والقضاء والقدر، مصدر سابق، ص ١١ ـ ١٥,

٢٧ ـ مطهّري، الإسلام ومتطلبات العصر، ترجمة: علي هاشم، بيروت: دار الأمير، ١٩٩٢ م. ص ٢٥٨,

٢٨ ـ المصدر نفسه، ص ٢٥٨,

٢٩ ـ مُطهّري، نظام حقوق الأمرأة في الإسلام، مصدر نفسه، ص ٩٥,

٣٠ ـ مطهّري، بيرامون انقلاب إسلاميّ، طهران: انتشارات صدرا، ص ٤٥,

٣١ ـ مُطهّري، الهدف السامي للحياة والإنسانية.

٣٢ ـ مُطهّري، الرؤية التوحيدية للعال، والإيمان والإنسان. وسيأتيان. والواقع أنَّ الهدف السامي للحياة الإنسانية يشكل جزءاً من هذه السلسلة من الكراسات التي هي دروس في الأساس.

٣٣ ـ «الرشد الإسلاميّ» ضمن: مقالات إسلاميّة، ص ٩٤,

٣٤ ـ المصدر نفسه.

٣٥ ـ الرشد الإسلامي، مصدر سابق، ص ٩٥,

٣٦ ـ مطهّري، الحركات الإسلاميّة في القرن الأخير، ترجمة: صادق العبادي، بيروت: دار الهادي، ١٩٨٢، ص ٩٧,

٣٧ ـ يلاحظ مثلاً: مطهري، مقالات حول الثورة الإسلاميّة، مصدر سابق، صفحات ١١ ـ ١٥ ـ ١٦ ـ ٤٩ ـ ٥٧ ـ ٥٨ ـ ٦٤ وغيرها؛ وحرية العقيدة أم حرية التفكير؛ مطهري، الجهاد وحالاته المشروعة في الإسلام، منظمة الإعلام الإسلامي، ص ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٤٤,

٣٨ ـ علي دواني، مذكراتي مع الشهيد مطهري، مصدر سابق، ص ١١٨ ـ ١٢٧. وشاركه في نفس الأفكار شيخ آخر يُدعى كودرزي. شكلا النواة لجمعيتي أمل المستضعفين والفرقان المتطرفتين اللتين اغتالتا الكثير من شخصيات النضال.

٣٩ ـ المصدر نفسه، ص ٧٩ ـ ١٠٦,

٤٠ ـ بالرغم من أن حسينية الإرشاد ـ التي كان يُشرف عليها مُطهّري ورفسنجاني وباهر أول الأمر ـ نشرت ثلاثة كتب مثيرة للجدل، هي: معرفة الإسلام، ومحمد خاتم النبيين، والخلافة والإمامة لعلي شريعتي (المصدر نفسه، ص ٨٣). ولقد أثارت أفكار شريعتي مواقف

حادة من قبل رجال دين تقليديين أصابت بشررها مُطهّري نفسه، فترك حسينية الإرشاد إلى مسجد الجواد في طهران.

٤١ ـ المصدر نفسه، ص ٨٨.